جامعة الخليل
كلية الدّراسات العليا
برنامج اللغة العربيّة

نهر الأردن في السرد الفلسطيني

(القصّة القصيرة والرّواية)

إعداد

رنا وضّاح سعدي المحتسب

إشراف الدّكتور

إبراهيم أبو هشهش

قدّمت هذه الرّسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في كلية الدّراسات العليا في جامعة الخليل

2015- 2016م

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات..... ب
الإهداء ..... هـ
شكر وتقدير ..... و
الملخص ..... ز
المقدمة ..... ي ط
التمهيد 1
المكان لغةً..... 2
المكان في الفلسفة 3
المكان في علم الاجتماع 4
المكان الفني 6
الفصل الأول: نهر الأردن بين الدلالات السلبية والإيجابية 10
أ–نبذة عن دلالات النهر في الأدب العربي 11
ب–سيميائيّة العنوانات 14
– دلالات نهر الأردن في الأعمال السردية الفلسطينية..... 25
– أولا: دلالة الغربة والحنين والعودة..... 25
–ثانيا: دلالة العبور 34
– ثالثا: دلالة الرغبة والخصب والسخاء 39

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- رابعا: دلالة التطهير وغسيل الذنوب 44
- خامسا: دلالة الاضطراب والصراع 46
- سادسا: دلالة الجسر بين الدلالة السلبية والايجابية: 51
الفصل الثاني: المنظورات الموضوعية لنهر الأردن 60
أولا: المنظور السياسي للنهر 61
-نهر الأردن بين الاحتلال والمقاومة والسلام 62
ثانيا: المنظور النفسي للنهر 75
1- فجيعة الفلسطيني بين النكبة والنكسة والتشريد..... 76
2-الخوف من عبور النهر..... 82
ثالثا: المنظور الاجتماعي 90
- صور من الواقع الحياتي الفلسطيني..... 90
رابعا: المنظور الديني للنهر بين الرؤية اليهودية والفلسطينية 98
الفصل الثالث: البناء السردي وتقنياته الفنية 109
الشخصية والمكان 110
الزمان والمكان..... 119
أنواع الأعمال السردية وبناؤها التقني 124
أولا: الاسترجاع 125
ثانيا: المشهد 129
ثالثا: الاستباق..... 136
رابعا: تيار الوعي..... 138

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- الحوار 144
خامسا: الحوار الخارجي 144
سادسا: الحوار الداخلي 148
سابعا: الوصف..... 151
الخاتمة 157
المصادر والمراجع..... 159
الملخص باللغة الإنجليزية 170

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإهداء

أولاً....

إلى عينيّ الوضاءتين..... أبي وأمي حفظهما الله

إلى المخلص الوفي..... حمزة زوجي

إلى مؤنساتي الغاليات:

آية...

رغد...

هدى...

نور...

ملك...

إلى توأميّ اللذين سكنا قلبي وروحي: أمير وفارس

ثانياً...

إلى كل فلسطيني أطلق الزفرات والعبرات على مياه نهر الأردن في العبور والعودة.. !

ثالثا...

إلى بحثي

حملتك حلما جميلا في فكري، فلما وضعتك أحببتك أكثر..!

أهدي ثمرة هذا الجهد

الباحثة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر المعطر بأسمى آيات الامتنان للدكتور المشرف على رسالتي، إذ تتنحى الكلمات خجلى من علمه وتواضعه وعطائه.

والشكر موصول لمن ساعدني وأمدني بالنصائح وبالكتب، منهم على سبيل المثال لا الحصر:

الروائي الدكتور صالح أبو أصبع، والروائي جمال ناجي، والدكتور أحمد قطامش، والدكتور العراقي جاسم عاصي، والدكتور إبراهيم خليل من الأردن، والكاتب الإعلامي جعفر العقيلي، ولكل من ساعدني وشجعني من الأصدقاء طلبة ماجستير قسم اللغة العربية في جامعة الخليل وفي غيرها، وأخص بالذكر طلاب العراق، فبارك الله فيهم جميعا، وجزاهم الله عني خير الجزاء.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الملخص

يعد نهر الأردن من الأماكن الحيوية والمفصلية في حياة الشعب الفلسطيني، لما يحمله من دلالات توغلت في حياتهم بشتى أشكالها وصورها، إذ ترجع أهميته الاستراتيجية كونه يمر في بعض الدول العربية ويعد مكانا مهما بالنسبة للشعبين الأردني والفلسطيني، بينما يسطو عليه الكيان الصهيوني ويسيطر عليه اقتصاديا وسياسيا، مما أدى إلى تغييرات جذرية في حياة الفلسطيني غيّرت مجرى حياته.

تناولت الدراسة أعمالا سردية حملت أغلفتها عنوانات تشمل على نهر الأردن، وقد لوحظ من خلالها أنها تحمل معنى رمزي، يكلله الحذف والاختصار ويعلوه الحزن.

وقد حمل الفصل الأول دلالات متعددة، من غربة وحنين ولوعة وعبور وعودة وخصب وعطاء وصراع وقتال، فقد كان بابا للخروج والتهجير، ومفتاحا للعودة، تلك العودة التي حملت معها معاني القهر والألم، وكان بؤرة دفاع عن الوطن فقد دارت حول ضفافه جولات الفدائيين عابرين مياهه، وكان مكانا لتكفير الخطايا والذنوب، ومنبع الخيرات الذي فاض على الناس بالماء والأسماك والسعادة والهناء.

وحمل الجسر دلالة المكان المدنس وذلك إثر سيطرة اليهود عليه منذ القدم كما ظهر في رواية جسر بنات يعقوب بشكل جليّ، بعد أن كان مكانا آمنا لأهله.

وانعكست دلالة نهر الأردن على المنظور السياسي والنفسي والاجتماعي والديني، وألقت بظلالها على حياة الفلسطيني في محاولة مستمرة من الاحتلال للسيطرة على المكان وجعله عنوانا لهم زيفا وبهتانا، وظهرت تداعيات النكبة والنكسة واتفاقية أوسلو على الأعمال السردية المتناولة في دراستنا التي اتخذت طابع الألم، مما جعل تلك الفاجعة تربة خصبة للصراع والقتال والمقاومة،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فكان عبور النهر بمخاوفه وصعوباته عنوانا للمناضلين، وكان التهجير فصار حلم الفلسطيني يضعف شيئا فشيئا حتى أضحى حلمه العودة إليها وإن كان ميتا وأن يدفن في ترابها بعد أن حُرم منها حيا كما ظهر في روايتي: نهر يستحم في البحيرة وغريب النهر، واستحضرت الدراسة عددا من أسماء القرى المهجّرة: كسمخ والعباسية، وتحدثت عن تهجير أهل الشماصنة، فكان تشريد الفلسطيني بعد أن عاش من قبل حياة هانئة سعيدة في بلاده وعلى ضفافه، إذ كانوا يقومون بأعمالهم الحياتية من غسيل للملابس وأواني الطعام وغير ذلك فتأتي النساء إليه للاستحمام والاستجمام وغير ذلك يدعون الله طالبين حاجاتهم في مياهه، زائرين مقامات الصالحين كمقام أبي الريش، بينما كان يسعى الصهيوني قسرا بإثبات ملكية المكان له وسلب ما ليس له ممارسا طقوسا دينية توراتية غير عقلانية كتطهير المكان بدم حمار!

وقد أثّرت الشخصيات في المكان وتعددت ألوانها، فظهرت شخصية الغريب المشرد بشكل كبير ثم شخصية المقاوم، وحضرت صورة الشخصية اليهودية في رواية (جسر بنات يعقوب)، والعميل في رواية (ياقوت النهر).

ويأبى الزمان الفلسطيني إلا أن يلتحم مع المكان الفلسطيني، فعكست الأعمال السردية حالة البلاد عموما والنهر خصوصا، وذلك إثر زمن النكبة والنكسة وبعد اتفاقية أوسلو عام 93، وقد تناولنا تلك الجزئية عبر تقنية الاسترجاع، التي احتلت نصيبا كبيرا من عناصر الزمان، بالإضافة إلى تقنيات زمنية أخرى كالمشهد والاستباق وتيار الوعي وقد حملت طابع الحزن والألم بشكل عام.

واتخذ الحوار الداخلي لونا حزينا شجيا، يعكس قصة الوجع الفلسطيني الذاتي والجمعي، بينما جيء بالحوار الخارجي لسيرورة الأحداث، وأبان عن مكنونات الشخوص، وانتهت الدراسة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعنوان الوصف الذي وجّه بوصلته نحو تصوير المكان بشكل كبير، بالإضافة إلى وصف المشاعر الإنسانية النقية والمتألّمة والمغتربة.

على الهامش:

كُتبت هذه الرسالة بنبضين: نبض يحمل القهر والألم إثر إرجاعي من قبل المحتل الصهيوني عن عتبات الجسر مرتين، ونبض يحلم بعودة النهر لنا كاملا، ذلك النهر الذي تركت على ضفافه شوقي ودمعي وذكرياتي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المقدمة

يعد المكان من العناصر المهمة في تشكيل البناء الروائي، فالمكان لا يقتصر على وقوف المبدع على حدوده الجغرافية والإقليمية فحسب، بل أصبح وعاءً معرفيّا متكاملا يحيط بنا ويؤطّرنا ويستوعب ذواتنا وأفكارنا، ويحتضن علامات ثقافتنا، وتظل معالمه مغروسة في لاوعينا، ويظل حضوره ماثلا أمامنا طافيا على سطح ذاكرتنا، فهو يحضر معه كل إيحاءاته، ونتوءاته، وقيمه.

وقد بات الاهتمام بالمكان بؤرة اتجه إليها الأدباء العرب على نحو لافت، وصار حضوره قويا في الروايات الفلسطينية على الخصوص؛ لترسيخ الهوية الفلسطينية، ولتأكيد عمق الجذور التي تربط الفلسطيني المشرد – مهما طال شتاته– بأرض الوطن، مهما حاول الإسرائيليون إبعاد الفلسطيني مكانيا وروحيا عن أرضه، وقلب الحقائق وتزوير التاريخ ؛ لإحلال فكرة الدولة الصهيونية وتثبيت جذورها، وبالتالي حرمان اللاجئين من حق العودة إلى ديارهم.

تناولت هذه الدراسة مكانا مهما ومركزيا في حياة الفلسطينيين في الداخل والخارج، ألا وهو نهر الأردن، ذلك النهر بمكانته المفصلية في حياة شعبين (الأردني والفلسطيني) وكيان آخر متطفل هو: العدو الصهيوني الذي لا يزال مسيطرا عليه، سارقا مياهه.

لقد اكتسب نهر الأردن دلالة أعمق في المنظومة المعرفية الجمعية بعد النكسة الحزيرانية التي قطّعت أوصال الضّفتين. وأضحى عبور (الجسر) أول بوابات الذل للدخول إلى الوطن، وآخر عتبات القهر للخروج منها، فصار عنوانا للذل والقهر.

ونظرا لأهمية نهر الأردن التي تكمن في الأبعاد السياسية والاجتماعية لدى الفلسطينيين، توجّه البحث شطر هذا المكان الذي عكسه الإنتاج الأدبي الفلسطيني شعرا ونثرا، وبرز في ثنايا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الروايات الفلسطينية بصورة واضحة عكست معاناة الفلسطينيين عبر الدخول والخروج مرورا على جسر (اللنبي) أو معبر الكرامة أو جسر الملك حسين.

تكمن أهمية هذه الدراسة في جدة موضوعها؛ إذ لم يعثر على دراسة سابقة– في حدود علم الباحثة – تناولت نهر الأردن في الروايات الفلسطينية، مما وجّه الدراسة نحو الروايات التي حملت أغلفتها عنوان نهر الأردن ومسمياته فقط، مبرزةً صورته ودلالته داخل المتن الحكائي بأبعاده السياسية والاجتماعية والدينية والنفسية.

وكانت الدراسات التي عُثر عليها قد طالت بعض الخيوط في الروايات المختارة في الدراسة بشكل عام، ولم تتطرق إلى نهر الأردن بتاتا، بل كان محورها المكان بشكل عام أو البناء الفني لهذه الرواية أو تلك، ومن أمثلة ذلك: مقالة بعنوان الشخصية اليهودية في رواية حسن حميد جسر بنات يعقوب، للكاتب سعيد أبو نعسة، ومقالة أخرى بعنوان: جسر بنات يعقوب – رواية، لنازك ضمرة، وجسر بنات يعقوب "نموذجاً" للسلوكية اليهودية في ممارسة اللاأخلاق لسها جلال جودت.

إضافة إلى مقال بعنوان: الضفة الثالثة لنهر الأردن سيرة ذاتية للكاتب الفلسطيني حسين البرغوثي تجاوزت الميثاق الاوتوبيوغرافي (فيليب لوجون) إلى التسجيل الوثائقي بلغة شعرية قلقة لتيسير مشارقة، وكتاب بعنوان: "في القصة والرواية الفلسطينية" لإبراهيم خليل تناول فيها رواية (جسر على النهر الحزين) للكاتب محمد علي طه، ومقالة بعنوان: مع رواية الضفة الثالثة لنهر الأردن لحسين البرغوثي (البحث عن الحرية) بقلم علي الخليلي.

وكتب محمد عبد القادر في كتاب بعنوان (جماليات الرمز والتخييل) عن رواية (نهر يستحم في البحيرة) في جماليات البناء ورمزية التفصيل، وهناك مقالة أخرى بعنوان: " نهر يستحم في البحيرة" جمالية سردية تحاور أوسلو وترشقه بقنبلة غاضبة، وقراءة في رواية يحيى يخلف "نهر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يستحم في البحيرة لنجمة حبيب، بالإضافة إلى رسالة ماجستير بعنوان: الرواية الفلسطينية وتجلياتها الفنية والموضوعية في الأرض المحتلة بعد اتفاقية أوسلو عام 1992م للطالب حسين محمد حسين الصليبي، تحدث خلالها عن رواية (نهر يستحم في البحيرة) دون التطرق إلى نهر الأردن ودلالته، وكذلك الخطاب الروائي في مواجهة الواقع في روايتي: نهر يستحم في البحيرة، وماء السماء ليحيى يخلف نموذجا للدكتورة مها القصراوي وهو بحث محكم لم تتحدث فيه عن نهر الأردن، ومقالة أخرى بعنوان: فشل التعايش ورحلة الآلام في بحيرة يحيى يخلف بقلم: عواد أبو زينة، ومقالة بعنوان: يحيى يخلف في نهر يستحم في البحيرة، من تفاؤل المنفى إلى خيبة العائد، لعادل الأسطة، ومقالة أخرى له تتحدث بشكل عام عن هذه الرواية التي بعنوان: الحب في ظل الحرب المرأة اليهودية محبوبة، في نماذج من الأدب الفلسطيني، وكذلك تناول الأسطة رواية (نهر يستحم في البحيرة) في كتابه: أدب المقاومة– من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات، ورسالة ماجستير بعنوان: البطل في الرواية الفلسطينية في فلسطين من عام 1993–2002، للطالبة أحلام بشارات.

ووجد مقالات عن رواية (غريب النهر) منها: (غريب النهر لجمال ناجي التشويق في الخطاب السردي بحث محكم للدكتور إبراهيم خليل، بالإضافة إلى (من سفر الشتات الفلسطيني) قراءة نقدية في رواية جمال ناجي/غريب النهر/ – محمود شاهين، كل ذلك لم يتطرق إلى نهر الأردن بل تناولت تلك الروايات بشكل آخر أو بصورة عابرة، مما جعل الباحثة تقبل على هذه الدراسة بشغف واهتمام كونها لم تدرس، فيتسنّى لها شرف السبق إليها.

وقد قامت هذه الدراسة على عدد من الأعمال السردية –التي تناولت نهر الأردن في العنوان– وكانت هي الموضوع الأول للدراسة، وجاءت حسب الترتيب الزمني كالآتي:

- (عراة على ضفة النهر) مجموعة قصصية صالح أبو أصبع، 1967.
- (جسر على النهر الحزين) مجموعة قصصية علي محمد طه، 1970.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- (الضفة الثالثة لنهر الأردن) رواية حسين البرغوثي، 1984م.
- (جسر بنات يعقوب) رواية حسن حميد، 1996 م.
- (نهر يستحم في البحيرة) رواية يحيى يخلف 1997م.
- (النهر الغريق) رواية نزار أبو صخر، 1999م.
- (عبور النهر) رواية أحمد قطامش، 2000م.
- (النهر بقمصان الشتاء) رواية حسن حميد، 2005م.
- (ياقوت النهر) رواية محمد أبو ربيع، 2009م.
- (غريب النهر) رواية جمال ناجي، 2012م.
- (على ضفاف النهر) رواية أبو علاء منصور، 2014م.

واعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي؛ إذ استقرئت النصوص السردية بالتحليل والوصف، وبحث البنية العميقة لمغزاها وسبر أغوار كنهها ما استطاعت الباحثة إلى ذلك سبيلا، فكان هذا المنهج خير معين لهذه الدراسة.

كما ارتكزت على عدد من الكتب في الفن الروائي وعلم السرد، مثل: معجم مصطلحات نقد الرواية للطيف زيتوني، وبنية النص السردي لحميد الحمداني، وجماليات المكان لغاستون باشلار، والخطاب الروائي لباختين، وجماليات المكان لسيزا قاسم، بالإضافة إلى كتاب مهم أُرسله مؤلف الكتاب نفسه عبر البريد من العراق، ألا وهو (دلالة النهر في النص) لجاسم العاصي، والعديد من الكتب والمقالات والدراسات.

ولقد كانت قلة الدراسات المساندة لهذا العنوان من الصعوبات البارزة، بالإضافة إلى تعذر العثور على بعض الروايات، إذ بُحث عن رواية بعنوان (حافة النهر) لعلي حسين خلف، وبعد طول مشقة وعناء في الحصول عليها من الأردن، فإذا النهر المتناول ليس نهر الأردن بل نهر العاصي في سوريا، فاستبعدت من البحث.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قسّمت الدراسة إلى: تمهيد وثلاثة فصول تناولت في التمهيد الحديث عن المكان بأنواعه المتعددة، ثم جيء بالفصل الأول فحمل عنوانه: نهر الأردن بين الدلالات السلبية والإيجابية وهذه الدلالات عديدة، مثل: الغربة والحنين والعبور والعودة ودلالة الخصب والسخاء وتطهير الذنوب ودلالة الاضطراب والصراع، بالإضافة إلى دلالة الجسر بين السلبية والايجابية، ثم كان الفصل الثاني بعنوان المنظورات الموضعية السردية لنهر الأردن، اشتمل على المنظور السياسي والنفسي والاجتماعي والديني، أما الفصل الثالث، فكان بعنوان البناء السردي وتقنياته السردية، إذ اتخذ طابعاً نقدياً فيه لمحات تقييمية عامة على الأعمال السردية المتناولة من حيث أنواعها وبنائها ونوع الراوي وعناصرها التقنية، وقد بدأ الفصل الثالث موضحاً علاقة الشخصية بالمكان والزمان بالمكان، ثم عناصر الزمن كالاسترجاع والمشهد وتيار الوعي والاستباق، ثم بقية التقنيات مثل: الحوار الخارجي والداخلي والوصف، ثم ذيلته بخاتمة وقائمة مصادر ومراجع، وملخص باللغة الإنجليزية.

وأتقدم بالشكر الجزيل العرفان الكبير لمشرفي على هذه الرسالة، الذي اقترح علي هذا العنوان، الدكتور إبراهيم أبو هشهش، الذي ما فتئ يصوّبني ويوجهني بنصائحه، فجزاه الله عنا خير الجزاء، مع الشّكر الوافر للجنة المناقشة على جهودها.

أعلم أن هذه الدراسة –كأي عمل بشري– يعتريه النقص، وإني لأرجو أن أكون قد سددت وقاربت – بتوفيق من الله– وإن جنحت أو قصرت فيكيفني شرف المحاولة.

والله ولي التوفيق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التمهيد

(المكان ومسمياته)

المكان لغةً

المكان في الفلسفة

المكان في علم الاجتماع

المكان الفنيّ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أضحى الاهتمام بالمكان الرّوائي دعامةً أساسيةً في الخطاب الرّوائيّ العامّ، ومفترق طرق يربط أنساق النّصّ بروابط متينة، ممثلة في توحّد الدلالتين الموضوعيّة والفنيّة للرواية وما يتبع ذلك من منظومة لغوية متناسقة تحلّق بالخيال في ذهن القارئ، وتزرع في نفسه عنصري الحركة والتشويق عبر التكامل النصي من شخصيات وأحداث وزمان وتصوير وغير ذلك.

والرّواية هي الجنس الوحيد الذي يظلّ مستمرا في صيرورة لا تكتمل، تعكس بحساسية أكبر وجوهرية عميقة أحداث الواقع وتطوّره[1]؛ إذ تصوّر المكان بدقة وتفصيلات تختزن في ذاكرة الماضي والحاضر، وينبئ المستقبل عن هوية المكان وتاريخه، وهو بذلك يكسبه خصوصيةً وأصالةً وقيمة نفسية في ذاكرة الإنسان.

المكان لغةً:

ذكر صاحب كتاب لسان العرب: "المكان: الموضع، وجمعه أمكنة وأماكن جمع الجمع"[2]، والمكان في موضع مستقر، فهو ساكن بعد متحرك، وثابت بعد أن كان متقلقلا[3]. وقد حملت لفظة المكان دلالات متعددةً: فقد ذُكر في القرآن الكريم بمعنى: المستقر والموضع، يقول تعالى: "**وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**" [4] أيّ مكان له دلالة العلو والثبات.

وذُكر في قوله تعالى: "**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**"[5]. قال قتادة في تفسيرها: "مكانا شرقيا" شاسعا منتحيا، وقيل: إن مريم اتخذت لها بيتا تعبد فيه الله بعيدا عن الناس[6].

---

[1] ينظر، باختين ميخائيل، **الخطاب الروائي**، 16.

[2] ابن منظور، **مادة كون**.

[3] ينظر، الأحمر، فيصل، **معجم السيميائيات**، 123.

[4] **مريم**، 57.

[5] **مريم**، 16.

[6] ينظر، ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، 118.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومنها ما جاء بمعنى بدل، مثل قوله تعالى: "**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**" [1]، أي عوضا عنه وبدلا منه [2].

ويأتي المكان بمعنى المنزلة كما ورد في قوله تعالى "**فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً**" [3] شر مكانا: أي "مقام" [4] ومنزلة، بالإضافة إلى العديد من الآيات الكريمة التي تناولت لفظ المكان بدلالات مختلفة.

المكان في الفلسفة:

اقتحمت لفظة المكان العديد من الميادين المعرفية العلمية والأدبية، فالمكان الموضع، وهو المحل ويكون المكان بعدا منقسما في الجهات جميعها وهو مرادف للامتداد، نقول: مكان فسيح ومكان ضيق [5]، "ويرى أرسطو المكان: بأنه موجود بدليل أنه يوجد جسم يمكن أن ينتقل عنه، ويشغل محله جسم آخر، ومعنى هذا أن المكان يختلف عن أي شيء يتحيّز فيه" [6] "وقسّمه إلى قسمين: عام وخاص، فالعام: هو الذي فيه الأجسام كلها، والخاصّ وهو أول ما فيه الشيء الذي يحويك وحدك، ويشكّل المكان العام مجموع الأمكنة الخاصة، أما المكان الخاصّ، فلا يحوي أكثر من جسم في زمان واحد" [7]، "ثم إنّ العناصر الطّبيعية يميل بعضها إلى فوق وبعضها الآخر إلى

---

[1] **يوسف**، 78.

[2] ينظر، ابن كثير، **تفسير القران العظيم**، ج2، 500.

[3] **مريم**، 75.

[4] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، 139.

[5] ينظر، صليبيا، جميل، **المعجم الفلسفي**، ج2 /412.

[6] بدوي، عبد الرحمن، **موسوعة الفلسفة**، ج2 /461.

[7] خضر، خالدة حسن، **المكان في رواية الشماعية**، **116**، مجلة كلية الآداب، عدد 102.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تحت والفوق والتحت ليسا نسبيين فقط إلينا، بل الفوق هو الاتجاه الذي تتحرك نحوه النار، والتحت الاتجاه الذي تتحرك نحوه الأرض" [1].

ويعرّف ابن سينا المكان بأنّه: "السطح الباطن من الجرم الحاوي المماس لسطح الظاهر للجسم المحوي"[2].

ويرى ابن رشد أنّ "المكان هو النّهايات المحيطة بالجسم الطبيعي، كما عدّه بعدا متخيلا يحيط بالجسم تكوّن أبعاده وأبعاد الجسم واحدة"[3].

وإذا ما جئنا إلى المحدثين، فإننا نجد المكان عندهم وسطا مثاليا غير متداخل الأجزاء، حاو للأجسام المستقرة فيه، وهو متجانس الأقسام متشابه الخواصّ في جميع الاتجاهات، متصل وغير محدود[4].

المكان في علم الاجتماع:

يمثّل المكان أهمية ذات دلالة سيكولوجية على المستوى الذاتي والجمعي، إذ يألف الإنسان مكانا يحوي ذكرياته وتراكماته المعرفية، ويرتبط به ارتباطا وثيقا يبتعد عنه أو يقترب منه بحسب تداعيات المكان السلبية أو الإيجابية في المجتمع والفرد.

ولقد "حاول علماء الاجتماع إيجاد مفهوم آخر للمكان، وذلك بإرجاعه إلى أصول سوسيولوجية، فهو عند اميل دوركهايم Durkheim EMAILE لا يصدر صدورا ذاتيا أو قبليا عند

---

[1] شاهين، أسماء، **جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا**، 9.

[2] صليبيا، جميل، **المعجم الفلسفي**، ج2/ 412.

[3] بدوي، عبد الرحمن، **مدخل جديد إلى الفلسفة**، 196، 179. نقلا عن شلاش، غيداء، **المكان والمصطلحات المقاربة له–دراسة مفوهوماتية**، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، 247، مجلد 11، عدد 2، 12–5–2011م.

[4] ينظر، صليبيا، جميل، **المعجم الفلسفي**، ج2 /412.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بينية العقل، كما أنه ليس بالمكان المطلق الذي يتسم بسمة العموم وإنما هو مكان نسبي يحدده موقف الفرد في المكان الفيزيقي والمكان الاجتماعي" [1].

وفي تفسير أفكار دوركهايم يقول قباري إسماعيل: "حين نتأمل تلك الأوضاع والتقسيمات المكانية في صدورها ونشأتها، فإنما يظهر لنا أنها ليست ذاتية أو مطلقة، وإنما هي مقيدة بتصورات المجتمع للمكان؛ إذ إن الإنسان لا يدرك المكان إدراكا عقليا مباشرا، وإنما يدركه بفضل وسائل اجتماعية لا بد من عبورها حتى يستطيع أن يتفهم حقيقة العالم الخارجيّ" [2].

وهذا ما يجعل المكان يشكل أفقا رحبا أو ضيقا لدى المجتمع أو الفرد، إذ إن تداعيات المكان بأحداثه وشخصياته وزمانه وما يحمله من مدلول سلبي أو ايجابي ينحت في الوجدان واللاوعي.

"وأكد سوركين Sorkin عدم التجانس القائم بين المكان الهندسي وبين المكان السوسيوثقافي من حيث إن المكان الهندسي يتعلق بهندسات كثيرة ومتنوعة. أما المكان السوسيوثقافي فيتعلق بالمكانة الاجتماعية التي يشغلها الإنسان في طبقته وأسرته ومجتمعه"[3]، ويرى موريس هاليفاكس HalifaX Morri أن الزمان والمكان يشتركان معاً في أنّهما محوران أساسيان للذاكرة، فهما الإطاران اللذان يختزنان الذكريات الاجتماعية، وبالتالي يصبحان شرطين ضروريين لحفظ التراث الحضاري والثقافي للمجتمع الإنساني[4].

---

[1] شاهين، أسماء، **جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا**، 13-14.

[2] **نفسه**، 15.

[3] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[4] **نفسه**، الصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المكان الفني:

يعدّ المكان عنصرا أساسيا من عناصر النص الروائي؛ لأنه يمثل إلى جانب الشخصية والزمن والحدث، الأسس الفنية والجمالية التي ينهض عليها المتن الروائي، ولقد تم الالتفات إليه حديثا ودخل عالم المصطلحات النقدية بعد أن كان الضوء مسلطا على الشخصية أو الزمان أو الأحداث[1].

ويكتمل الفضاء الرّوائيّ بالشّخصيّة الحكائيّة والأحداث وما يكملها من بنية زمانية ومكانية، وما تحمله من تقنيات مستخدمة لحكي القصة المتخيلة، كلّ ذلك يتمّ تحت جناح الفضاء الحكائي، الذي يلفّ أجزاء الرواية، مكملا أعضاء الجسد الواحد[2].

وهناك من يعدّون الفضاء معادلا للمكان، وأطلقوا عليه الحيز المكاني في الرواية أو الحكي، وأطلقوا عليه المكان الجغرافي، الذي يستنير الروائي به لتقديم مجموعة من الإشارات الدلالية والرمزية الجغرافية، لتحرك خيار القارئ ورؤيته، أو من أجل تحقيق منهجية المكان وأبعاده[3]، ويستخدم القاص تفصيلات جزئية عند وصفه للمكان؛ لإثارة عنصر التفاعل والتشويق وللكشف عن الحالة النفسية والتاريخية في الحدث الروائي آنذاك.

ويسعى السّارد عبر الخطاب الرّوائي في تلك التفصيلات إلى تجاوز ذلك الفضاء المادي ليعبر به عبر الفضاء الدلالي الذي كان بمثابة الأثر أو الرؤية أو الرسالة التي يرسلها الراوي عفوا أو قصدا إلى المروي له، ويمكننا أن نعدّه الفضاء الجغرافي الجسد والفضاء الدلالي الروح، بحيث لا ينفصل أحدهما عن الأخر[4]، فمثلا عندما يتحدث الكاتب عن الصحراء (المكان الجغرافي)

---

[1] ينظر، الحمداني، لحميد، **بنية النص السردي**، 53.

[2] ينظر، **نفسه**، الصفحة نفسها.

[3] ينظر، **نفسه**، الصفحة نفسها.

[4] ينظر، **نفسه**، 61.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويروي أحداثا حصلت في ذلك المكان مع شخوص وزمان، فإن المكان الدلالي له أبعاد أوسع من المعنى اللفظي المجرّد، فقد يرمز بذلك إلى رحلة الضياع أو الغربة أو المنفى أو الموت وما شابه ذلك.

ويقسّم يوري لوتمان Yuri Autaman المكان الجغرافي إلى أنماط عدة:

1- عندي: المكان الذي أمارس فيه سلطتي، ويكون بالنسبة لي حميما وأليفا.

2- عند الآخرين: مكان يخضع لسلطة الغير.

3- الأماكن العامة وهي ليست ملكا لأحد معين ولكنها ملكا عاما للدولة.

4- المكان اللامتناهي: ويكون بصفة عامة خاليا من الناس، مثل: الأرض التي لا تخضع لسلطة أحد، كالصحراء مثلا[1].

ولعل هذا ما يجعلنا نختار مكانا عوضا عن غيره أو أن نفضّل مكانا على آخر، وذلك يرجع إلى عمق تأثرنا فيه، وحريتنا في ممارستنا الذاتية وامتلاكنا له بمساحة سيطرتنا عليه والتحكم فيه.

ونميل إلى رأي فيصل الأحمر؛ في أنّ المكان جزء من الفضاء الروائيّ، فهو لا يقصد به المكان المخصص في الرواية، كالبحر أو البيت أو الحديقة أو ما شابه ذلك، بل إنه يتسع ليشمل دلالات أوسع من ذلك ممتزجة معا من شخوص وأحداث وزمان، فيتشكل فضاء فنيّ يجمعهما جميعا وفق نسق حكائي مترابط[2]، فقد يصوّر السارد مجموعة من الأمكنة داخل النص الروائي، يحمل كل منها دلالته الخاصة وتفاعله مع القارئ عبر تصاعد الأحداث لكنه في النهاية يكون متعلقا بمجالات جزئية في الفضاء الرّوائي.

---

[1] ينظر، الأحمر، فيصل، **معجم السيميائيات**، 128.

[2] ينظر، **نفسه**، 125.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنّ الحديث عن مكان محدد في الرواية، يفقدها عنصر الصيرورة والتفاعل للأحداث، وذلك يقتضي انقطاع زمني لحظة تصوير المشهد، بينما يتسع الفضاء ليصور لنا حركة داخلية مستمرة زمنيا[1]، ذلك بأن وظيفة الفضاء المكاني لا تندرج تحت إطار واقعي للأحداث، بل غايتها توفير إطار تصويري فني وتمثيلي متراءٍ للقارئ، مهما بعدت صلته عن الواقع، فقد يلجأ السارد إليه لخلق عالم خيالي محض أو لكشف طبائع الشخصيات ونفسيتها، أو لإطلاع القارئ على الحدث التاريخي وقت ذاك، أو لإظهار عناصر القوى المتصارعة في الحكاية[2].

وتكمن أهمية الفضاء بوصفه منظورا يعبر عن رؤية الكاتب الذي يلون الرواية، فالسارد عبر استخدامه للغة وتحريكه للأحداث والشخصيات والأماكن يشكل مجموع الخطاب العام، بحيث تبرز صورة المؤلف مجتمعةً في لقطة واحدة، فتصب في عمق الرؤية السردية، ولا غرو في ذلك، فهو ملك الخطة الحكائية وصانعها[3].

والجدير بالذكر أن "مصطلح الفضاء يستعمل في السيميائيات، وذلك باعتباره موضعا شاملا يوجه اهتمامه بالفاعل كونه منتجا ومستهلكا للفضاء، هذا الفاعل الذي لا يقدّم الحدث الرّوائيّ إلا مصحوبا بجميع إطاراته الموضوعية والفنية وبجميع إحداثياته الزمانية والمكانية، فيصبح فاعلا مؤثرا في أحداث القصة حيث يلتقون جميعا في علاقة جدلية"[4]. وقد تبرز أحيانا أحد عناصره بشكل أكبر من غيره، وذلك حسب رؤية السارد في الخطاب السردي.

ويتخذ مصطلح الفضاء عند (جيرار جينيت) G. GENETTE فضاءات أخرى قائمة في صلب التكوين الأدبي: فضاء اللغة الذي يستقبله الرّوائي عبر التعددية اللسانية والصوتية للغة

---

[1] ينظر، الحمداني، لحميد، **بنية النص السردي**، 63.

[2] ينظر، زيتوني، لطيف، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 128.

[3] ينظر، الأحمر، فيصل، **معجم السيميائيات**، 132.

[4] الأحمر، فيصل، **معجم السيميائيات**، 124-125.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأدبية وغيرها، دون المساس بجوهر العمل الفني الذي لا يضعفه تنوع اللغة، فهو يستعملها لخدمة نواياه دون أن يسلم نفسه إليها كليا، بل يتركها نصف أجنبية[1].

ثمّ يأتي فضاء الكتابة التي تعتمد على التأثيرات البصرية للخط والتبويب والهوامش وشكل الكتاب والغلاف ككيان تام، وفضاء التعبير الذي يندرج تحت معنيين حقيقي ومجازي[2]. فهناك الروايات الواقعية التي تبرز أسماء الأماكن والشوارع الحقيقية والزمن الذي وقعت به كما في الروايات التسجيلية، وهناك الروايات الخيالية التي تستدعي قصصا خيالية أو أسطورية، يشط بها صاحبها قليلا أو كثيرا عن الواقع.

ونرى أن المكان الفني الذي يختاره السارد؛ لابد أن يكون له آثار مرتبطة باللاوعي، حيث إنه في مرحلة الاستنزاف ونبش الذاكرة، ويحدث هذا إما عفوا أو قصدا عبر استخدام لغته وأدواته الفنية وخلفيته المعرفية؛ لإيصال أكبر مشاهد للقارئ، واصفا بدقة المكان المختار مصورا إياه بأدق تفصيلاته، وكأنه يتراءى أمام أعيينا، ونحن بوصفنا قارئين؛ لا يمكننا إلا أن ننسحب إلى الحالة النفسية السردية للسارد، ويصبح تفاعلنا معه ليس شعوريا فقط، بل جماليا كذلك.

---

[1] باختين، ميخائيل، **الخطاب الروائي**، 67.

[2] زيتوني لطيف، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 127.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الأول: نهر الأردن بين الدلالات السلبية والإيجابية

أ- دلالة النهر في الأدب العربي

ب-سيميائية العنوانات

ج-دلالات نهر الأردن في الأعمال السردية الفلسطينية

- الغربة والحنين والعودة
- العبور
- دلالة العشق والخصب والسخاء
- دلالة التطهير وغسيل الذنوب
- دلالة الاضطراب والصراع
- دلالة الجسر بين الدلالة السلبية والايجابية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أ- نبذة عن دلالات النهر في الأدب العربي:

برزت صورة البحر والنهر (المكان المائي) بدرجة كبيرة في الأدب العربي، فقد عكس رحلاتهم وتجاربهم، وصوّر خلجات أنفسهم ومشاعرهم. وفاضت قصائد عربية جميلة بوصف البحر والنهر وتناولتهما بصورة جمالية، وكذلك الأمر نفسه في النثر.

وقد وصف الشعراء الرحلة النهرية إلى الممدوح، وقطع المسافات عبر المياه للوصول إليه مادحين، لينالوا جزيل عطائه، وقد استمدوا صورهم من البيئة الصحراوية في تشبيه السفن بالنوق أو بالظعائن، وتناولوا وصفها بدقة ورسموا صورا جميلة وطريفة.

وبهذا؛ اتخذ النهر أول دلالة بارزة، وهي: دلالة الخير والكرم، إذ يفيض النهر على الناس بالماء والأسماك وغير ذلك، كما يفيض الممدوح على مادحه بالخير والعطايا، فوصف الممدوح بالبحر أو النهر في سخائه، كما شُبّه خيره بفيضان النهر وعطائه [1].

وبرز في المكان المائي (النهر) دلالة الصراع والحروب بين الدول قديما، ولعل ذلك يرجع إلى مساواته بالمكان البري في السيطرة الفعلية على الأماكن الاستراتيجية في البلاد، لإضعاف الآخر وإحكام القبضة عليه يابسا وماءً.

وقد شهدت الأنهار صراعات الإنسان مع الطبيعة من أجل استمرارية الحياة وتوفير لقمة العيش، فكان النهر حماية له من زعزعة الأمان أو صراع الإنسان مع المناهضين له خلال فرض سياسية الأقوى، وإقامة الصراع الطبقي لرفض ظاهرة السلب أو الاستغلال[2].

---

[1] ينظر، عطوان، حسين، **أدب البحر والنهر**، 34.

[2] ينظر، عاصي، جاسم، **دلالة النهر في النص**، 13.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحمل النهر دلالة الغربة والحنين، عبر وصف الرحلة النهرية وما تتبعه من سفر وترحال وانتقال من مكان إلى آخر بعد ظهور الحضارات حول الأنهار كنهريّ دجلة والفرات في العراق، ونهر النيل في مصر.

ويدل النهر على الزمن المتغير والمتجدد؛ لأنه يجري دائما إلى الأمام دون عودة، وهو رمز التجدد الدائم الخالد[1]، خاصة عندما يرتبط ذلك بأوقات زمنية صعبة جاورت مناطق الصراع، فتكون حركته السريعة أو البطيئة مؤشرا يؤثّر على البعد السيكولوجي للإنسان[2].

ولهذا التحول أو التغيّر للنهر أبعاد نفسية، فهو يرتبط أولا بتغير الحياة البشرية ذاتها، ثم يعبّر النهر عن التحول من الشّرط البشري إلى الشرط المجهول الخفيّ من الطّبيعة، والفرق بين الحالتين، هو العيش في الأول وعبور الثاني، فهو الحياة التي تعيشها وتحسها الآن، وإدراك الزمن الآني في علاقته مع الكائن الحي، حتى إذا وصلت إلى الثاني (النهر) تخرج من الحياة المعروفة بأسرها إلى مكان آخر مجهول أو إلى لامكان ولا زمان، فشرط النهر الثاني هو انتهاء شرط النهر الأول، والتحول من التحول المستمر في الحياة البشرية إلى الفناء الخالص عنه[3].

ويعكس النهر دلالة الارتواء الحسي والروحي والطهارة، وأخذ طابع النزهة الترويح عن النفس، إذ إن رؤية الماء تدخل السعادة والراحة على نفس الإنسان. والماء يحمل دلالتين متناقضتين: دلالة الإيجاب (الإحساس بالحياة والنقاوة، ودلالة السلب (الحياة المبتذلة) وماء النهر المتجدد الجريان

---

[1] ينظر، بلاوي، رسول، **موتيف النهر والبحر في شعر يحيى السماوي**/ الناقد العراقي/ 16-6-2013 .http://www. alnaked-aliraqi. net/article/16390. php

[2] ينظر، عاصي، جاسم، **دلالة النهر في النص**، 10.

[3] ينظر، أحمد، دارين، **في النهر وتجلياته**، معابر، tp://www. maaber. org/issue_march10/ editorial. htm

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يحمل مدلول الطهارة والصفاء؛ لأنه الخير والخلود والديمومة كما أن له قدرة على جرف الأقذار، وكذلك الماء البارد أقرب إلى الطبيعة الصافية الصادقة[1].

ويرمز النهر إلى دلالة الخصب والتجدد، وهذا يرتبط بدلالة الجانب الجنسي، وهو مصدر إخصاب الفحولة والأنوثة واكتمالهما عند الذكر والأنثى، حيث إنه مرآة لانعكاس الظواهر الباطنة في النفس، وإظهار للعواطف الكامنة في تنمية صيرورة الحياة عند الشخصيات [2]، والماء الساخن يتآلف مع النار وبذلك يفقد قدسيته، إذ إن الماء والنار يعطيان عند اجتماعهما أضدادا مادية ملموسة: رجولة النار وأنثوية الماء، من هذا اللقاء نصل إلى الرطوبة الساخنة إلى العلاقات الحميمة بين الذكر والأنثى[3].

ويظهر النهر بدلالة قدسية أحيانا، عبر التثبت بالخلفية المعرفية الأسطورية والدينية، وذلك كونه دال الانبعاث والخلق[4].

بناء على تلك الدلالات العامة للنهر، فإننا نرى أن نهر الأردن كغيره من الأنهار، اكتسب هذه الدلالات جميعا، وإن اتخذ بصورة أكبر بؤرة الصراع العربي الإسرائيلي، والحد الفاصل للآلام والآمال بين الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج، وأكسبه هذا الحد الفاصل بين الضفتين المتشكل في النزاع الدائم تشبثا أكبر بهوية المكان، فتحولت بذلك صورته الذهنية والواقعية إلى مصدر قهر وحزن، بعد أن كان نهر الأمان والسلام، وقد ظهر ذلك بعد حرب ال67 التي غيّرت

---

[1] ينظر، لعميري، عبد الجليل، **شعرية المكان في رواية ثرثرة فوق النيل**، مجلة عود الند، عدد 7، 6يناير، 2012م.

[2] ينظر، عاصي، جاسم، **دلالة النهر في النص**، 10.

[3] ينظر، لعميري، عبد الجليل، **شعرية المكان في رواية ثرثرة فوق النيل**، 14، مجلة عود الند، عدد 7، 6 يناير، 2012م.

[4] ينظر، عاصي، جاسم، **دلالة النهر في النص**، 10.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معالمه، وسيقت مياهه إلى صنابير مياه الكيان الصهيوني، بينما حُرم شعبان من الاستفادة من معينه.

إن نهر الأردن[1] هو ذلك النهر الذي نبض به الشعر الفلسطينيّ، فذكره محمود درويش وفدوى طوقان [2] في شعرهم، فقد وصف درويش قتل الفلسطينيين الذين يحاولون عبور الجسر، بينما ذكرت فدوى طوقان في قصيدتها معاناة الفلسطيني عند الوقوف فوق مياهه مستجديا العبور من المحتلّ.

ب- سيميائيّة العنوانات:

ذكر نهر الأردن في العديد من الأعمال الأدبية الفلسطينية سواء في مجال الرواية أو الشعر، ولكنّا وجهنا بوصلتنا في دراستنا إلى تناول نهر الأردن في الأعمال السردية الفلسطينية التي حملت عنوان النهر على أغلفتها، ونظرا لمعرفتنا بأهمية العنوانات التي تكشف عن الوظيفة المعرفية السردية للنص، فإنّ وظائف العنوان من المباحث المعقدة التي يحاول القارئ سبر أغوارها واكتشاف أسرارها، " لذا اتجه بعض الدارسين إلى تحليله متخذين من الوظائف اللغوية التواصلية ل "رومان جاكبسون"ROMAN JAKOBSON سبيلا للمقاربة، فيُرى أنه مجموعة من العلامات اللسانية

---

[1] سمي قديما بالمنخفض التجويف، وكذلك السوري، وأطلق الرومان عليه وادي ألون، وأطلق عليه زمن المسيح (يا ردن)، ثم أطلق عليه نهر الأردن، وتعود تسميته إلى أصول سامية وتعني: المتدهور، بينما أطلق عليه الروم gordanous وفي لاتينية الصليبيين اسم (جوردن) والعرب يطلقون عليه نهر الشريعة، وأسماه الإسرائيليون (يردين)، ينظر، صاحب، الربيعي، **الأمن المائي ومفهوما السيادة والسلام في دول حوض نهر الأردن**، 21.

[2] ينظر، درويش، محمود، **الأعمال الشعرية الكاملة**، قصيدة (الجسر)، ج1/ 353، وينظر، طوقان، فدوى، **الأعمال الشعرية الكاملة**، قصيدة (آهات أمام شباك التصاريح/ عند جسر اللنبي) 407.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي تظهر على رأس نصّ ما قصد تعيينه وتحديد مضمونه الشامل، وكذا جذب جمهوره المستهدف"[1].

ويعدّ العنوان عتبة بداية ونهاية للمضمون الخطابي، كما أنه يحيل على النص ويحيل النص عليه، إلا أنّه علينا أن ندرك أنه لا يتخذ بعدا واحدا مستقيما، بل قد يحمل طابعا جدليا أو رمزيا أو ضديا للمتن الحكائي[2]، والعنوان لا يوضع عبثا أو اعتباطا، فثمة بعض المعاني والأسماء والأحداث تساعدنا في كشف مضمون النص وفضّ رموزه وكشف خباياه[3].

وكثيرا ما يجذبنا عنوان الكتاب أو العمل الأدبي ويغرينا بقراءته، فهو نظام سيميائي ذو بعد دلاليّ يؤسس لفضاء نصيّ، مشعلا ما كان ساكنا في وعي المتلقي ويحمله إلى آفاق فكرية وثقافية وجمالية، تلقي به في عالم الخيال والتأويل[4].

وعند الوقوف على عنوانات الأعمال السردية – حسب التسلسل الزمني للروايات – نجد أنّ قصة (عراة على ضفة النّهر)، (1967م)، التي اختارها صالح أبو أصبع لمجموعته، يحمل عنوانا ذا دلالةٍ رمزيةٍ ومفتاحا مهما لفهم النص السردي، وقد بدأه بصيغة الجمع (عراة) وهي نكرة، ثم يأتي التفصيل والتوضيح بإضافة الكلمة –وهي مبتدأ–إلى الخبر المتكون من جار ومجرور ومضاف إليه، مما يكسبه تخصيصا وتحديدا بأن هؤلاء العراة هم (على ضفة النهر).

والسؤال هنا: من هم العراة؟ ولماذا هم عراة؟ وهل المقصود بالضفة هي الضفة الشرقية أم الغربية للنهر؟ وما دور النهر في ذلك؟

---

[1] بلعابد، عبد الحق، **عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص**، 73–74.

[2] ينظر، المغربي، حافظ، **عتبات النص والمسكوت عنه في قراءة نص شعري**، 4، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة.

[3] ينظر، الضمور، عماد، **وظائف العنوان في شعر نادر هدى**، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد 28، 5، 2014م.

[4] ينظر، **نفسه**.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنّ مكنون (عراة على ضفة النهر) تقوم بوظيفة مزدوجة، فهي تعرّي وتضيء، تعرّي مظاهر التفسخ والركود والسلبية في واقع نضالنا، وتضيء جوانب الصمود والتطلع والإيجابية"[1].

ونرى أن كلمة (عراة) توحي بالدلالة السّلبية، فهي تدلّ على الضياع والتّشريد والتّجريد، وجاءت بصيغة الجمع لا المفرد دلالة على التعرية الجمعية للواقع الأليم الذي يحياه الفلسطيني، واختار كلمة (ضفة) وأضافها إلى نهر، وهي وإن دلّت على الأمان نوعا ما، لكنّه أمان مؤقت في مكان قسريّ، لم يكن يوما هو الحيّز المكانيّ المطلوب للشعب الفلسطيني.

وتكشف القصة عن واقع حقيقي عاشه الشّعب الفلسطينيّ المشرّد الضّائع بين الضّفتين، وهو ليس أسطورة ولدت في زمن موت الأساطير، إنما هو إنسان أولا وأخيرا تعرض لمحنة قاسية بين الشعوب، وهذه القصة تكشف عن حبّ الفلسطينيّ للحياة، لكن الاحتلال حال دون ذلك، فاختار طريق الموت والمقاومة كي يصنع حريته[2].

وتتضح لنا سيميائية العنوان ودلالته في المجموعة القصصية (جسر على النهر الحزين)، (1970م)، لمحمد علي طه، فجاءت كلمة جسر (نكرةً مفردةً) وهو مكان حقيقي مقصود يوحي بالعبور والسفر والأمان وبوابة الوصول.

وهو رمز للأرض الصّامدة التي تفرض حقها على الإنسان وتدفعه لأنّ يبقى متمسّكا بها حتى عمره الأخير مدافعا عنها من أي هجمات معادية [3]، وهذا الجسر الممدود فوق النّهر خالطه الحزن، ونحن لا نعرف أي نهر يقصد، لكننا نحن الفلسطينيين نعرف مقصد السارد ونعرف كذلك

---

[1] عشري زايد، علي، **المقاومة بالكلمة في عراة على ضفة النهر، مقدمة قصص بلون الحب لصالح أبو أصبع**، 14.

[2] عبيد الله، محمد، **قصص صالح أبو أصبع التعبير عن المقاومة والثورة برؤية داخلية، مقدمة عراة على ضفة النهر**، 4.

[3] ينظر، دريدي، محمد، **النص الموازي في أعمال عبد الرحمن منيف الأدبية**، 83، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2010م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معاناته، فخبرتنا تخبرنا بأن الجسر الحزين هو نهر الأردن، ويُظهر لنا المتن الحكائيّ حلم الغريب وأمله بالعودة وحزن النهر على فراق أبنائه المبعدين خارج الضّفة الغربيّة، الذين توزّعوا على بلاد العالم مشتتين، وكلهم أمل بالعودة بعد أن ملّ الجسر بعادهم، وكأنّ الجسر ينادي أبناءه بالرجوع على لسان السّارد في آخر جملة في القصّة، إذ يقول: "**نحن نبني جسرا مقدسا على نهر حزين**"[1] مؤكدا ترسيخ فكرة الهوية الفلسطينية: بإنسانها ومكانها وزمانها، بمشاركة الطبيعة من أنهار ونباتات وأرض، راصدا مرحلة تاريخية ثورية في تثبيت هوية المكان وتشكلها[2].

ويسمي حسين البرغوثيّ روايته (الضّفة الثالثة لنهر الأردن)[3]، (1984م)، فبدأ العنوان بجملة اسمية موصوفة مضافة لشبه الجملة (الجار والمجرور) والمبتدأ محذوف يُؤوّل بقصة الضفة الثالثة أو البحث عن الضفة الثالثة لنهر الأردن! وهو عنوان فيه انزياح ورمزية مقصودة، إذ إن لنهر الأردن ضفتين، وليس ثلاث ضفاف، فلماذا اختار الكاتب عنوانه الضفة الثالثة المعرف بأل؟ معنى هذا أنه يقصد مكانا بعينه، بينما لا يفصح في المتن السردي نهائيا عن هذه الضفة الثالثة؟ بل وتستبعد–هذه الرواية التسجيلية– ذكر نهر الأردن في الرّواية مطلقا بينما تستدعي أنهارا عدة غيره، ونتساءل: لماذا كان الحديث عن نهر الأردن ضمنيّا؟

ونحسب أن الكاتبَ لجأ إلى ذلك عمدا، إذ تلجأ بعض الرّوايات إلى الصمت قصدا طامحةً من ورائه إلى تحقيق غايات فنية عدة، وليس من شك في أن الفحصَ عن أمر الصّمت ووظائفه يزيد

---

[1] طه، محمد علي، **جسر على النهر الحزين**، 66.

[2] ينظر، حمد، محمد، "**الهوية ومرايا السرد النرجسي** " **في قصص محمد علي طه**، 18، موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني الحديث.

[3] **تجدر الإشارة إلى وجود رواية بعنوان الضفة الثالثة للنهر لخميريس روسا (1904م–1967م).**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعالم الرّواية تشويقا لسبر كنه النص وإعمالا لعنصر التأويل[1]، وقد عدّ العرب الصّمتَ أبلغ من التّعبير عن المقاصد في كثير من الأحيان.

إن غياب نهر الأردن في الرواية وحضور الأنهار الأخرى، لهو براعة فنية من كاتبنا، فهو يدلّ على وجود غائب يثبت حضوره بغيابه، ووقوعه خارج اللغة لا يلغي صلته المتينة بها، وكأنّ السّارد يتعمّد السّكوت تعمّدا، فيغدو مكوّنا أساسيا من مكوناتها تزيد دراسته إدراكا للخطاب السّردي الّذي يبتغيه الكاتب [2] .

وعند وقوفنا على عنوان الرّواية، يتبادر إلى ذهننا سؤال: هل هناك ضفّة ثالثة لنهر الأردن؟ نهر الأردن الّذي فصل بين الشّعب الواحد فجعل الضّفة ضفتين شرقيّة وغربيّة، ومنفى!

هذا الشّعب الّذي عاش في الشتات، وعاد للوطن بعد غربة وعذاب وسجون للضفة الغربية "الأخرى" التي ما كانت إلا منفىً آخر وغربةً أخرى.

إنّ سرا وجوديا وراء الضفة الأخرى عند الكاتب، فالضفة هي خياره الثالث الغريب، غير المرئي، غير الموجود على الخريطة، الفوضوي أو الصوفي المشتق من السديم، يفتش عن المجهول، ولا يجد المتشابه [3]، حتى عند عودة السارد إلى بلاده كانت عودته موسومة بالعودة القسرية، قبل أن تنتهي صعلكته في بلاد الآخرين، وقبل أن ينضج مشهد الاغتراب، ليلتحم بالجراح

---

[1] ينظر، حمدي، محي الدين، **مدخل إلى "الصمت في النص السردي"**، 2، جامعة صفاقس، مجلة كلية الآداب واللغة، العدد الثامن، 2011م.

[2] ينظر، **نفسه**، 11.

[3] ينظر، مشارقة، تيسير، **تجريب فلسطيني مبكر في رواية الضفة الثالثة لنهر الأردن**، دنيا الرأي، 3-5-2005.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجديدة في وطنه عبر السجون والزنازين، مما جعله يكرر في الرواية كلها لعنة العالم، و(إسرائيل) جزء كبير من هذا العالم الملعون[1] .

ونرى أن الضفة الثالثة هي ضفة الأمل التي يبحث عنها السارد أو مكان لقاء الأحبة، هي الفردوس المفقود، ونتساءل هل وجد ما يبحث عنه السّارد – الفلسطيني– في رحلته؟ هل ضفته الحقيقية هي المنفى أم الوطن، أم أنه سؤال الفلسطيني الذي لا يلقى له جوابا؟! ولعلنا نستشفّ رؤيته الضّبابيّة للمكان بقوله: "**أجمل الأمكنة يا ولدي، قوس قزح حيث تحيا برتقاليا أو أبيض أو أزرق كيفما تشاء**" [2]، فالمكان بالنسبة له كان متماهيا ملوّنا، يلوّنه الإنسان كيفما يتفق مع راحته وأمنه وسعادته.

ويحمل عنوان رواية (جسر بنات يعقوب)، (1996م) للكاتب حسن حميد، قصة يعقوب وبناته، حيث يلتقي المكان مع الشّخصيات بأحداث حصلت حول الجسر، والجسر كلمة مفرد نكرة أضيفت إلى جمع: (بنات)، ثم اكتسب التّخصيص في العنوان بـ (بنات يعقوب)، ويعقوب اسم ذو دلالة دينية وتاريخية، يحيلنا على إرث ذاكرتنا وتاريخنا، فنعرف أنه يتحدث عن الجسر المقام فوق نهر الأردن المسمّى جسر بنات يعقوب. ويجب ألّا يغيب عن بالنا أهمية "وقوع جسر بنات يعقوب بالقرب من موقعة حطين، ومن موقع التقاء نهر اليرموك بنهر الأردن، ومن موقع مدينة طبريا التاريخية" [3]. مما يكسب الرّواية أبعادا تاريخيةً ودينيةً.

ولعلنا نتساءل: ما قصة الجسر؟ وما الأحداث التي حصلت بجانبه؟ أسئلة يثيرها عنوان الرواية، يكشف عن كنهها السّارد عبر الأحداث الحكائيّة الّتي تعكس شخصيّة يعقوب؛ إذ تتجلى

---

[1] ينظر، مشارقة، تيسير، **تجريب فلسطيني مبكر في رواية الضفة الثالثة لنهر الأردن**، دنيا الرأي، 3-5-2005.

[2] البرغوثي، حسين، **الضفة الثالثة لنهر الأردن**، 133.

[3] ضمرة، نازك، **جسر بنات يعقوب لحسن حميد قراءة نقدية**، ديوان العرب، 12، شباط، 2008م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شخصيته المحوريّة الّتي تنبئ عن بعض صفات اليهوديّ بكل أبعادها النّفسيّة والفكريّة والروحيّة والأخلاقيّة والماديّة [1].

ويغلّف يحيى يخلف رواية (نهر يستحم في البحيرة)، (1997م)، بكلمات رمزية، يبدأها بنهر (نكرة) ثمّ يعطيه دلالة الحدث والزّمن بكلمة "يستحمّ" وهو فعل مضارع يدلّ على الصّيرورة والاستمرار، ثمّ يفصّل بعد أن يعطيه صفة الاستحمام وهي لصيقة بالإنسان، ويقصد بحيرة طبريا[2] العذبة أصل نهر الأردن ومنبعه، والنّهر يأخذ صفة حيوية أكثر، لأنّه مارس فعل الحركة بغية التّحول والتّبدل[3].

ويلاحظ أن المكانين المائيين اللذين يلتقيان، هما النهر والبحيرة، فالنهر: مذكر، والبحيرة مؤنث، ونرى أن عناقهما يدلّ على لقاءٍ حميميّ مخصب بين العائد والأرض، وهو لقاء تطهيريّ لنهر الأردن نهر غسيل الذنوب ليغسل ذنوبه هو هذه المرة ويكفّر اللّاجئ الفلسطينيّ (النّهر) عن ذنبه بعودته إلى وطنه، بعودته إلى أصله ومنبعه (بحيرة طبريا) فيكتمل مشهد التّلاحم بين الفلسطيني وبين الأرض والماء والطين.

وهذا يدل على أن "نهر الأردن سيظلّ حاضرا، واستحضاره في العنوان دلالة على ديمومته في سريانه، فهو ما زال يستحمّ في بحيرة طبريا، وفعل الاستحمام يجسّد استمرارية حضور المكان، ورغم المفارقات الزّمنية الّتي يعيشها الإنسان في ظلّ متغيرات غير قادر على استيعابها أحيانا"[4].

---

[1] ينظر، عبدو، باسم، **قراءات البناء الفني في رواية (جسر بنات يعقوب)**، ستار تايمز، 23، 8، 2008م.

[2] تشبه في شكلها شكل القيثارة، آلة الطرب المعروفة يبلغ طول سواحلها 52 كم، وهي على بعد نحو 62 ميلا للشمال من القدس. ينظر، الدباغ، مصطفى، **بلادنا فلسطين**، ج7، 167.

[3] ينظر، قاسم، سيزا، **جماليات المكان**، 74.

[4] القصراوي، مها، **الخطاب الروائي في مواجهة الواقع في" روايتا نهر يستحم في البحيرة وماء السماء ليحي يخلف نموذجا**، 178، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، العدد الثاني، المجلد الحادي والعشرون، يوليو، 2013م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويقدم نزار أبو صخر روايته التسجيلية الواقعية (النهر الغريق)، (1999م) بعنوانها المتكون من لفظة مفردة معرفة (النهر) ويصفه بالغريق، فمن ناحية نحوية حذف المبتدأ الذي لنا أن نؤوّله: هذه قصة النّهر الغريق، أو أخبار النّهر الغريق، ممّا يجعل القارئ يتشوّق إلى معرفة ما حصل فيه ويتضاعف التّساؤل في المفارقة السّيميائيّة في العنوان وإضفاء صفه الغرق على النّهر لا على الإنسان!، فلماذا لم يقل: غريق النّهر، بل تحوّل العنوان إلى مبالغة مقصودة ذات مغزى، ألا وهي جعل الفدائيّ المقاوم أسطورةً في الدفاع عن الوطن، ويبدو الحدث الرّوائي المهم: هو تحقيق المجموعة الفدائية في آخر عبور لها انتصارا عظيما، وكأنه إعلان تحدٍ لكل أسباب الهزيمة النفسية والمادية، ولكل المعيقات التي تمنع الفلسطيني من المقاومة، وتظهر دلالة العنوان في جملة تموضعت في المتن السّردي، إذ يقول السّارد: "**اللّيلة سيغرق نهر الأردن بسيل الرّجال الأبطال الذين سيصنعون نصرا جديدا ومن نوع جديد**"[1]. وكأنّ نهر الأردن سيكون مكانا لتسجيل الانتصارات، وبذلك يصبح مدلوله مدلول القوة والبطولات حيث سيفرغ الفدائيون دمهم الطاهر في جنباته.

ويثير عنوان رواية (عبور النهر)، (2000م)، لأحمد قطامش تساؤلا في نفس المتلقي، يجعلنا نتساءل: لماذا عنون روايته بذلك العنوان، وما هي قصّة العبور؟ وأي نهر يقصد؟

إنّنا بحدسنا نعرف أنه يقصد نهر الأردن، وقد حذف المبتدأ أيضا في العنوان، فلنا أن نقول: قصة عبور النهر، لكنّ العابرين في الرّواية ليسوا المسافرين، إنّهم الفدائيّون الذين يعبرون نهر الأردن، ليقاوموا الاحتلال ويزرعوا المتفجرات في المواقع التي يستولي عليها العدوّ.

---

[1] أبو صخر، نزار، **النهر الغريق**، 127.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واللافت في الرواية، أنه يتحدث بشكل مقتضب عن عبور نهر الأردن، بينما يولى المغارات ومراقبة الأعداء والتسلل بينهما النصيب الأكبر في الرواية، ويتناول السارد نهر الأردن بكلمات قليلة يصفه بدلالة الرحمة في قوله: "**كنت رحيما أيها النهر**"[1].

ونعود إلى الرّاوي حسن حميد في روايته (النّهر بقمصان الشّتاء)، (م2005)، الّتي تحمل بعدا رمزيّا يصيبنا بالحيرة، فقد اختار لفظة النّهر وهو مفرد معرفة، وأضاف كلمة قمصان وهي جمع كلمة قميص، واختار لها فصل الشّتاء. والقمصان تدلّ على السّتر والدّفء، والشّتاء وإن كان فيه الخير، إلا أنه يحمل مدلول القسوة، فلقد تبدل مدلول النّهر إذ كان نهر الخير والعطاء، تجتمع حوله النساء ينهلن من مياهه العذبة، ويقمن بأعمالهنّ على ضفافه بين ضحكات وتسلية، لكن الأحداث الدامية التي تعرضت لها فلسطين من احتلال بريطانيّ وصهيونيّ، ألبسته لباس الخوف والجوع والألم، ويرى كاتبنا أن هذا العذاب لن يدوم، فهو يرى أنها مرحلة تاريخيّة مؤقتة للشّعب الفلسطينيّ. ونستشفّ ذلك من خلال معرفتنا بالطّبيعة الجغرافيّة للنّهر، فمياه النّهر دائمة الجريان، أمّا ماء الشّتاء فهو موسميّ ومنقطع، ونهر الأردن له خصوصية تكمن في سرعة جريانه وعنف انحداراته، فرغم قسوة الشّتاء (الاحتلال) إلا أنّه أي نهر الأردن في عطاء أورثه التّحدي، فالسّارد يتفاءل رغم كلّ المصاعب التي تعرض لها، ويرى أن الشّعب الصّامد سينال حتما حريته.

ويختار محمد أبو ربيع عنوانا لروايته يسميها (ياقوت النهر)، (2009) والياقوت حجر كريم أحمر اللون، وأضاف كلمة (ياقوت) المفرد إلى النهر، وحذف المبتدأ، ولنا أن نؤّول فنقول: قصة ياقوت النهر أو هذا ياقوت النهر. ولعلنا نتساءل: لم وصف النهر بالياقوت مع أنه لم يذكر كلمة النهر أبدا في روايته سوى في آخر ثلاث صفحات فيها؟!

[1] قطامش، أحمد، **عبور النهر**، 65.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نرى أن السّارد يرمي بدلالة (ياقوت النهر) إلى دم الفلسطيني المسكوب دفاعا عن وطنه، فهو ياقوت النهر وحاميه، وحافظ حدوده ولو كلفه ذلك نزيف الدماء فإن دمه الأحمر سيغتسل في النهر المقدس الذي يشكل خط دفاع عن بوابة فلسطين.

وتتجلى الحيرة والغموض في سيميائية عنوان رواية (غريب النهر)، (2012م)، لجمال ناجي، فهو عنوان يثير لدى المتلقي فضولا وتشويقا لمعرفة من هو غريب النهر، ونلحظ أن المبتدأ محذوف نؤوله بقصة غريب النهر، فمن هو هذا الغريب؟ولم وُصف بذلك؟

وتظهر دلالة الاغتراب في جدل الداخل والخارج بشكل محوري في هذه الرواية فهو الغريب الذي عاش في تركيا، وأوصى بدفنه في وطنه (العباسية)[1]، إذ يرفض الاحتلال دفنه هناك، فيُدفن بجانب النهر في الضفة الأخرى وحيداً وغريباً كما عاش في المنفى، وزُرع حول ضفاف الوطن بالقرب من نهر الأردن خلسة، وكأنه وباء!.

ورغم سلبية صورة نهر الأردن في العنوان إلا أنّ الكاتب أراد أن يعمل على "إبراز قدرة الإنسان عامّة والفلسطينيّ خاصّة على المقاومة والتّجدد في قلب المحنة، وكيف تتقوى فيه الرّغبة في الحياة والإصرار على استمرارها" [2]، وأنّ الغريب الفلسطينيّ سيعود يوما ما إلى وطنه، إلى أمه لتضمّه حيا كان أو ميتا، وهذا يدل على ترسيخ فكرة حق العودة لدى الأجيال الفلسطينية القادمة التي لم تر بلادها. وقد شاطرها نهر الأردن تلك الإرادة، وأعلن للجميع أنه لن يقف عائقا أمام العائدين.

---

[1] قرية من قرى يافا قائمة على أرض مستوية في السهل الساحلي الأوسط واتصلت بها عدة طرق تصلها بيافا واللد والرملة، ويقع مطار اللد على بعد أربعة كم من الجنوب منها، وتدعى القرية في العهد القديم (يهودا: يشوع 9: 45). وكانت تحت سيطرة قبيلة دان، وعرفت زمن الرومان باسم يوديا، ينظر: الخالدي، وليد، **كي لا ننسى**، 712.

[2] معتصم، محمد، **رواية غريب النهر لجمال ناجي: تخييل القضية الفلسطينية**، صحيفة قاب قوسين، 1 /6 / 2013م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واختار أبو علاء منصور لروايته التّسجيلية – وهي سيرة ذاتية – عنوان (على ضفاف النّهر)، (2014م) فجاء العنوان خبرا (شبه جملة: جار ومجرور)، وأضاف إليه كلمة النهر، وحذف المبتدأ الذي يمكننا أن نرجّحه بتأويلنا: قصّتنا أو قصتي على ضفاف النهر، وهو بذلك يحيلنا على المكان الذي ارتبطت به الأحداث، وتعالقت به الشخصيات والزمان فيحلّق المتلقي بخياله، ويشحذ ذهنه نحو التأملات، فيتساءل: ماذا حصل على ضفاف النّهر؟

واختار كلمة ضفاف وهي جمع، واستبعد كلمة (ضفّة أو ضفّتين) وهو بذلك يشير إلى الضّفتين الشّرقيّة والغربيّة وما حولهما، وهذا ما تكشفه الأحداث السّرديّة من قصص العبور والعودة.

ونلحظ من العنوانات السابقة أنها قصيرة وجاءت على صيغة جملة اسمية، حذف على الأغلب خبرها، فمثلا: (جسر على النهر الحزين)، الأصل أن نقول: هذه قصة الجسر الحزين، أو هذه قصّة هذا الرّجل الغريب، وغير ذلك من العنوانات التي أوّلنا معناها.

فغالبا ما حملت تلك العنوانات الحذف والتضمين والترميز، مما أعطى بعدا جماليا ورمزيا يثير التساؤل في ذهن القارئ فيحاول استكشاف كنهه، ويوحي لنا هذا الاقتضاب الممزوج بالحذف أنّ الحكاية لم تكتمل فصولها بعد، وأن صفحات القصّة الفلسطينيّة مازلت مغلفةً بالغموض والألم والأمل.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– دلالات نهر الأردن في الأعمال السردية الفلسطينية

على الرغم من تشابه دلالات نهر الأردن وتوافقها مع دلالات النهر عموما في الأدب العربي، إلا أنها نحت منحى بعيدا خاصا كون هذا النهر يشكّل بؤرة صّراع سياسيّ عربيّ إسرائيليّ، وباتت دلالته مقترنة بالألم والحزن أثناء دخول فلسطين وعند الخروج منها، ولقد قمنا باستعراض تلك الدّلالات التي تشكّلت عبر الأحداث الحكائية في الأعمال السّردية المدروسة وتقسيمها على النحو الآتي:

– أولا: دلالة الغربة والحنين والعودة

يظلّ الحنين إلى الوطن يسكن مشاعر الإنسان المغترب، ويبعث في نفسه الذكريات والأشواق، فكيف بالغريب الفلسطينيّ الذي أُخرج قهرا من أرضه، والذي بات يرحل كل يوم بأحلامه وذكرياته إلى موطنه وأهله وحقله وبيته.

ولقد انعكس ذلك الحنين في الأعمال السّردية الفلسطينية التي أشركت معها نهر الأردن في أشجانها وحكاياتها، فصار النهر مرةً شاهدا وتارةً صامتا ومرةً غاضبا وأحيانا وادعا وأحيانا أخرى رادعا.

تشتعل أشواق الفلسطينيين المغتربين في قصة (جسر على النهر الحزين)، فبعد غربتهم ومأساتهم وشتاتهم في أصقاع الأرض يقررون العودة، يقول السّارد واصفا ذلك: **بدأنا نقّطع اللّحم من أفخاذنا وبطوننا وصدورنا وأكبادنا** [1].

عدد السّارد بعض أعضاء جسم الإنسان وأضاف إليها ضمير المتكلّم الجماعي (نا) دلالة على تلاحم الشعب الفلسطيني وتوحّده في فكرة العودة، فهو كالجسد الواحد الذي على استعداد لفعل

[1] طه، محمد علي، 66.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أي شيء لأجل وطنه، واستخدم السّارد لفظ (التقطيع) دلالةً على بيع النفس لأجل الأرض، وهم فداءٌ لها بكل ما يملكون، ويرسم في المقابل صورة النّهر المشتاق الذي ينتظر عودة أبنائه، المبتهج برؤيتهم،"فعندما تلحّ فكرة العودة لدى المنفيين مجسدةً بصورة هوية تراكمت طبقاتها في ذاكرة أهل المنفى، تبدأ عملية البحث عن هوياتهم التي نشأت من خلال مقارنة وجود الشيء وملاحظته في زمان ومكان متعيّنين في الوطن مع الشيء نفسه في زمان ومكان آخرين (المنفى)، فالهُوية هي عين الماهية كما يقول هيجل" [1]. يقول السارد:

(تلوّن ماء النّهر وأصبح ورديّا، ارتفع منسوب المياه في النهر، ابتسمنا من قلوبنا، نحن نبني جسرا مقدّسا على نهرٍ حزين!)[2].

ونرى أنّ نهر الأردن في هذه القصّة يعكس المؤشّر النفسيّ لعودة علاقات الألفة بين الشعب الواحد، والتي تؤشّرها حالة ارتفاع منسوب الماء وسعادته بعد حزنه على غياب أهله وأبنائه؛ إذ يصف السّارد أن النهر قد تغيّر لونه إلى اللون الورديّ دلالة على السعادة والأمل والتفاؤل، والسؤال هنا كيف كان النهر عند الغياب؟ وكيف كانت نسبة مياهه؟ وكيف كان حاله دون أحبابه؟

لقد ارتفع منسوب المياه في النهر، وكلما ارتفع حيزه أصبح المكان لا نهائيا، وكلما انخفض ضاق، والحركة تعني التحول والتجدد المستمر، وينأى السارد بمنظوره عن جعل مفهوم المكان النهري عائقا يحول دون العودة، بل يريده تذكرة الدخول للوطن، وجعله مكانا حيويّا، لا مكانا منخفضا؛ لأن المكان يختفي تماما عند النقطة التي تنتهي عندها منطقة الانخفاض، والموت دلالة توقف الحركة وهو حركة نحو الأسفل[3]، وهو لا يريده كذلك.

---

[1] الشحات، محمد، **سرديات المنفى في الرواية العربية بعد عام 1967م**، 237.

[2] طه، محمد علي، **جسر على النهر الحزين**، 66.

[3] ينظر، سيزا قاسم، **جماليات المكان**، 73.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويلتحم السّارد في منظومته المعرفية مع النهر في مدلوله النفسي، وكأنّ النّهر كائن حيّ يشعر ويحزن ويفرح، إذ يصوّره برؤية واعية صادقة يحمل قضايا الناس وهمومهم، ويرعى آمالهم وأحلامهم الشادة بهم للتشبث بالحياة والتغلب على مصاعبها، والعمل لخلق الواقع الأفضل والحياة والأجمل[1] وذلك بإعلانه العودة المقدسة للاجئين الذين اغتربوا عنه طويلا، لتبقى فلسطين المحطّة النهائية لفلسطينيّ الشتات.

ونلمح ذلك من تصاعد الحدث القصصيّ وتوتّره في القصّة، فهي عودة محكومة بالذّاكرة، يلجأ البطل إليها حين تقسو الحياة عليه، وتشتد المصاعب، فيستعين بذاكرته الملتحمة في ذاكرة النهر، فيحمل في ذاكرتهم الجمعية دلالة الخلاص[2]، ويكون الخلاص بالعودة والتكفير عن خطيئة الغربة والشتات.

إنّ الكاتب يتناول في قصته بشكل مضمر المكان المفتوح المتمثل في المنفى والنهر، وكلاهما مكانان مفتوحان، لكنهما يضيقان في دروب الغربة، وقد جعل من النهر صنوا لأنا السارد/الجمعي، وقرن عودة الفلسطيني الغريب بعودة السعادة للنهر، ويمكننا تمثيل تلك الجدلية عن طريق الرسم الآتي:

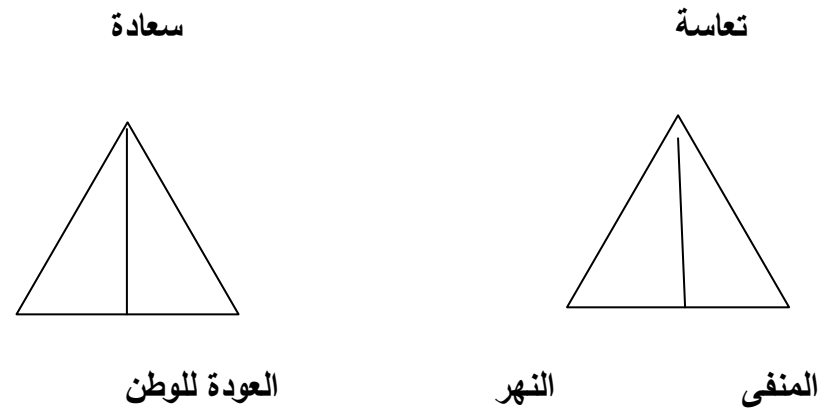

[1] ينظر، القاسم، نبيه، **محمد علي طه مبدع راودته الكلمات وراودها دراسات في أدبه**، 17.

[2] ينظر، عاصي، جاسم، **دلالة النهر في النص**، 49-50.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"إنّ الذّاكرة بأبعادها المتعددة لا ترتبط بالمكان وحركته وبمساحة الأنا في زمكانيته الوصفية، بل ترتبط بكل تلك الأبعاد في علاقات التماهي والتداخل والانسجام، فقد يتحول الفضاء المكاني إلى الأنا المؤنسة فيصبح للمكان ذاكرته، وللزمان ذاكرته ومكانه الخاص بهذه الأنا" [1]، وهذا ما يحصل مع المنفيّ الذي يتحوّل المكان في ذاكرته إلى طعمٍ خاص، ودفءٍ خاصّ.

وتأتي صورة النهر في رواية (الضفة الثالثة لنهر الأردن) متخفيّةً متماهيةً مع أحداث الرواية، وهذه الرواية هي روايةً تسجيلية لواقع السارد / الفلسطيني المغترب، حيث يستبدل الأنهار الأخرى بنهر الأردن، الذي لم يذكر اسمه في الرواية مطلقا، بل تحدّث عن أنهار المنافي وبحارها، مثل: دجلة والفرات، وجسر اللانس، ونهر الدانوب، فأين نهر الأردن وأين الطريق إليه بعد رحلة التشرّد والترحال؟.

يخاطب حبيبته(دانا) واصفا لها نهر الدانوب الأزرق بقوله: "**الدانوب الأزرق بعيد جدا يا دانا. والطريق إليه منعدمة**"[2]، وتشترك الأماكن المائية أيضا في غربتها بالنسبة لعالمه، فالطّريق إلى نهر الدانوب (الغريب) صعب ومنعدم، وكأنّ مياه المنافي تُطبق فكّيها على الغرباء الفلسطينيين، ولا سبيل لهم إلا التنقل عبرها، لتتضاعف الغربة فوق الغربة، وتصبح قدره المحتوم للموت، يقول السارد: "**سأنتحرُ الليلة في الدانوب**" [3] .

ويواصل وصف غربته وسفره المتواصل بقوله: "**لم أعد أبصر إلا المياه، تمتدّ حتى اللانهاية. الماء طريق الغرباء يبتعد، ويتسع... لكنه الطريق الوحيدة**" [4].

---

[1] الخضّور، جمال الدين، **زمن النّص**، 148.

[2] البرغوثي، حسين، 69.

[3] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[4] **نفسه**، 51.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن استحضار السارد للماء مرتبط برغبته في العودة إلى الأصول الأولى للفطرة الرّوحية، وهي حب الوطن، ويكون استحضاره دعوةً إلى التطهير بأبعاده الحقيقية والرمزية مما أصابه من خطيئة المكان[1].

وهو يبحث من خلال المتن الحكائيّ المشوّق عن مكان ثالث يؤويه غير الضفة الأولى (المنافي) الذي يمثّل العذاب الأكبر، بينما تبدو الضفة الثانية (فلسطين) صاحبة العذاب الأدنى. حتى في رحلة عودته إلى فلسطين عاد السارد على استحياء، ولم تذكر الأحداث السردية طريقة العودة وملامحها، بل يظهر لنا أنه فور رجوعه إلى وطنه، يفتح عينيه وهو قابع في سجن الاحتلال، وقد لقي أشد العذاب في الزنازين، وذلك يظهر في الثلث الأخير من الرواية التي تحولت دلالتها إلى منعطف جديد يحمل عبئاً آخر وحزنا آخر.

وهنا تظهر فلسفة الداخل والخارج، فالفلاسفة والمثقفون يفكرون بمصطلحات الوجود والعدم، وهذا ما عكسته فلسفة السارد ورؤيته، فقد تجاوز المكان الحلم (المكان الداخل) جغرافيا وفكريا ونفسيا، ليتمّ الصّراع مع المكان الخارج المادي، فتحاول الشّخصية تجميع أشتاتها، وترتيب هويتها النّفسية والمكانيّة بطريقتها الخاصة، لرأب ذلك الصّدع[2]، ولعلنا نتساءل: ما هي الضفة الثالثة التي يريدها السارد؟

إن السارد يبحث عن ضفة الأمان والأحلام والاستقرار، إذ لم ينعم بها خلال تجربته خارج البلاد، بينما ألفى جزءا من السعادة والاطمئنان مع حبيبته دانا، يقول مخاطبا:

---

[1] ينظر، عبد العالي، قمرة، **البنية الزمانيكية في رواية الرماد الذي غسل الماء لعز الدين جلاوجي**، 98، رسالة ماجستير، جامعة الحاج خضر – باتنة، الجزائر، 2012م.

[2] ينظر، باشلار، غاستون، **جماليات المكان**، 91-94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"سنلتقي هناك يا حبيبتي، هناك حيث الينابيع لا تخان من أصواتها، حيث يقف كل شيء عاريا على حقيقته.. حيث يمكننا أن نتعانق لمرة واحدة للمرة الأولى بنقاء وإنسانية ودفء"[1].

ظهرت صورة نهر الأردن سلبيةً في هذه الرواية، النهر الذي فصل الفلسطيني عن وطنه، وبالتالي وصله بأنهار المنافي، لذلك اختفى النهر برمزية محكمة، ليحلّ المكان المائي الآخر مكانه.

ولا غرو أن يرى المنفيّ العالم بصورة مأساوية قاتمة؛ لأنه في نظره يرى العالم كله أرضا غريبة عليه روحيا[2].

وتظهر بحيرة طبريا في رواية (نهر يستحم في البحيرة) حلما جميلا يراود الفلسطيني الغريب، فهي بمثابة المكان الآمن الطاهر، الذي يطمئن فيه الناس ويحبونه. إنها المكان الذي يستوطن ذكرياتهم وذاكرتهم، وتلحّ أصداؤها في الشتات بقوة لتنادي بالعودة.

فبعد أن يُسمح للسارد/ العائد الفلسطيني بالعودة إلى وطنه مع العائدين، يظل حنينه يأخذه إلى قريته (سمخ)[3]. التي تقع قرب بحيرة طبريا، يفاجأ بأنّ الاحتلال غيّر ملامح وجه هذه القرية كغيرها من القرى المهجّرة، وبعد مرور الحواجز واسترجاع الذكريات، يظل يرقب بحيرة طبريا بعين المتلهّف، مسترجعا حديثه الشّجيّ عنها لعائشة (صديقته الجزائرية) في بلاد الغربة، يقول: "**كنت**

---

[1] البرغوثي، حسين، **الضفة الثالثة لنهر الأردن**، 27.

[2] ينظر، الشحات، محمد، **سرديات المنفى الرواية العربية بعد عام1967 م**، 22.

[3] تقع على رقعة مستوية من غور الأردن عند أقصى الشاطئ الجنوبي لبحيرة طبرية، وتبعد مسافة يسيرة عن مخرج نهر الأردن من البحيرة، وهي كبرى القرى في قضاء طبرية من حيث المساحة وعدد السكان، كما كانت ملتقى مهما لطرق المواصلات تربط مناطق شرقي نهر الأردن بمناطق غربيه كما تربط المناطق الواقعة حول البحيرة بغور الأردن جنوبا. ينظر، الخالدي، وليد، **كي لا ننسى**، 397.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أحدثها عن البحيرة في كلّ مرّة أشعر فيها بالفرح، كنت أصف لها الأمواج وأحدّثها عن المناخ والتضاريس، وأحكي لها عن أنواع الأسماك..." [1] .

يستحضر السارد جمال البحيرة بلغة وصفية توحي بالحبّ الجمعي لها والحنين إليها، واصفا مدى تعلّق الأهالي بالبحيرة وحبهم الشديد لها، بقوله: "**فالبحيرة بالنسبة لأهالي بلدنا مثل الشمس أمّ الحياة، الأطفال يلعبون على الشاطئ، والأمهات يغسلن الملابس أو أواني الطعام**"[2]. فهي الحياة والأمان ومصدر السعادة والعطاء.

ويضفي على البحيرة هوية الرّسوخ والتّلاحم المكانيّ مع التّاريخ والإنسان الفلسطينييْن، ويصفها بحلم العائدين المتمثل في حلم خاله عبد الكريم الحمد الذي تمنى الموت عندها، يقول:

"**ظلت البحيرة في مكانها الذي تركها فيه الطاهر، النبض الحي والرمز الخالد... وظلت البحيرة في المكان نفسه الذي عاد إليه الخال عبد الكريم الحمد.. عاد ليموت في المكان المحبب.. عاد إليه ليموت، كما تموت الغزلان.... عاد ليموت عند شاطئ البحيرة في المكان الذي كان فيه بيته**" [3].

وبرزت البحيرة بصورة المكان المرتجى الذي تمنى الشّخوص باسترداد قيمتها من خلاله، ولا سبيل إلى ذلك الأمل إلا بالعودة إليه ليمارس الإنسان من خلاله طقوسه وعاداته وفعاليته بعيدا عن إحباطات المدن الكبيرة وضجيجها، وهو بذلك المكان المقصود يعود إلى الجذور الفكرية، والقيمة

---

[1] يخلف، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة**، 86-87.

[2] **نفسه**، 99-100.

[3] **نفسه**، 22.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفكرية له[1]، وكانت البحيرة الصدى البعيد والأمل المرتقب حتى لو عاد إليها ميتا، فيكفي أن تراه وتضمه في ترابها.

وبدت بحيرة طبريا –منبع نهر الأردن الفلسطيني– بدلالاتها الإيجابية، المكان الحلم، والذكريات الدّافئة التي حملها الفلسطينيّ في ذاكرته، يقول السّارد واصفا حاله وأمنياته بالعودة: "**كنت مستعدّا كي أدفع ما تبقى من عمري من أجل رؤية سطح البحيرة... الذي يشبه بطن غزالة**"[2]، وتوحي لنا كلمة (سطح البحيرة) بالجمال الساحر الذي يتراءى للناظر من بعيد، والذي يضفي عليها جمالا آخر بتصوير السارد لها ببطن الغزالة، وهذا يدل على مدى توغل صورة البحيرة في الذاكرة البصرية والذهنية.

ويسترسل في وصف جمالها قائلا:

"**البحيرة بالنسبة لأهالي بلدنا مثل الشمس أم الحياة، الأطفال يلعبون على الشاطئ، والأمهات يغسلن الملابس وأواني الطعام، والصيادون يدخلون إلى عمق البحيرة لاصطياد أسماك المشط والبلبوط،.... والفتيان يصنعون زورقا من الصفيح والخشب يطلقون عليه (الكيك)، ويصنعون من الأسلاك مصيدة للسمك، يسمّونها (العب).... وراء المحطة كانت الأراضي الزراعية، أراضي السقي، والبعل بين الحقول كانت هنالك المسارب التي يمر عبرها النّاس والدّواب، وكانت أصوات الجنادب والصراصير تصنع سقفا لليل المعطر برائحة نوار اللوز،.. وأما الرياح الخفيفة فقد كانت تحمل معها غبار الطلع وتزرع في أحشاء البراري البعيدة زهور الموسم القادم، وكان الناس ينتظرون الربيع القادم الذي تلد فيه الأبقار عجولا صبوحة، وكان الحصّادون قادمين من المناطق العالية يهبطون باكرا في مطلع الصيف ليعملوا في جزّ الصوف، بانتظار أن تنضج**

---

[1] ينظر، عاصي، جاسم، **السرد والذاكرة قراءة في الرواية العراقية**، 9.

[2] يخلف، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة**، 19.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السنابل... وفي ليالي الحصاد كان يحلو السمر والسهر والغناء والمواويل، والأوف والمعنى والشروقي والزجل" [1].

وهكذا تأخذ بحيرة طبريا (الأم الفلسطينية لنهر الأردن) من خلال النص السابق دلالات عديدة مكثفة ومجتمعة في آن واحد، وقد أشرك السارد الطبيعة بأشجارها ونسيمها وليلها وطيورها وحيواناتها لتصوير أكبر عدد ممكن من الصور الطبيعية التي تجتمع حول هذا المكان الحيوي والمهم بالنسبة للأهالي الفلسطينيين، إنها صورة شاملة تغنيك تفصيلاتها عن كل ما غاب عن ذاكرتنا الجمعية والوجدانية، ولنا أن نذهب بخيالنا هناك لنرى الأهالي آنذاك ينظّفون ويسبحون ويصطادون ويلعبون ويغنّون ويمرحون، هكذا كان شعبنا آمنا مطمئنا قبل مجيء الاحتلال، الذي دنس حياتهم ولوّث أمانيهم واحتل مراكز المياه ليمنع عنهم الحياة.

ويشتعل الشوق والحنين في نفس الفلسطيني، فيحاول تعويض ما فقده من بلاد وأراض بعد التهجير؛ إذ سكن خلق كثير في الضفة الشرقية، مواساةً لأنفسهم وتعزية لأحلامهم المسروقة، وقاموا بشراء الكثير من الأراضي وزراعتها. تظهر تلك الصورة في رواية (غريب النهر) ؛ إذ يذكر الكاتب قصة (اسمعين) الذي سكن قرب نهر الأردن في مناطق الغور، فيقول: "**واشترى ستين دونما من الأرض البور، كي يؤسس عليها مزرعة على بعد سبعمائة متر إلى الشرق من نهر الأردن، وأطلق على تلك الأرض تسمية (البيارة)، كي تذكّره ببيارته التي اضطر إلى تركها في العباسية**" [2] .

---

[1] يخلف، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة** ، 99 -100.

[2] ناجي، جمال، 45.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهكذا استبدل (اسمعين/ الفلسطيني المغترب) منفى بوطن ولجأ إلى شراء مساحات واسعة، "ذلك إن الاتساع في المكان يؤكد على حرية الفرد أو نوع من التأكيد على الخروج من الذات إلى الآخر" [1] كنوع من التعويض والتنفيس.

ويمكننا تمثيل ذلك من خلال الرسم الآتي:

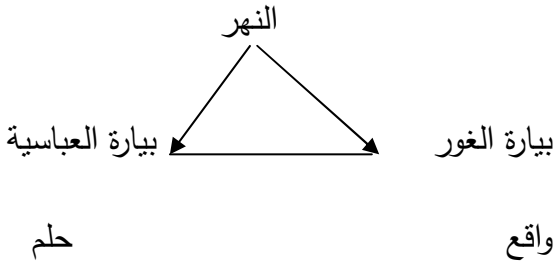

ويصبح النهر مركزا لمكان آمن وارتواءً روحيا عما فقده الفلسطيني المهجّر من بيّارة وأهل وتذكَرة لا تمحى ولا تنسى في ذاكرة الغريب مذكّرةً إياه بيوم العودة.

-ثانيا: دلالة العبور

اكتسب النهر أو البحر في الأدب العربي دلالة الرحلة بغرض التنزه والاستجمام والتّعرّف إلى بلاد جديدة، بينما شكّل نهر الأردن في الأعمال السردية المتناولة دلالةً مغايرة هي دلالة المرور العابر، وتذكرة الدخول لفلسطين بهوية الذل والقهر والألم، فقد عبر الفلسطينيون (النهر/الجسر) محمّلين بالآهات والآلام والأوجاع، مسلّحين بالحلم الضائع، عبره الفدائيون والنازحون بصور شتّى وبقصص ملونة باليأس، ولا غرو أن يُسمى بنهر العودة، وإن كانت لا عودة إلا بمشقة وتفتيش، ولا عبور إلا بعذاب ووصبٍ كبيرين.

و تروي قصة (عراة على ضفة النهر) حكاية الفلسطيني عند عبوره النهر، فقد اختزل السّارد عواطف الفلسطيني الأليمة -في الداخل والخارج- بعبور المخاطر المزروع بالفداء والتضحية

[1] قاسم، سيزا، **جماليات المكان**، 32.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والمثقل بالذّلّ، يقول واصفا رحلة الاجتياز: "**الطّريق يا صديقي صعب، واجتياز النهر قاس.. كان حملا ثقيلا، اهربا بجلدكما إذا استطعتما ورصيّنا، حملنا ومشينا تخطّينا حدود النهر كانت عيوننا إصرارا، وظلّ صديقي يتمتم: سأرى أمّي**"[1].

ظلل النهر العابريْن بأمان (السارد، وصديقه شوقي) وحفظهما بالرعاية، بالرغم اجتيازهما القاسي، فلقد وفّر لهما الوصول الآمن إلى الأردن، لكنهما عندما عادا، قتل الاحتلال صديقه في فلسطين، أمّا هو فكان مثارا لسخرية الجنود وتسليتهم فقد ضربوه وأهانوه، يقول السارد واصفا ذلك:

"**وجّروني حتى أوصلوني إلى النهر.**

صاح الضابط: اذهب إلى شعبك يا... وقل له إننا عريّناك. ورموني على الضّفة الأخرى..... فوجدت نفسي عاريا على ضفة النهر... اذهب إلى شعبك وقل له إننا عريّناك. شعبي يعرف هذا.... هم عراة أيضا" [2].

ظهر النهر بصورة الحد الفاصل بين العبور والعودة، وبين الحلم والواقع و الإصرار والانكسار، فلقد رمى الجنود السارد على ضفة النهر الشرقية، عاريا بلا أمل ولا وطن، لابسا ثياب الذّلّ والتّشريد، وتظهر السّخرية السّوداء في رد السّارد على الجنود عندما أخبرهم بأنه ليس وحده عاريا في الشّتات، بل إن الشّعب كله عراة، عراة من الوطن والأمل والأهل والمال والأرض والهوية والمكان، وهم يدركون حقيقة واقعهم ويرون عريهم أمام أعينهم!

ولعلنا نلحظ كيف طرأت الظّروف القاسية على الشّخصيّة والمكان، والتي أكسبت المكان حيز الصراع والمأساة، فتكوّنت علاقة عدائية في الذاكرة بين الشّخصيات والمكان الذي حوّلته الأحداث

---

[1] أبو أصبع، صالح، 69.

[2] **نفسه**، 73.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القاسية إلى ذلك[1]. ونمثل ملخص القصة في العبور والعودة والمنفى والوطن والقتل والإبعاد بالرسم الآتي:

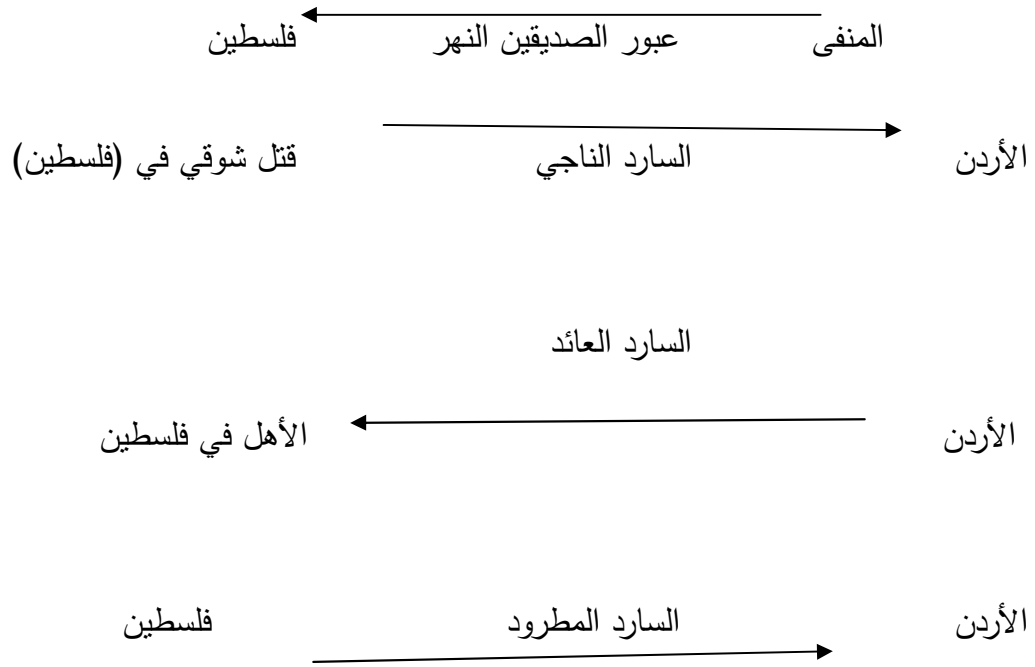

يشير الرسم السابق لأحداث سردية عكسية تبلورت عبر الفعل السردي المضاد (الدخول والخروج) و(الحي والميت) و(الوطن والغربة) و(الفلسطيني والصهيوني)، فالقصة قائمة على ثنائيات متعددة، تعلوها لغة السّخرية السّوداء. وهنا يبرز نهر الأردن بدلالة سلبية، بصورة المنهزم المنكسر والمغلوب على أمره، وإن لم تتمثل صورته بالسّلبية على نحو، فلقد وفّر النهر الأمان والسلام للعابرَيْن عند الدخول لفلسطين وعند الخروج منها، ولكنّ الأحداث صبغته بلون المكان المعادي الذي فرضه الاحتلال، كما كان مرآةً للذات الفلسطينية وصورة حقيقة يعيشها فلسطينيو الداخل والخارج بمرارتها وألمها وعريّها.

[1] ينظر، غدير، الخربوبي، **المكان في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف**، 73–74، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، الأردن، 1993م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتتأزّم فكرة العبور في رواية **(النهر الغريق)**؛ فالعامل المشترك في البنية السردية، هو عبور المجموعة الفدائية نهر الأردن، وقيامهم بالعمليات البطولية ضد الاحتلال في الضفة الغربية، والانطلاق إلى مواقع العدو عبر نقاط عدة، كان اجتياز نهر الأردن فيها هو الأصعب على أحد أبطالها (مصلح)، الذي شكّل النهر في نفسه خوفا وتأزّما، وتصف إحدى الشخصيات السردية (مصلح) أثناء التّخطيط لعبوره النهر، بقوله:

" **– لا بد من عبور النهر.. وكأن أفعى لدغته...**

–لا، لا أريد العودة إلى الشرق، سأعود إلى طوباس أفضّل الموت بالرصاص على الموت بسم هذا الماء القذر.

قال هشام: لا تخشَ النهر، سنساعدك على العبور" [1].

مما سبق، تظهر صورة النهر سّلبيةً عند (مصلح) الفدائي العابر، الذي كان يخشى عبور النهر إذ يراه الموت المحتوم؛ لأنّه تعرض مرات للغرق، وكان ينجو بأعجوبة بفضل مساعدة أصدقائه الفدائيين العابرين معه؛ إذ كان يحاول تجنّب ملاقاة الأعداء عبر عبور النهر، بل كان يفضّل الموت بالرّصاص على موته بسمّ هذا الماء القذر (النهر) على حدّ وصفه.

وعلى الرّغم من أن صورة النهر سلبية في عين مصلح، إلا أن الأحداث السردية في الرواية كشفت عن أنه كان معبرا آمنا للفدائيين، حانيا عليهم وساترا لهم أثناء عبورهم، وحتى في عبورهم الأخير، ذلك العبور المثمر المبارك، والذي استهدفت فيه المجموعة الفدائية مواقع للعدو في مناطق مختلفة في فلسطين، وسيطرت على بعض نقاط المحتل، واشتبكت معهم طويلا حتى زعزعت أمنهم واستقرارهم.

---

[1] أبو صخر، نزار، 9.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويعبر المارون في مشهد متوتر في روا ية (غريب النهر) بعد شوق واغتراب؛ إذ يتعاون (اسمعين) وابنه شعبان في حمل جثة (مصطفى) ويعبرون النهر إلى ضفة الوطن بعد أن رفض الاحتلال دفنه في العباسية، وكأنّ النهر يناديهم للعودة، يقول السارد واصفا عبورهم: "**كان شعبان جالسا على حجر كبير، وقد انتابته حالة من الطهر لم يشعر بها منذ صباه، وأعاده صوت النهر إلى زمن بعيد مضى، وأحس بأن الحياة أبعدته كثيرا عن النهر**" [1].

نادتهم ذاكرة الأرض نداء المشتاق المعبّأ بالحنين للفلسطيني الغائب، الذي تناسى أشواقه المشتعلة في زحمة البعاد، فيبارك النهر هذه العودة ويغفر ذنوبهم ويطّهرهم من أثر الاغتراب. بل يظللهم بالأمان والسواد والستر وهم يرتجفون خوفا من رؤية العدو لهم أثناء عبورهم بالجثّة. يقول السّارد واصفا النهر آنذاك:

"**مياه النهر المغشاة بالسواد، بينما دهم أنفه خليط روائح لا ينتمي إلى حاضر حياته، خليط من روائح التراب، والغبار الكوني والحناء المبلول**" [2].

ويستمر الحدث الروائي بالتتابع والتوتر، حتى يتمكّنوا من دفن الجثة بأمان من غير مراقبة أو انتباه من السلطات الأردنية أو الإسرائيلية، ووصف السارد المياه بأنها (المغشاة بالسواد) وهذا يدلّ على فعل المشاركة بين الليل والنهر لتوفير الستر للعابرين وكأن الطبيعة بفطرتها الكونية تساند ابنها الفلسطيني الذي افتقدت غيابه وقد آن الأوان لعودته، وبذلك يغدو النهر المرفأ الأول والأخير، وهو البداية والنهاية لكل العائدين، ويمكن تمثيل قصة العبور في رواية (غريب النهر) من خلال المربع السيميائي:

---

[1] ناجي، جمال، 208.

[2] نفسه، الصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

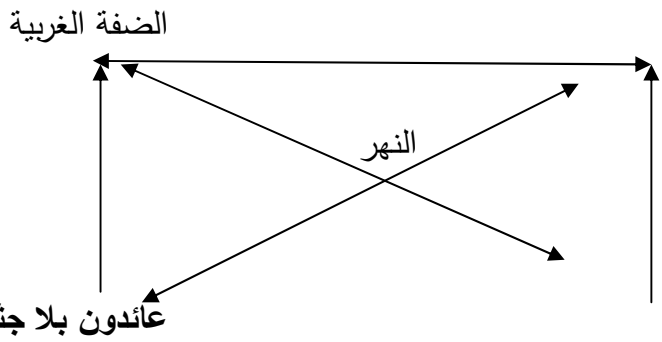

يدعو السارد –من خلال منظوره السردي– أبناء فلسطين بالعودة إلى ديارهم، والعمل على ترسيخ جذورهم والتمركز فيها، وعدم الاستسلام لقمع الاحتلال، في ممارسة ممزوجة بروح الوطنية والفدائية والتضحية حتى لا تنسى الأجيال القادمة قضيتهم.

- **ثالثا: دلالة الرغبة والخصب والسخاء:**

إنّ الماء أصل كلّ الحيوات ودليل قوتها، وبدء الوجود وديمومته، كما أنّه "نظرة الأرض وجهازها لمشاهدة الزمن"[1]، ويرى الأقدمون أنه أصل الأشياء وسرّ قوّتها ونموها واستمرارها، وذلك ليس لكونه سببا في إحياء الأرض وخصبها فحسب، بل لأنّه أيضا نداء يستجيب للباعث الأساسيّ الّذي التقى في أعماق الإنسان، إذ إنّ أصول الأشياء والوجود من ماء وتراب [2] . والماء أساس الحياة، قال تعالى: "**وَجَعَلْنَا مِنَ المَاْءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**" [3] .

ولعب نهر الأردن في رواية (جسر بنات يعقوب) دور المكان الجامع لالتقاء الذّكر والأنثى، فكان مكان الرّغبة والشّهوة، حيث كانت بنات يعقوب يلتقين مع (رحمون) في النهر وعلى ضفافه دون مرأى من أحد. يصوّر السّارد لقاء رحمون مع إحدى بنات يعقوب بقوله: "**حملها رحمون وركض بها نحو النهر، وصوتها يتعالى برنة الخوف الجميل.. غسلها بالماء الصّافي الأزرق**

---

[1] باشلار، غاستون، **الماء والأحلام (دراسة عن الخيال والمادة)**، 56.

[2] ينظر، عاصي، جاسم، **دلالة النهر في النص**، 59.

[3] **الأنبياء**، 30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اللّون، البارد تماما، فعلا صراخها الأنثويّ المهيج، ورماها في النّهر فصرخت أكثر، واندفع نحوها..." [1].

يصف السّارد لقاءً دافئا في مياه نهر الأردن، ملبيا نداء الرغبة الجنسية بين ذكر وأنثى، ويرى أصحاب المدرسة الفرويديّة أنّ للنّهر مدلولاتٍ جنسيّة كون الماء المكان المرويّ للرّجولة والأنوثة المفقودة، وأنّه رمز لمحاولة إعادة توازن الحياة عن طريق جانب مهم فيها،ألا وهو: الجنس والرّغبات الجنسيّة الكامنة المرتبطة بالتّكوين الأوّل المتعطّشة له، إذ بدأت الحياة من طين النّهر ومائه[2]. ولكنّنا نرى أنهما اختارا النّهر مكانا لالتقائهما كونه مريحا وجذّابا غاسلا للهمّ والتّعب، بعيدا عن أعين النّاس!

وتتغير دلالة النّهر في الأحداث السّرديّة في الرّواية نفسها، فيأتي النّهر بدور المؤشر النفسي للشّخصيات عند تبدّلها ويعكس انفعالاتها، فبعد أن تمّ اللّقاء بين البنات و(رحمون) في النّهر، يصف السّارد النّهر بالزّهو والصّفاء، ولكن سرعان ما يتغّير الحال بظهور موكب الأب يعقوب، الّذي أربك مجيئه سعادتهنّ، يقول: "**ولحظتئذٍ انطفأت الدّنيا، وغاب بريقهما، ولّت سعادة النهر انطوت طراوة النّباتات طارت الألوان، عاد الصّخب إلى النّهر واستيقظت المخاوف، عاد العقل إلى قسوته**" [3] .

كان النّهر مصدر سعادة وهناء عندما كانا بين أحضانه، لكن عندما تسربَ الخوف والقلق إليهما، شاركهما النّهر هذا القلق فعاد إلى الصّخب عندما عاد العقل إلى قسوة أفكاره وإلى واقعه، إذ أفاقا من الحلم (النهر) ليخرجا منه إلى الحقيقة، بعد أن حلّقا في عالم الحبّ والخيال.

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 128.

[2] ينظر، عاصي، جاسم، **دلالة النهر في النص**، 63.

[3] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 131.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم يتخذ النهر دلالة المتعة واللهو بين ذكر وأنثى فحسب، بل لدى الإناث فيما بينهنّ أيضا، يقول الكاتب واصفا تجاوز لهوهنّ بعد اكتشاف نبع ماء ساخن قرب النهر:

"**هيا نجعل من هذا النبع مكانا دائما لنا نستحمّ فيه كلما رغبنا!... شرعت جويت بالتّعري لتستحمّ وبينما هي تخلع ثيابها راحت أختاها تراقبان جسدها الجميل... في هذا المكان وسط الماء الدافئ الساخن واللامع انكشفت أجساد بنات يعقوب على بعضها بعضا بعدما تبادلن أدوار الاستحمام والفرك والمشاهدة زمنا طويلا..، وراحت كل واحدة منهن تنظر إلى جسد أختها وتتمتع فيه..**" [1].

يكشف السياق السابق متعة اكتشاف الجسد لدى البنات، وذلك يظهر من خلال عدم تحرجهنّ من التعرّي أمام بعضهنّ، وتبرز علو (الأنا الدنيا) الغريزة الجنسية في نفوسهن حيث إنّ تصعيد الغريزة الجنسية وتحويرها لدى البنات اتخذت شكلا من أشكال الهروب أو ربما كانت ارتواءً تعويضيا يحمل طابعا عاطفيا غير مستعمل، بسبب كبت الغريزة الجنسية وإظهارها بشكل آخر، لكنها عندهن لم تنصرف نحو تعويض لمثل عليا مثل الشعر والدين وأعمال البر[2]، بل صرفت نحو فتنة الجسد وشراء الرغبة؛ إذ فقدت البنات أمهن التي أجبرها زوجها (يعقوب) على عرض مفاتنها واستغلال جسدها لجلب المال، فكان النّهر ارتواء تعويضيا بالإضافة إلى قسوة يعقوب عليهن وعدم شعورهنّ بالأمان تجاهه، فلجأن إلى درب شائك خاطئ يفرغنّ فيه مشاعرهنّ المحتقنة بلقائهنّ المتكرر برحمون وتعريهنّ أمام بعضهن استمتاعا بمفاتن أجسادهنّ.

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 187.

[2] ينظر، الدروبي، سامي، **علم النفس والأدب معرفة الإنسان بين بحوث علم النفس وبصيرة الأديب والفنان**، 230.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومعروف أن الماء يعطي منذ الأزل الحب والسعادة والخير، لكنه يأخذ ضجيج الناس ولوثتهم، بل حتّى الاعتداء على ضفافه وتشكيل مساراته يكون خاضعا لحاجات هذا الإنسان والذي يكون إما باعثا للحياة أو مدمّرا للطبيعة أو مدنّسها[1].

ويحمل النّهر دلالة الإخصاب واستمرارية الحياة في رواية (نهر يستحم في البحيرة)، إذ يصفهما على لسان الرجال كأنهما الذكر والأنثى، يقول:

"**كان الرجال يقولون: إن النهر ذكر والبحيرة أنثى**" [2].

وهنا تظهر البحيرة بثوبها الأنثوي، فهي المرأة الناضجة التي تستعد للإخصاب والعطاء، وهي المكان الثابت، بينما يتمثل النّهر بأنّه المكان المتحرّك عبر وصفه له بتغيير مجراه، وعندما يلتقي النهر بالبحيرة، يكون لقاء مباركا مثمرا، إذ يلتقي النهر ببحيرة طبريا (منبعه الأصلي) فيخصّبها ويطهّرها بلقاء قدسيّ، يجعلها أكثر تدفقا وجمالا، ثم يصف السّارد نهر الأردن بعد اختلاطه ببحيرة طبريا بقوله: "**فيخرج مغسولا ونقيّا، فحلا يتدثّر بزرقة داكنة تلقيها الأشجار الكثيفة الّتي تنبت على ضفتيه**" [3] يتطهّر نهر الأردن في البحيرة –وهو أصل التّطهير– للتّأكيد على قيمة بحيرة طبريا ومكانتها الاستراتيجية للفلسطينيين، فيزداد النهر قوةً ونقاءً، واختار الكاتب اللون الأزرق الداكن (أحد ألوان الطّبيعة)، معانقا الأشجار الكثيفة الخضراء التي تنبت على ضفتيه، وكأن الطبيعة كلها تبارك هذا اللقاء.

---

[1] ينظر، مبارك، إبراهيم، **سواحل البحر**، 22.

[2] يخلف، يحيى، 109.

[3] **نفسه**، 109.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويصور السّارد البحيرة بأنّها كائن أنثويّ، يقول: "**كانت البحيرة في موسم تكاثر الأسماك تصطبغ باللون الأحمر، كانوا يقولون: إنّ البحيرة تحيض وإنها تمرّ في مرحلة الخصب**"[1].

ونرى أنّ السّارد زامنَ بين عودة الغريب إلى أرضه وعودة نهر الأردن إلى منبعه، بعد الأحداث السّرديّة المتصاعدة والمتوتّرة، الّتي تبلورت في المتن الحكائيّ بالتغييرات الجيولوجيّة التي أصابت المنطقة في سياق تبيئريّ يعكس حالة السّارد المغترب ونفسيته بعد اتفاقية السلام، ويلقي بها في الطّبيعة، وكأنّ الفلسطينيّ (النهر) يعانق أرضَه (البحيرة) ويطلب منها الغفران، وغسل ذنوب الاغتراب وقبول صكّ العودة إليها. "وذلك لأن المكان الذي ينحت في الفكر والذاكرة يؤكد على حقيقته وديمومته، لأن المكان أساس لاحق للفكر والروح" [2] .

وحمل النهر المقدس دلالة السخاء، يهدي أهله ماءه وخيراته من أسماك مختلفة الأنواع يلقيها على ضفافه فيلتقطه الناس دون عناء، ولم يكن فيضانه غضبا وعذابا، بل رحمةً وعطاءً، ولنا أن نتخيل تلك الصورة كما وصفها السارد في رواية (غريب النهر)، إذ يخبرنا عن حال النهر عند الفيضان بقوله:

"**رأوا أعدادا هائلة من الرجال والنساء والأطفال يركضون باتجاه النهر، حاملين أكياسا، ولحقوا بهم وجمعوا ما يزيد على ثلاثين كيلوغراما من أسماك المشط والكرب والخفاف جمعوها بين سيقان الأشجار، بعد أن قذفها النهر عند فيضانه، وظلوا يأكلون السمك مدة أسبوعين كاملين، بعد أن ملحته عائشة وفخرية كي لا يفسد. ولقد ملّ حمدان أكل السمك ورائحته التي صارت تعبق في كل مكان من البيت...** " [3] .

---

[1] يخلف، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة**، 109.

[2] عاصي، جاسم، **السرد والذاكرة – قراءة في الرواية العراقية**، 8.

[3] ناجي، جمال، 48.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لو تأمّلنا بعض المفردات من خلال النّصّ السابق (أعداد هائلة/ من الرجال والنساء / حاملين أكياسا / ما يزيد عن ثلاثين كيلو غراما / جمعوها بين سيقان الأشجار) توحي لنا الكلمات السابقة على الخير الوفير الذي يهديه النهر للأهالي، وكأنه في موسم العطاء وتوزيع الأضحيات –إن جاز التعبير– يركضون باتجاه النهر، وكأنه الرجل المقدس المبارك الذي يهب أعطياته حيث وهبهم أسماكا كثيرةً مختلفةً، فأكلوا مما أنعم الله عليهم لأيام عديدة.

- **رابعا: دلالة التطهير وغسيل الذنوب:**

الماء رمز الطهارة والنظافة والتخلص من الأدران. ويسمى نهر الأردن نهر غسيل الذنوب لما يحمله من دلالة دينية وقدسية، وبرز نهر الأردن في رواية (جسر بنات يعقوب) بدلالتين ثنائيتين متعاكستين هما (المعصية والتطهير)، فقد كان النهر مكان معصية ورغبة بين بنات يعقوب و(رحمون) وجرت حوله آثام عدة من بناء الجسر وغير ذلك، لكنه اتخذ في نهاية الخطاب الرّوائيّ، طابع الانتقام للتّكفير عن الخطايا التي جرت حوله، وتصفية الحسابات مع الشّخوص التي قامت بالأعمال السّيئة حول ضفافه، وقد بدأ النهر بالانتقام من يعقوب –الشخصية الأساسية – بعدما ادعى كذبا أنه طبيب يعالج النساء لإنجاب الأولاد، وصار يكشف عليهن ويعرّيهنّ، وفي إحدى المرات دخل عليه زوج امرأة مريضة، فإذا بهما عاريان تماما، فما كان منه إلا أن قتلهما فورا، "**ثم حمل الاثنين وهما بتمام عريهما، ورماهما في النّهر، وسط صياح بنات يعقوب وبكائهن وصراخهن الشّديد**"[1]، ثم قتل عصمان – مساعد يعقوب –الزوجَ، فيقول السارد واصفا ذلك:

[1] حميد، حسن، 322.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"**غرقا في ماء النهر، ظلّ عصمان قابضا عليه تحت الماء حتّى خرجت روحه**"[1].

لم يكن يعرف يعقوب أن نهايته ستكون في الماء الذي كان يراه سببا في الموت، وهو الماء الذي لا ينعش الإنسان بإحيائه للنّفس وللرّوح، إنما هو مكان مجهول حيث لا عودة وكأنه القبر.

وقد أدركت إحدى بناته نظرته السلبية للماء بقولها عن أبيها: "**الماء في مهنة أبي يموت ولا يُحيي**"[2]، بل يعلن يعقوب عن منظوره المائيّ، إذ يقول:

"**أجل يا سليمان، فالميت يغسّل بالماء، ليذهب ذهابه الأخير، لا ليعود من جديد**" [3].

ونرى أن يعقوب بهذه الجملة السّياقية يدرك حقيقة أفعاله الشّيطانية وكأنّه مخلوق من نار يخشى اقتراب الماء، وقد كان الماء عند سوء ظنه، إذ كيف يلتقي الماء رمز التّطهير والاغتسال من الذنوب بنار المعصية والآثام؟ الماء الذي لم يغفر له أفعاله المشينة، والتي بدأت ببناء جسر على نهر الأردن بعدما قرّر ألا يمرّ منه النّاس والدّواب إلا بعد دفع الأموال، بالإضافة إلى استغلاله للنساء بإدعائه أنه طبيب ماهر يعالجهن، بينما يقوم بممارسة الفاحشة معهن، كما قام باستغلال جمال بناته وأجسادهنّ من أجل الحصول على المال، فكانت عاقبته القتل والرمي في النهر انتقاما منه، علّه يتطهر من أفعاله، ثم يقوم عصمان- اليهودي- بالانتقام من الزّوج الّذي قتل يعقوب- ولي نعمته وصاحبه- بإغراقه في النّهر، ويستمرّ النّهر في الانتقام من الظّالمين وكأنّه ميزان عدل في الدّنيا، فيكون النّهر مقبرتهم جميعا، يقول السّارد: "**قاده الشّراب رويدا رويدا**

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 322.

[2] نفسه، 237.

[3] نفسه، 238.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى قاع النّهر مستسلما، كأنّ يدا غير مرئية تقوده إلى رغبته الأخيرة" [1]، وقد هلك في النهر ثلاثة رجال قادتهم خطيئتهم إليه.

نلحظ مما سبق رسالةً ضمنيةً يوصلها السارد في نهاية الرواية، ينبئ فحواها عن طهارة هذه الأرض المباركة وأنّ الباطل لا يدوم فيها، وهي جديرة بأهلها الطيبين، حاويةً لشعوب الأرض، لافظةً أعمال المحتل السيئة الباطلة، وهي في خطابها الرّوائي كله عرضت صورة سلبية لشخصيات يهوديةٍ زرعت الضّلال في البلاد، طالبةً منهم الرّحيل عن أرضها مهما طال بقاؤهم فيها، فهم ليسوا أهلها، ولا يشعرون بالانتماء إليها، ولا إلى الوطن الذي هاجروا منه، ذلك لأن لفظهم بين شعوب العالم وتشريدهم التاريخي في البلاد قد أكسبهم شعورا بالغربة أينما حلوا وأفقدهم حسّ المواطنة [2].

- **خامسا: دلالة الاضطراب والصراع:**

كشف لنا الأدب العربي عن رحلة نهرية أو بحرية تقطع لأجل المعارك أو القتال أو السيطرة على مكان ما، لكن المكان المائي النهري هنا انعطف نحو مفاهيم جديدة فرضها الواقع السياسي في الأعمال السردية موضوع الدراسة.

فنرى أن نهر الأردن في رواية (نهر يستحم في البحيرة) يصطبغ بدلالة الحيرة والاضطراب، التي عكست حالة السارد /العائد إلى وطنه بعد غياب طويل، وقد عكست الأحداث السّرديّة في الرّواية السّابقة صورة بعض المغتربين العائدين إلى بلادهم بعد توقيع اتفاقية أوسلو الّتي سمحت بإعادة بعض اللاجئين، وقد كشف المتن الحكائيّ عن عورتها بشكل غير مباشر؛ إذ لم يعلن

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 330 – 331.

[2] ينظر، أبو نعسة، سعيد، **الشخصية الصهيونية في رواية حسن حميد – جسر بنات يعقوب**، ملتقى رابطة الواحة الثقافية، 22، 5، 2006 م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السّارد عن لعنتها وخيبة أمله بالعودة بشكل صريح، بل جاءت رسالته متضمنةً في الخطاب الرّوائيّ، ونستشفّ ذلك من خلال خلع السّارد لرؤيته على نهر الأردن، إذ برز بصورة المفاعل والمشارك والشّاهد الحاسم لهذه التّغييرات، يقول:

"**ثم اقترب الشّارع من النّهر مرةً أخرى، اقترب من حقول الألغام ومن الحاجز الإلكتروني المكهرب الذي أقاموه للحيلولة دون عبور الفدائيين بعد حرب حزيران**"[1].

تظهر السّيطرة الإسرائيليّة التّامة على النّهر، وتغيّر من دلالة الرحمة إلى صورة العذاب، التي عبثت بمعالمه يد الاحتلال الصهيوني وصار سياجا مكهربا للعابرين. ويواصل السّارد استعراضه لحقائق يراها بعينه، فيقول:

"**وبدأنا نمرّ بمناطق خضراء، ولم نستطع أن نتبيّن فيما إذا كان التّيار يندفع من الشّمال إلى الجنوب، أم من الجنوب إلى الشّمال، ولم نكن نعرف فيما إذا كانت مياهه عذبة أم أنّ الملوحة قد لوثتها، وقد خطر لي أن أطلب منه التّوقف لنذهب ونتبيّن حقيقة ما يجري**"[2].

يُظهر الخطاب السّابق تفاعلا مع الذّات القلقة والواقع المتغيّر، وذلك يظهر من حالة النّهر المضطربة الّذي غيّر مجراه، واستخدم السّارد ثنائيات ضديّة (شمال وجنوب) و(عذب ومالح)، ولبس النّهر ثوب المراقب المتوجّس والعائد الخائب عبر أسئلة متناقضة توحي بالحيرة في تداعيات الخطاب الرّوائيّ الذي يتابعه بذكر أثر التحوّل الطبيعي بقوله: "**وهذا الحدث يعني أنّ المياه التي تتدفق في تياره ستصبح منذ الآن مياها مالحة، وهذا يعني أن مياه البحيرة ستطالها الملوحة وسيقضي ذلك على الأسماك وكائنات مملكة الماء وستصبح البحيرة بدورها بحيرة ميتة**" [3].

---

[1] يخلف، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة**، 109.

[2] **نفسه**، 75.

[3] نفسه، 65.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يظهر السّارد استشرافه للواقع ونظرته المستقبليّة عبر مزج رؤيته وإعادة إنتاج المكان من مشاهدات الخارج إلى إنتاج تفاعل داخلي ذاتيّ بإعلان العدوّ في الإذاعات عن أثر هذه التّغييرات الطبيعية التي أصابت بحيرة طبريا وأنّ الملوحة ستنالها وبالتّالي ستموت الأسماك. ونرى أن المنظومة اللّغوية السياقية السابقة لها دلالتها السّيميائية الّتي تكشف عن آثار العودة المرقعة لبعض العائدين الفلسطينيين، إذ تسعى دولة الاحتلال إلى زعزعة آمالهم، فتصبح دلالة البحيرة علامةً فارقة يسعى المحتلّ بواسطتها إلى تنغيص حياة الفلسطينيين من جهة، ومحاولة مسخ منظومتهم المعرفيّة (للبحيرة) في الذّاكرة الجمعيّة نظرا لأهميتها الاستراتيجيّة لدى أطراف الصّراع. ونرجّح أنه يقصد (بالحدث الجيولوجي) تداعيات اتفاقية أوسلو، التي كان من أبرز بنودها السيطرة على الأماكن المائية في فلسطين.

ويواصل المحتلّ عملية تغييب الحقائق وتغييرها بزعمهم أنّ هزةً أرضية حدثت في خليج العقبة، مما أدى إلى تغيير مجرى النهر، فتحوّل مساره الطّبيعيّ بشكل عكسيّ من الجنوب إلى الشّمال، وكذلك تغيّر نبعه فصار ينبع من البحر الميت ويصبّ في البحيرة وجبال لبنان[1].

وهذا أدّى أيضا إلى إثارة "**حركة الزّواحف الكامنة، فاندفعت مع المجرى الجديد للنهر باتجاه البحيرة، ومن بين هذه التّماسيح التي كسرت الأسيجة والحواجز وهربت من حدائق الحيوانات في أنحاء متفرّقة من المدن التي سيطر عليها الإسرائيليّون**"[2].

يكشف السّياق الخطابيّ السّابق عن صدى عودة بعض المغتربين إلى بلادهم التي أثارت قلق العدوّ، عبر سياق انفعاليّ يفتح نافذةً أوليةً على العوالم البديلة الرّمزية، التي تمثّلت بهروب التّماسيح من سجن الحدائق (وكسرها للحواجز) بما لكلمة (حواجز) من دلالة يدعو السّارد من

---

[1] ينظر، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة** ، 65.

[2] **نفسه**، 65- 66.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خلالها الشّعبَ إلى كسر حاجز الذّلّ، والعودة إلى مكانه المعرفيّ الذّاتيّ كما تطالب التّماسيح بفطرتها الطّبيعية عودتها إلى مكانها الأصليّ المائيّ.

وعلينا ألا نغفل هنا رؤية السّارد/ المثقف الذي أعاد إنتاج رؤيته للمكان المشاهد الواقعي، بعد أن شكّل المكان الغائب في وجدانه حلما مفقودا، إذ فاجأته الرّؤية الواقعية بخيبات أمل متجدّدة بعد وصوله أرض الوطن؛ إذ إن المثقّف الّذي يعتبر نفسه جزءا من قوميته العربيّة لن يتقبّل الأحداث الوطنيّة ولا يقرأها بسذاجة، ومن الصعب عليه التأقلم معها والتكيّف بسهولة، بل سيكون فكره ورأيه مصدرا للبلبلة وزعزعة الاستقرار[1]، وهذا ما يخشاه العدو ويتوجّسه من خلال إبداء المثقفين رأيهم وإعلانه للناس. إذ يلجأ السّارد إلى إطار الرمزيّة للتعبير عن رفضه للقمع عبر ثورة التّماسيح الباحثة عن الحريّة، وذلك بالتّأصيل الرّوائيّ الّذي "يرفض القهر السّياسيّ والإرهاب الفكريّ والتّعذيب الماديّ والمعنويّ، ويتبيّن لنا هذا الرّفض الفنيّ لأزمة الحرية إلى المناداة بالحرية والتطلع إلى تجاوز هذا الواقع المدان إلى مستقبل أفضل أكثر إشراقا وحرية وعدالة"[2]، وقد احترق الفلسطيني بنار أشواق العودة لبيته ولبلدته – كشوق التمساح لأصله ومكانه – فأسقط شعوره الخانق على التّمساح الهارب الذي رفض سجن الحدائق، فتمرّد وأخذه الحنين إلى موطنه (البحيرة). وكلاهما يلتقيان في هذه النقطة، فإذا كان التمساح المفترس لا يقوى على هذه الغربة، فكيف يقوى الإنسان على غربة روحه بالتّخلي عن وطنه؟

يقول الكاتب مؤكّدا ذلك بقوله: "**لعله اشتاق إلى الفضاء والبحيرات، فانطلق زاحفا عبر الجبل، ومشى بين الأشواك، مدفوعا بغريزة عشق المياه متسللا نحو البحيرة**" [3].

---

[1] سعيد، ادوارد، **المثقف والسلطة**، 97.

[2] عطية، أحمد محمد، **الرواية السياسية دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية**، 17.

[3] يخلف، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة**، 92.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يوازن السّارد باستخدامه منظومات لغويّة متناقضة، ليعكس أيدلوجيته بالمقارنة بين الوطن والمنفى والحلم والواقع والإنسان والتّمساح ، إذ يخلع السّارد إحساسه بالقهر، ويلبسه على (تمساح)، ولعلّ السّخرية السّوداء الّتي ساقها تكشف عن عمق الألم الّذي سكنه، ومدى تهميش الفلسطينيّ واحتقاره من قبل الاحتلال، فهو بالنّسبة لهم يشبه أي كائن آخر !

ونرى أنّ نهر الأردن هو الفاعل المحرك في الخطاب السّردي الملتحم بمنظور السّارد، إذ يحاول السارد تغيير قضيته، موظّفا لغرض فكري سياسيّ، فالنّهر يمثل توحّد الإنسان مع الطّبيعة، وهو الزّمن في مجراه المتجدد[1] الّذي حاولوا تغييره، وهو الممثل الفرعي في دائرة الأصل الثابت (البحيرة/ الوطن)، والذّي يسعى كلّ منهما إلى العودة إلى أصله، فالوطن الممثل في البحيرة هو أمل نهر الأردن المشارك للفلسطيني المغترب في رغبته في العودة الأكيدة لحياته الأصلية بواقعها التاريخي.

ويأخذ نهر الأردن ثلاثة أبعاد متقاطبة في رواية (جسر بنات يعقوب)، تتوتر عبر السّرد الدائريّ الذي يبدأ فيه السّارد حديثه عن خروج يعقوب وبناته من قرية (الشماصنة)[2] ومسكنه قرب النهر (الجسر) إذ يصف نساء القريّة وهنّ يغسلن الأواني والملابس، وهنّ منتشرات حول النهر ثم تتصاعد الأحداث، فيأخذ نهر الأردن مكان المعصية والخطيئة واللهو، ثمّ يتحوّل في نهاية الرّواية

---

[1] ينظر، النصير، ياسين، **الرواية والمكان**، 125.

[2] عثرت على اسم واحد لها هو عرب الشمالنة، التي تسمى بخربة أبو زينة، تقع في سهل يمتد غربي الحدود السورية شمالي الموضع الذي يصب فيه نهر الأردن في بحيرة طبرية وتشرف على أقصى الشمال لشاطئ البحيرة وكانت تربطها بقرية الطابغة، الواقعة على شاطئ البحيرة أيضا طريق فرعية وكان يقيم فيها قوم من قبيلة عرب الشمالنة استوطنوها وكانوا يزرعون الحمضيات والخضروات وكان في جوار القرية مواقع أثرية عدة، شنت عملية صغرى محدودة لطرد كل السكان الفلسطينيين من المنطقة الممتدة بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية وقد احتل عرب الشمالنة في إطار هذه العملية التي سميت عملية مطأطي المكنسة عام 1948 وقصفت القرية بمدافع الهاون مما تسبب في فرار ألفي لاجئ إلى سوريا. الخالدي، وليد، **كي لا ننسى**، 333، وينظر:الدباغ، مصطفى، **موسوعة بلادنا فلسطين**، ج7، 175-176.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى دور المنتقم والغاسل لذنوب الشّخصيات المذنبة، ثمّ يتحوّل إلى دلالة التّحدي والثّبات في الضفة الأخرى عبر نصّ كشفيّ يظهر عدم اكتراث أهل (الشماصنة) بما حدث على ضفته الشّرقية من توتر وصراع، وبعبارة أخرى يوازن السارد بين صورتين للنهر، (الشرقية والغربية، ومكان المعصية والقداسة والشخصيات الخارجية (اليهودية) والداخلية (الفلسطينية)، وذلك يظهر باستنطاقنا البنية العميقة للنص السردي الذي ختم السارد روايته ببراعة مقصودة لجعل المتلقي يشترك معه في منظوره الروائي، إذ يقول: "**لم يصرف أهالي الشماصنة عن مواصلة المياه قرب النهر، وفي السهول والأودية ومعاصر الزيت، وكأنّ ما حدث لم يكن مقلقا أو لكأنّه لم يحدث أصلا**"[1].

ـ سادسا: دلالة الجسر بين الدلالة السلبية والايجابية:

توحي كلمة الجسر بالتواصل والربط بين البلاد بحرا وبرا وغير ذلك، وتحمل دال الأمان والتقريب بين الأماكن البعيدة، لكن مدلول الجسر عند الفلسطيني يأخذ أبعادا أخرى، ويعبّر عن دلالات الخيبة والذّل والتعب والمعاناة والعذاب، حيث إنه وضع فاصلا، لا واصلا فكان بمثابة الحد الفاصل القاهر بين الضفتين الشرقية والغربية والتي كانت قلبا واحدا، فسيطر عليها الاحتلال الصّهيونيّ، فقسّم بتلك القسمة الجائرة قلوب شعبين !

إنّ الجسر معاناة الفلسطينيّ يمر خلاله من محطة إلى محطة، وكأنه اختزال لمحطات الحياة، وتذكرة عبور للمسافر الفلسطينيّ المتنقّل الّذي يقف في منطقة وسطى بين الجنّة والنّار، وإن تعددت أسماؤه كجسر الملك حسين أو (اللنبي)، أو جسر الكرامة، وغيرها من الأسماء التي لا تعني للفلسطينيّ كثيرا، إلّا أنّه جسرٌ مدّ فوق نهر الأردن نراه من خلف نافذة الحافلة أو نرى ما تبقى من مياهه عندما نقف لساعات فوقه نستجدي العبور.

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 332.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد وصفه محمد علي طه في قصة (جسر على النّهر الحزين) بالقداسة، والجسر مكان ثابت لا يتحرّك، بينما أضفى عنصر الحركة والانفعال على الجسر، ووصفه بالحزين وفيه حالة من التّشخيص أضفاها الكاتب على الوطن المنتظر عودة أبنائه.

والجسر رمز الأرض الرّاسخة ونداؤها المستمرّ للإنسان بأن يبقى متمسكا بجذورها، محافظا عليها، يحميها ويدافع عنها، ويعود إليها [1]، وذلك يظهر من خلال آخر سطر في القصّة يقول فيه السّارد: "**نحن نبني جسرا مقدّسا على النّهر الحزين** "[2]، و وفيه دعوة للعودة الجماعية باستخدام ضمير الجمع (نحن) واشتمال الحدث الممثل في الفعل المضارع الدّال على الجمع في (نبني) ليؤكّد على ضرورة ترسيخ المنظومة الفعليّة في الوعي الفلسطينيّ.

إنّ ميثاق الفلسطينيّ المقدّس يكمن بعودة الفلسطيني إلى بلده مرورا بالجسر الذي يريد كاتبنا أن نراه واصلا وليس فاصلا وأن نتحدى الاحتلال بتحمّل مرارته ومشاقه، فهو بوابة العودة والتحرير، وفي المقابل يرسم صورة أخرى للوطن الحزين المتمثل في النهر بغياب أهله عنه، وهنا يتلاحم النّهر والجسر في اللاوعي الفلسطينيّ ليشكّلا سياقا معرفيا واحدا، ودلالةً واحدةً اكتسبها الشّعب الفلسطينيّ بعد عبوره الجسر فصار النّهر هو الجسر، والجسر هو النّهر وكلاهما جزءان من الوجع الفلسطينيّ العامّ.

وبهذا يصبح الجسر ذا دلالتين: سلبية وإيجابية، سلبية في سيطرة الاحتلال على هذا الجسر الظالم لأهله، ودلالة إيجابية يصنعها الفلسطيني بإرادته تتمثل في تأكيد حق عودة اللاجئين إلى بلادهم، وبه يحول الفلسطينيّ واقعه إلى عودة مقدّسة واجبة.

---

(1) .66

(2) ينظر، دريدي، محمد رشدي، **النص الموازي في أعمال عبد الرحمن منيف**، 83، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2010م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويأتي الجسر في رواية (جسر بنات يعقوب)، معادلا موضوعياّ وركنا أساسيّا قامت عليه أحداث الرّواية، وهو الأبرز في بنائها السرديّ، ويحمل الجسر فكرة الصّراع بين المقدّس والمدنّس، بإبرازه شخوص الرّواية اليهوديّة بصورة سلبيّة، تعكس نفسيتها الجشعة والاستغلاليّة، إذ ما لبث يعقوب –منذ حلوله قرب النّهر– يفكّر في إقامة جسر فوق النّهر مستغلا احتياجات النّاس.

يقول يعقوب:

"**هنا وقرب هذا الجسر، سنتقاسم العذاب مع الآخرين، سنقسّم عذابنا عليهم أيضا**" [1] .

ويخطّط بالتّعاون مع (سليمان) –الشّخصيّة اليهوديّة الأخرى– إلى السيطرة على المكان ببناء خان قرب الجسر، ويقترح سليمان على يعقوب أن يجعله بعيدا عن الجسر كي لا يختلط الناس والدواب والجسر والنّزلاء بالخان، فيرفض يعقوب ذلك ويطرح عليه سؤالا غريبا "**هل تضمن لي يا سليمان بأن لا يبني أحد من الناس خانا أقرب منّي إلى الجسر**"[2].

ولهذه الجملة السياقية دلالة سيميائية تعكس طبيعة يعقوب المستغلة المتوجسة من البشر، فتحاول امتلاك الأماكن وكأنّها جزء من ملكيتها وخاصتها وبالتّالي تسيطر على النّاس فتكون حاجتهم في قبضتها.

ويعرض السّارد في وقفة سردية تداعيات بناء الجسر في مكان كان آمنا مطمئنا، ثمّ تحوّل إلى دلالة قهر وخوف وقلق، يقول: "**الجسر سيصبح بوجود بنات يعقوب البقرة الحلوب التي لن يستغني عنها يعقوب أبدا، فالجسر سيكون حديث الناس في القرى المحيطة به وفي القرى**

---

[1] حميد، حسن، 178.

[2] نفسه، 181.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البعيدة عنه، كما ستكون بنات يعقوب المشاجب التي سيعلّق عليها يعقوب كل مشاكله، وكلّ أعدائه وكل أمانيه القادمة!!" [1].

وشكّل الجسر محورا مركزيا وبؤرة صراع دائرته الأولى: المكان، المكان الذي يدور في فلكه: الشّخصيات والأحداث والزّمن الحالي والمستقبليّ والرّؤى الاستشرافيّة الّتي ستغيّر معالم المكان في نسق سرديّ يعلن يعقوب خلاله عن أمنياته ومخططاته بإنشاء جسر معاد للنّاس، لأنّهم سيدفعون أموالا له عند عبورهم، ويصف السّارد حال يعقوب عند مرور النّاس دون دفع بقوله: "**يكاد قلبي يحترق يا سليمان، وأنا أرى هؤلاء يروحون ويجيئون من فوق الجسر دون أن يدفعوا شيئا، إنهم النّاجون يا أخي**" [2].

يعكس هذا الحوار صورة سلبية من صور الشّخصيات اليهوديّة الجشعة والّتي لا تحبّ الخير للنّاس والّتي تعيش على معاناتهم وأوجاعهم، وفعلا كان لهم ما أرادوا فشرعوا في بناء الجسر ويصف الكاتب طريقة بنائه، فيقول: "**اقتربوا من الجسر، وشرعوا يحفرون حفرة واسعة جدا من أجل إقامة دعامة كبيرة ثابتة من الحجارة لكي يستند إليها طرف الجسر الشرقي بحيث يصير الجسر ثابتا من طرفه الغربي، ومتحركا من طرفه الشرقي وأن يربط هذا الطرف الشرقيّ بحبل ويعلّق بالهواء بحيث لا يمر فوقه إلا من يدفع أو من يرضى عنه يعقوب..... ويظلّ معلّقا في الهواء لا ينزل مرة أخرى إلا بالدفع أيضا**"[3].

لقد كانت النّاس تعبر النّهر دون مساءلة من أحد قبل أن يخطّط يعقوب لإقامة الجسر وإذلالهم بدفع الأموال عند العبور والعودة، وبهذا تحوّل نهر الأردن إلى صورة المكان السّلبيّ المعادي، واستبدل المكان المعادي بالمكان الآمن الأليف، هذه الفكرة تشربها يعقوب وسعى إلى

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 274.

[2] **نفسه**، 253.

[3] نفسه، 305.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ترسيخها في منظومة المجتمع آنذاك، يقول السارد على لسان يعقوب: "**مع الأيام سيتعوّد النّاس على الدّفع قبل أن يعبروا سيجهّزون ما يدفعونه. الأيام كفيلة بهم**" [1].

وهكذا استغلّ (يعقوب) حاجة الإنسان لخدمة مصالحه ؛لأنّه يؤمن – كيهوديّ– أن الإنسان هو الوطن الصغير، إذ إنه الفاعل والمغيّر والمسيطر، وهو مفتاح للوطن الكبير[2].

ومارست بناته الرّذيلة مع النزلاء والعابرين والرّاغبين، فنال يعقوب أموالا طائلة عن طريق جسر المال وبيع الجسد، وبذلك عرف النّاس الجسر باسم جسر بنات يعقوب بكل ما يتبعه من سلبية، يقول السّارد عن بنات يعقوب: "**لا يزال عنوان إقامتهن قرب الجسر، الجسر الذي صار اسمه جسر بنات يعقوب**"[3]، وهكذا صار يعرف الجسر تدريجيا باسم يعقوب وبناته وأصبح كسوط عذاب يُسلّط على ظهر الأهالي، ونمثل على ذلك بالرسم البياني الآتي:

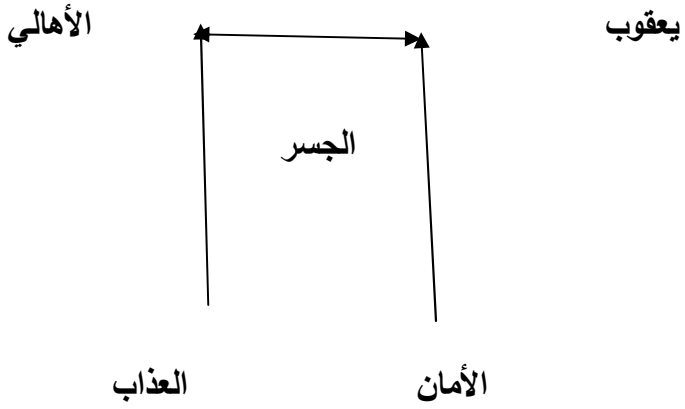

وتلوّث الجسر بالدّم وبالعارّ، ولكن الناس لم تسكت طويلا عن أفعالهم، بل انقلبوا عليهم بعدما طال القهر والفساد في بلادهم وانتهى الظّلم بموت الشّخصيات اليهوديّة المسيطرة يقول السّارد: "**وبعده عاد الأهالي وثبّتوا طرف الجسر الشّرقيّ فوق الدّعامة الكبيرة وهدموا بيت**

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 305.

[2] ينظر، علي، فؤاد حسين، **الأدب اليهودي المعاصر**، 13.

[3] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 330.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عصمان وأعادوا الجسر إلى ما كان عليه قبل مجيء يعقوب وبناته. وقد وجدوا وراء عصمان أموالا كثيرة وأسلحة وفؤوسا وبلطات وطعاما مختلف الألوان"[1].

تحولت دلالة الجسر في نهاية الرواية من المكان المعادي إلى المكان الأليف، بعدما طهّره الأهالي بإرادتهم وإصرارهم على تغيير الواقع. ولنلحظ من خلال النّصّ السّابق إرث عصمان الذي خلّفه وراءه: أموال، فؤوس، أسلحة، طعام مختلف الألوان، وتلك دعائم القوة والسلطة التي تمتلكها أي قوى للسّيطرة على أي مكان أو وطن أو شعب، لكنها نهاية الظّلم التي حلم بها السّارد، فصارت تلك الخيرات ملكا للأهالي المظلومين، الذين تمرّدوا وأعادوا الجسر إلى ما كان عليه، فوصلوا الجانب الشرقي للجسر بالجانب الغربيّ فصار جسرا واحدا يمرّ عليه العابرون دون انتظار نزول الجانب الشّرقيّ منه، ولعل السّارد يتمنى إنهاء العذاب الذي ألقاه (يعقوب/ اليهودي) على النّاس ومحو الجسر القائم عبر نظرة استشرافية تأمليّة، تنبئنا عن زوال هذا الظّلم وزوال هذا الجسر، وتصير الضّفتين الشّرقيّة والغربيّة ضفةً واحدةً.

ولم تكن دلالة الجسر في رواية (نهر يستحمّ في البحيرة)، بأحسن منها في الرّواية السّابقة، فعند عودة الفلسطينيّ المغترب إلى بلاده، فإنّ أوّل ما يفاجئه عند الدّخول هو الجسر بوابة العبور الأولى لفلسطين وهو عنوان التفتيش والانتظار والهمّ والمعاناة.

ويبدو من خلال المتن الحكائيّ، أنّ السّارد اعتقد أنّ هناك تسهيلات أكثر عند العبور، وذلك إثر توقيع اتفاقية أوسلو، وتأمّل تغييراتٍ ايجابية بموجب معاهدة السّلام بين الطّرفين، وربّما تخيّل ألا يكون هناك جسر أو حدود بين الطّرفين، فالطّرفان في حالة سلام!

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 331.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولكنّ الواقع كشف عن حالة استسلام في مشهدٍ دلاليّ يوحي به ضمنا النّسيج النّصيّ وقد أوحت سطوره بذلك، يقول: "**عندما عبرت الجسر وشاهدت أرض الوطن، امتلأت عيناي بالدّموع، دخلت من معبر الجسر، ولم أدخل من معبر رفح، دخلت من على الجسر الخشبيّ**"[1].

إنّ النّصّ السّابق لم يشر إلى الحافز السّياسيّ لهذه الاتفاقية بشكل مباشر، بل ترك للقارئ أن يدرك ذلك، إذ لا تغيير جذريّا حصل على إثرها، وهذا يظهر من النافذة الأولية لدخول فلسطين من معبر واحد عبر الجسر الخشبي المعهود لدى الفلسطينيين – والذي لم يعد خشبيا منذ نهاية السبعينيات، ولعل السارد يشير إلى أغنية فيروز –يا جسرا خشبيا يسبح فوق النهر – كما أنّه لم يدخل من معبر رفح مثلا، وهو الأقرب إلى غزة وهي محطته الأولى التي استقر فيها منذ الدخول، وقد تفاجأ بخيبة أمل أخرى ألا وهي مندوب الارتباط الفلسطينيّ الذّي كان بجانبه إذ يقول: "**في آخر الجسر كان يقف جندي إسرائيليّ، جندي أشقر سمين يحمل بندقية عوزي ويضع على رأسه قبّعة تشبه قبّعة الصّيادين, وبجانبه كان يقف مندوب من لجنة الارتباط**"[2].

توحي الكلمات السّابقة بغربة الذّات والمكان، وجنوح المكان تدريجيّا نحو المكان السّلبيّ، عبر استخدام السّارد منظومةً لغويّةً متعددة مثل: (آخر الجسر /جندي إسرائيلي /يحمل بندقية / قبعته كقبعة الصّيّاد) هذه الكلمات المتوالية لها بيانها السّيميائيّ والّتي تدلّ على سيطرة إسرائيل الكاملة والتّامة على الجسر، أمّا مندوب الارتباط فبدا وكأنه صورة من ورق ليس له من الأمر شيء، واكتفى بالوقوف بالقرب من الجنديّ الإسرائيلي ومراقبة العبور وتنظيمه!

---

[1] يخلف، يحيى، 6.

[2] نفسه، الصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم يتابع السارد قصّة العبور بقوله: "**كان صباحا جافا تحت الجسر تجري مياه ينعكس على صفحتها مزيج من لون الحشائش والأشجار البريّة، أشجار كثيفة وأدغال من الأشواك لم تجد من يشذّبها ويعالجها منذ سبعة وعشرين عاما**" [1].

يتراءى لنا الجسر بصور مضادة مجتمعة فهو يمثّل (الجمال والقبح)، (الأشجار البرية والشّوك)، (الفلسطينيّ والإسرائيليّ)، إنّه يمثّل الحدّ الفاصل لكل المعاني الماديّة والمعنويّة، فهو يحاول المقاومة وترسيخ جذوره عبر ثباته في بؤرة الصّراع متحديّا للاحتلال، منتظرا عودة أبنائه، ويختلط النهر مع الجسر فيصبحان مسميين لشيء واحد، فالنهر في الذاكرة الجمعية للفلسطيني يمثل الجسر، الذي يجنح نحو المكان السّلبي المعادي، بينما يتخفّى جمال نهر الأردن وتذوب أهميته الاستراتيجية، لا لشيء إلا لأنه يمثل لنا رمز المعاناة، رغم جمال المكان وزهوه وغربته، إذ يحنّ الشّجر ويئنّ، وها هو الشّوك ما زال حاضرا لم ينخلع، لقد قست أدغال الأشواك على النباتات، إذ زاحمتها مكانها وسلبتها جمالها ورونقها. وكأنّ الشّجر الأصليّ ينتظر (العائد /السّارد نفسه) الذي غاب عن بلاده سبعة وعشرين عاما، حتى حزنت نباتاته وغزاها الشوك.

ويذكر السارد في رواية (على ضفاف النهر) قصة عبور الجسر في الصفحات الأولى من الرواية، ولكن العبور هنا هو عبور الجسر من الضفة الغربية إلى الشرقية، فيقول:

"**رجال ونساء محطمو المعنويات يعبرون الجسر ببطء وحذر مشيا على الأقدام، في أحضانهم أطفال صغار ويجرون خلفهم من يستطيعون المشي من هؤلاء، فيما يحمل البعض على أكتافهم وظهورهم بقايا أمتعتهم وذويهم من كبار السن وقد طغت على وجوههم علامات الذل والتشرد**

[1] يخلف، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة**، 6.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

انتظرنا ساعات طوال وفي الغور القائظ راح الناس يبحثون عن شربة ماء يروون بها ظمأهم لم تسمح شدة الازدحام بعبورنا.... " [1].

وصف السارد صورة معاناة مصغرة من صور عبور الفلسطيني الجسر مغادرا إلى الأردن، وما كانت العودة من خلاله بأحسن منه، إذ يعاني الشيخ والطفل والمرأة هموم العبور ويخضعون لمزاج الجنود الصهاينة في السماح لهم بالعبور وقتما يحلو لهم، ضاربين بعرض الحائط أحوال الناس من مرضى وكبار السن، سواء أكان الجو صيفيا حارا أم شتائيا قارساً.

يتضح مما تقدم أن صورة الجسر برزت بالدلالة السلبية، ولم يزل هذا الجسر قائما في نفوس العابرين، وما يزال المحتل يسيطر عليه، وسيظل كذلك ما دام الواقع الحالي كما هو لم يتغير، ونرى الجسر – رغم كل هذا – صاحب الوجه القبيح والقلب الحزين!

[1] منصور، أبو علاء، **74**.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثاني: المنظورات الموضوعية لنهر الأردن

أولا: المنظور السياسي للنهر

نهر الأردن بين الاحتلال والمقاومة والسلام

ثانيا: المنظور النفسي للنهر

1- فجيعة الفلسطيني بين النكبة والنكسة والتشريد

2-الخوف من عبور النهر

ثالثا: المنظور الاجتماعي للنهر

صور من الواقع الحياتي الفلسطيني

رابعا: المنظور الديني للنهر بين الرؤية اليهودية والفلسطينية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولا: المنظور السياسي للنهر:

يقع نهر الأردن في قارة أسيا، وهو يقطع فلسطين غربا، وسوريا والأردن شرقا، وبين اللحف الجنوبية لجبل الشيخ في الشمال والبحر الميت جنوبا، وهو من أخفض أنهار العالم[1]، ويمر في رحلته من لبنان وسوريا شمالا، عابرا الأردن وفلسطين، هو يقوم بدور الحاجز الطّبيعي الاستراتيجي بشكل يصعب اجتيازه من فلسطين نحو الشرق ومن الأردن نحو الغرب، وتتقاسم فلسطين والأردن المياه والحقوق على ضفتيه بموجب أحكام القانون الدولي، بينما تنتزع إسرائيل حقهما وتواصل سرقة مياهه والسيطرة عليه[2] وقد بدأت مشاريع السيطرة على مياهه، منذ الهجرات اليهودية الأولى، وازدادت إحكام قبضتها عليه بعد حرب عام67؛ إذ سيطرت على المنابع الأساسية لنهر الأردن والبحيرات الجوفية التي تغذي الجولان السوري وجنوب لبنان، وكذلك مصب رافده الرئيسي نهر اليرموك وبحيرة طبريا، بالإضافة إلى السيطرة على الشاطئ الغربي لنهر الأردن والبحر الميت إثر النكسة الحزيرانية[3].

وتشرف مياه نهر الأردن على 75 بالمائة من البلاد العربية– المذكورة سابقا– بينما لا تتجاوز كمية المياه التي تغذي النهر من الجانب الإسرائيلي منذ عام 48 نسبة 25 بالمائة، وما زالت إسرائيل ماضيةً في خططها، محاولةً ضمّ المصادر المائية عبر لجنة سخّرتها لمصالحها وذلك عام 1971م، وبذلك تنساب مياهه من شمال البلاد إلى جنوبها وتصل إلى النقب، محققةً بذلك إنتاجا زراعيا وافرا، عدته إسرائيل من أكثر انجازاتها نجاحا[4]، ومن المعروف في استراتيجية دول العالم

---

[1] ينظر، خليل، موسى أحمد، **موسوعة المحيطات والبحار والأنهار والبحيرات**، 169.

[2] ينظر، عبد السلام، عادل، **الموسوعة الفلسطينية**، **1**/219.

[3] ينظر، نافع، جمال، **الوضع القانوني لنهر الأردن وحقوق الشعب الفلسطيني في مياهه**، 109 –110، مجلة صامد الاقتصادي، العدد 89، تموز، أب، أيلول، 1992م.

[4] ينظر، عائب، حبيب، **المياه في الشرق الأوسط الجغرافيا السياسية للموارد والنزاعات**، 42.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنها تأخذ مسألة المياه بعين الاهتمام إنعاشا لاقتصادها، وعند سيطرتها وفرض سيادتها على أي دولة من الدول، لما للمكان المائي من دور سياسي ومركزي باعث للسيطرة والإخضاع.

ولقد شكل نهر الأردن منعطفا سياسيا مهما وخطيرا، وظهر تأثيره الأكبر بعد النكسة عام 1967، فاتخذ دلالة المقاومة والدفاع ومكان الانطلاق للقيام بعمليات بطولية ضد الاحتلال.

وسجل تاريخنا الفلسطيني في الأدب مواقف وأحداثا بطولية، ستذكرها الأجيال الفلسطينيّة والعربية، وقد ترددت أصداؤها في الأعمال السردية المتناولة في دراستنا، لتعكس تداعيات الصراع السياسي العربي الإسرائيلي والمواقف الدفاعية الفلسطينية.

-نهر الأردن بين الاحتلال والمقاومة والسلام:

خططت بريطانيا بالتعاون مع الصهاينة لتسليم فلسطين لهم عام 1917م إثر وعد بلفور، ومنذ ذلك الحين درس الصهاينة جغرافية فلسطين، واتجهت أنظارهم نحو السيطرة على المياه دعما لاقتصادهم ولتسهيل بناء مستوطناتهم، فأضحوا يقطّرون على الفلسطينيين مياههم ويقتّرونها، إذلالا لهم وحرمانهم من أبسط حقوق عيشهم، وقد عانى شعبنا -ومازال- من قلة المياه، بينما تمتعت المستوطنات الصّهيونية بماء وافر لا ينضب معينه.

كشفت لنا رواية (جسر بنات يعقوب) عن هدف يعقوب منذ قدومه إلى الجانب الشّرقي للنّهر بعد رحيله من قرية الشماصنة بعد أن ذاع أخباره السيئة هناك، إذ كان يهدف إلى بناء جسر، وفعلا كان له ما أراد، وذلك بمساعدة الشخصيات اليهودية التي عاونته على إنجاز مهمته وتحقيقها، وتم إنشاء الجسر، فتحول إلى بؤرة عذاب ومأساة، إن أعلن الأهالي الرّفض والضّجر في البداية، لكنهم أذعنوا لسيطرتهم، يقول السّارد: "**الآنَ بوجود عصمان، ودعم سليمان عطارة، صار**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للجسر هيبته وحضوره، وحارسه كما أصبح له ضامن. هذا ما عرفه الأهالي حقيقةً مع مرور الأيام وتداولها"[1].

لقد تحوّلت دلالة الجسر تدريجيا في مشاهد الأهالي البصريّة منذ ذلك الوقت إلى صورة المكان المعادي القاسي المتجسد بالهيبة والمعاداة، فصار له حارس يرقبه وضامن يحفظه، وبهذا تسللت دلالته السلبية رويدا إلى منظومة الأهالي المعرفية الجديدة وتبدّلت حياتهم إلى الأسوأ، ويواصل السارد تأصيل منظوره السّردي عبر النّسيج الحكائيّ، بقوله:

"وغرفة عصمان القريبة تماما من الطرف الشّرقيّ للجسر تجمعا سكنيا جديدا تماما في كل شيء، نسيجا آخر في المنطقة، نسيجا محايدا لا ينقصه إلا الألفة والانسجام مع ما حوله من بيوت، وأمكنة، وظلت غرفة عصمان، مكانا للخوف والقسوة والأسرار، والوحدة المطلقة.... إنها مكان للشراسة فقط، أو قل إنها مكان للتعذيب والحجز، مكان الداخل إليه لا يعرف متى يخرج منه وقد حفت به الأسرار ووجوه القسوة الشديدة"[2].

لم يكن الجسر وحده يشكّل مكانا معاديا في واقع الأهالي المعيشيّ آنذاك، فقد شكلّت غرفة عصمان اليهودي مكان خوف وقسوة وظلم، وبات الجسر وما حوله كنبت شيطاني تطاول على النباتات الطيبة، ذلك المكان الذي لم يلتحم مع الأماكن الأخرى من بيوت وأمكنة، بل عكس شعورا نفسيا مليئا بالغربة والوحدة في نفوس الأهالي الذين عاشوا مع ذلك المكان بألفة ومحبة وانسجام، حتى بُني الجسر وبُنيت قربه غرفة عصمان التي كانت برجا لمراقبة الناس ولحجزهم ولتعذيبهم.

---

[1] حميد، حسن، 306.

[2] نفسه، 306 – 307.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والأرجح أن الكاتب رمز بتلك الغرفة إلى سجون التعذيب والزنازين التي صنعها الاحتلال بدخوله فلسطين لمنع أي ثورة أو مقاومة من قبله، فقد قمعها بالتعذيب منذ البداية، وقصد بتلك (الغرفة) المكان المعادي بما يحمله من أسرار ووجوه قاسية، وبهذه الجملة يترك الساردُ القارئ محلقا بسماء التخييل، ناسجا صورا ذهنيةً تراكمية عن تلك الغرفة القاسية.

ولقد قاوم الفلسطينيون المحتلّ منذ عام النكبة، ووقف في وجهه المجاهدون والأهالي والشبان والنساء والأطفال، كلّ بطريقته ولم يسكتوا عن هذا الظلم، وبرزت إحدى صور المقاومة في رواية (النهر بقمصان الشتاء)، التي ذكرت قصة استشهاد المجاهد عبد القادر الحسيني، إذ يصف السارد استشهاده بقوله: "**مات، وهو يقاوم لم ينسحب على الرغم من إلحاح رفاقه عليه لكي ينسحب، إلا أنه لم يغادره إلا شهيدا.. كان عائدا من الشام.. طلب أسلحة وإمدادات. فأجابه رئيس اللجنة: لا توجد مساعدات.. فقال الحسيني: إذن لينتظروا سقوط القدس، وعليهم أن يتحملّوا المسؤولية أمام التاريخ وغادرهم الحسيني عائدا إلى القدس، عن طريق جسر بنات يعقوب، والتحق بالثوّار في منطقة القسطل واستشهد فيها**"[1].

يصف السّارد شجاعة الحسيني ومقاومته للاحتلال مع رفقائه الأشاوس في قرية القسطل عام 48، إذ كان يتنقّل بين البلاد ويتصل بالقادة لطلب الأسلحة والإمدادات، فيُفاجأ بقسوة الردّ من رئيس اللجنة العربية بعدم توفر أي مساعدات، وقد استشرف بحسّه المستقبليّ ضياع القدس وسقوطها في يد المحتلّ بسبب تقاعس العرب وخذلانهم للقضية الفلسطينية، وهنا ندرك أن من دافع عن الحقّ الفلسطينيّ المغتصب هم مجموعة من الأحرار الأبطال الّذين لم يملكوا إلا إيمانهم وثباتهم ونخوتهم القوميّة والدّينية التي منعتهم من ممارسة المشاهدة كما فعلت الدّول العربية

[1] حميد، حسن، **النهر بقمصان الشتاء**، 251.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وغيرها، فاتخذ العمل الدفاعيّ طابعا فرديا ولم يكن جماعيا مسلحا بالشكل الكافي، ويشعر الحسينيّ بالمسؤولية تجاه القدس، فيعود إليها عن طريق جسر بنات يعقوب ويستشهد في القسطل.

واللافت في ثنايا النص السابق، حديث السارد عن مرور الحسينيّ جسر بنات يعقوب، فهذه العبارة تظلّ تذكرنا بواقع الجسر قديما وحديثا وما يحمله من دلالات مادية ومعنوية وظهوره كالحد الفاصل بين الدّول، وكأنّه إشارة مرور حمراء توقف كل عابر، حتى ينتقل إلى درب آخر، فنهر الأردن كان وما زال بوابة العبور الأولى للفلسطيني ومحطته الأخيرة للخروج منها، ومكانا مفصليّا حمل آلام الناس وآمالهم.

ويصف السّارد نفسه في مشهد آخر، خروج الأهالي من ديارهم، من قرية الشماصنة عند دخول الاحتلال وصفا ممزوجا بالحزن والتّحدي الذي يعلو نفوسهم؛ إذ يرون أن خروجهم عيب وخيانة للثوار الذين قاموا بتقديم أرواحهم فداءً لوطنهم، وهم يحمونها بثباتهم وصمودهم، يقول الكاتب:

"**القوات العربية دخلت إلى الشماصنة، طلبَ قادتها من الأهالي أن يخرجوا إلى جسر بنات يعقوب، أن يقطعوا النهر باتجاه الأراضي السورية.... فرفض الأهالي. قالوا لهم: إنّ الخروج عيب، وإنّهم ليسوا أحسن من الجنود، وأرواحهم ليست أغلى من أرواحهم، فقال القادة: لكن الأطفال والنساء والعجزة. فقال الأهالي: (لا يوجد أحد أحسن من أحد)... فبقي الناس ولكن ليس لوقت طويل، فقد خرجت القوات العربية وأعادت تمركزها قرب نهر الأردن إلى الجنوب من قصر عطرة**" [(1)] .

[(1)] حميد، حسن، **النهر بقمصان الشتاء**، 252-253.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تلاحمَ الشعب الفلسطيني بكل فئاته أمام المحنة التي واجهته؛ إذ كان ردّ الناس عندما طلبت القوّات العربية خروجهم إلى جسر بنات يعقوب باتجاه سوريا: (لا يوجد أحد أحسن من أحد)، وهذا يعكس أن الروح كانت واحدةً، وأن العطاء واحدٌ والمقاومة واحدة.

مما سبق، نلحظ الدور المفصلي الذي يمثّله نهر الأردن للأهالي وللمقاومة ولقادة القوات العربية، فكان المعبر الآمن الذي سينقل الضّعفاء المهجّرين إلى سوريا، وكان النّقطة الاستراتيجيّة المسيطرة للقوّات العربيّة التي ارتأت أنّها تحمي البلاد وتراقب الاحتلال من خلال تمركزها قرب النّهر. ولعلنا نتساءل: لماذا تمسّك الأهالي ببلادهم رغم الخوف والجوع والدّمار، ورفض العديد منهم الخروج إلى بلاد عربية قريبة؟

إن المسألة ليست مسألة " مساحة جغرافية يعيش فيها الإنسان، لكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره، وتتأصّل فيها هويته، ومن ثم يأخذ البحث عن الكيان والهوية شكل الفعل على المكان لتحويله إلى مرآة ترى فيها الأنا صورتها، فاختيار المكان والبيئة يمثلان جزءا من بناء الشخصية البشرية، كما أنّ الذّات البشريّة لا تكتمل داخل حدود ذاتها، ولكنها تنبسط خارج هذه الحدود لتصطبغ كل ما حولها بصبغتها وتسقط على المكان قيمتها الحضارية" [1]، التي يحاول الاحتلال تجريدها منه.

ويأتي دور النهر بصورة الماء المقاوم أو المتوحد مع الفلسطيني لتيسير عملية الانتقام له ضد المحتلّ، فهو ملتحم معه برفضه الذّلّ والخنوع، ويتجلّى بدلالة المكان السّاتر والحاوي لأحزان الفلسطيني الذي أضحى مفصولا عنه بسبب قسوة الاحتلال وسيطرتهم عليه، إنّه الفدائيّ المدافع الّذي يلتحم مع الفدائيّ الإنسان ويدعمه في تصرفه لإغاظة الصّهاينة، يظهر ذلك في رواية (النهر

[1] قاسم، سيزا، **جماليات المكان**، 63.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بقمصان الشتاء) من خلال تصرّف أحد الشّبان الفلسطينيين بإثارة غضبهم وغيظهم، يقول الكاتب واصفا عمل أحدهم:

"**هو من نقل أكياس البصل اليابس من داخل كبانية كعوش ورماها في النّهر..... حوالي مئة كيس صغير من البصل حملها ليلا ورماها في النّهر، بعد أن تسلل من فتحة الأسلاك الشائكة..... أما أكياس الخيش فكان يحشوها في فتحة أنبوب الماء الحديديّ الّذي يضخّ المياه نحو الكابينات من النّهر، يحشوها في الأنبوب..... لأنّه كان يريد الانتقام من الخواجات اليهود الذين يتهمهم بقتل والده يونس المجحود..**" [(1)].

لقد حاول الفلسطيني مقاومتهم –ولو بطريقة بسيطة– وتنغيص حياتهم وتكديرها، وذلك انتقاما لوالده الذي قتل على أيديهم، فكان النّهر ملاذه وحيلته الّتي لجأ إليها لقهرهم، فينحو النّهر منحى المساعد والمعاون للفلسطينيين ضد الصّهاينة، وكأنّه يتمرّد معهم ويشاركهم الدّفاع، ويلبس قمصانهم ويتحدّى شتاء أعدائهم!

ويأخذ نهر الأردن بعدا سياسيا آخر، فهو يمثّل نقطة التقاء وعبور وتخطيط تنطلق منه دوريات الفدائيين عبر مياهه الخطرة نحو الضّفة الغربيّة لمهاجمة المحتلّ، ولو عدنا إلى رواية (النهر الغريق)، فإننا نرى أن مصلح يقترح فكرةً أخرى تُعين الفدائيين على العبور لمقاومة المحتل دون أن يمنعهم الغرق من الوصول إلى أهدافهم، يقول السّارد واصفا فكرة مصلح:

"**كان يتساءل: لماذا لا يحفر نفقا تحت النهر يربط بين ضفتيه، كان الجواب: إنّ الموضوع غير قابل للتّنفيذ لسببين: الأول اقتصاديّ وفنيّ كما يقول الجيولوجيون خبراء المياه، والثاني أمنيّ، حيث إنّ تحديد نفق أو أكثر للعبور، يمكن للعدوّ أن يرصد أماكن العبور. وهذا يفقد الدّوريات عنصر المفاجأة في المكان. وحيث إن باستطاعة العدوّ الرّصد الدائم لهذه النقاط المحدودة**

[(1)] حميد، حسن، **226–227**.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للعبور، وإن ذلك سيؤدي إلى فقدان الدوريات عنصري المفاجأة في الزمان والمكان على حد سواء، وهذا يعني الرمي بالدوريات في أحضان كمائن العدوّ"[1].

يتبيّن لنا من خلال النّصّ السّابق، مدى حرص القيادات العليا الفدائيّة على إتمام عملهم البطوليّ بنجاح وإتقان حتى لو عرّضوا أنفسهم لخطر مياه النّهر والغرق، وبيّنوا سبب منع تنفيذ اقتراح (مصلح) بحفر نفق –بالإضافة إلى السبب الجيولوجي – هو الخوف من ظفر الأعداء بهم بشكل مؤكّد، كما أنّ ذلك سيفقد المهاجمين عنصر المباغتة المنشود لجعل الصهاينة في حالة ذعر وخوف من العمليات الفدائية، وهكذا يأخذ النهر بعدا سياسيا نضاليا بعيدا عن الاستجمام على ضفافه أو اصطياد أسماكه، بل أضحى وسيلة مقاومة وشعار الفدائيين المقدّس وهو المكان الأليف –رغم خطورة مزالقه– للعابرين الفلسطينيين، والمعادي للاحتلال رغم سيطرتهم عليه حتى الآن بشكل شبه تام.

ويتجلى الحب الوطني للمكان في رواية أخرى هي (ياقوت النّهر)، فيظهر البعد السّياسيّ تحت جناح هذه الرّواية القصيرة والبسيطة في بنيتها الرّوائيّة، إذ تتغير شخصية عواد من العميل إلى المقاوم المدافع عن النّهر الّذي يقف للأعداء بالمرصاد، يقول: "**سأبقى مرفرفا فوق النهر، سأبقى مغردا حتى النهر، سأظلّ لهم بالمرصاد حتى يشاء الله، أنا ياقوتة النّهر الخالد أنا الطّائر الحرّ**"[2].

لم يحفظ حدود البلاد ونهر الأردن الأبطال المدافعين والحماة المجاهدين فحسب، بل حتى الناس البسطاء تحولت وجهتهم شطر هذا الحرم الأمن، وسعوا إلى جعله مكانا محرّما على أعدائهم، فهذا الجاسوس عواد يتحوّل إلى أحد الثوار نهاية الرواية.

---

[1] أبو صخر، نزار، 38.

[2] أبو ربيع، محمد، 80.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يظهر أثر نهر الأردن في نهاية الرواية بشكل بارز، وتبدو مكانته من خلال كلمات أطلقها السّارد في نهاية الرّواية تحدّث فيها بضمير المتكلم برؤيته المستقبلية. يظهر ذلك في قوله: (سأبقى) وهي تدلّ على الثّبات مع الاستمرارية، وفي وصف نفسه بطير البحر الذي لا يغادر البحر، بل سيظلّ عاليا مرفرفا، دلالةً على علوّ عمله بعد أن صار مقاوما ومدافعا، ووصف نفسه أيضا بالطّائر المغرّد المترنّم بأنشودة نهر الأردن، الّذي طالما عبره الفدائيون وراقبه الاحتلال ولاحق أبطاله، ويعلن أنه سيظلّ للأعداء بالمرصاد إلا أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، ويصف نفسه بأنه ياقوت النهر، وكأنّه يعلن استعداده لنيل الشهادة وبذل دمائه دفاعا عن النهر الخالد المقدس، الذي سيتلون بلون الدماء لأجله، وهنا تبرز الدلالة الدينية النقية بعد أن لوثتها مزالق العمالة، ثمّ يختم روايته بقوله: (أنا الطّائر الحرّ) وهي كلمات لم تأتِ اعتباطا، فقد شكّل هذا التّحول في حياته صورةً مشرقةً زاهيةً في نفسه بعد أن كان أسير مطامع الاحتلال وتابعهم، فقد تبرّأ منهم في النّهاية وأعلن حريته من قيوده واستسلامه لمبادئ الثورة والنضال. ويمكننا تمثيل هذا التحول في شخصية عواد بالرسم الآتي:

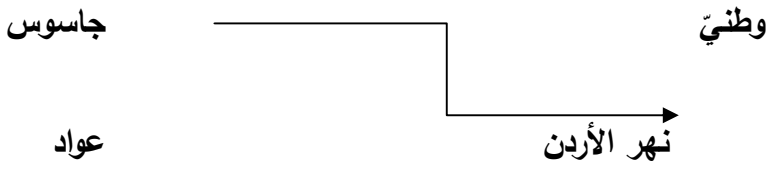

لقد ظهر نهر الأردن كنقطة مركزية تحولية عند عواد، فبعد أن كان يُسقط شعبه في فخ العمالة، صار حاميا للنهر من الأعداء.

ولم يسلم الفلسطينيون من نار الصّهاينة حتى بعد مسكنهم في الضّفة الشرقية قرب النهر، بل ظلّت نيران الاحتلال تلاحقهم وتصب جام غضبها عليهم، وقد وصف الكاتب ذلك في حكاية اسمعين ومسكنه قرب الغور في رواية (غريب النهر)، بقوله:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"**ومما زاد في تسارع التغييرات التي عصفت بحياة عمي اسمعين وأسرته بعد نكسة حزيران، أن البيارة ومن فيها صاروا في مرمى النيران الإسرائيلية التي لم تميّز بين مواقع الفدائيين والجيش، وعندما نشبت معركة الكرامة حوّلت البيارة وما حولها إلى ساحة معركة ضارية، لم يشهد لها الغور مثيلا من قبل، وذلك بين المتحاربين. كانت قريبةً جدا إلى حد الالتحام بالسّلاح الأبيض**"[1].

يصوّر الكاتب دفاع الشعبين (الأردني والفلسطيني) عن المكان وتحويل ثغور الأراضي الأردنية إلى ساحة حرب ضد المحتل، إذ سطّرا صفحات مشرقة في التاريخ، إثر وقوع معركة الكرامة عام 68 الّتي التحم فيها الشعبان، لتظلّ رسالة المقاومة هي الرّد الأقوى على أعدائهم جميعا، وتحوّل قتال الصهاينة خارج الأراضي الفلسطينية من مواقع الفدائيين والإسرائيليين، فتشهد بيارة اسمعين أبي حلة تلك المواجهة الضارية، التي كشفت عن بسالة الشعبين عبر استخدامهم السلاح الأبيض! مما يدلّ على شدّة المواجهة بينهما ومدى تأجّج المشاعر الغاضبة في صدورهم ضدّ المحتلّ الّذي شرّدهم من بلادهم وأرضهم.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن ذلك الحدث العظيم لم يثنِ اسمعين عن رحيله عن المكان وترك بيارته التعويضية، رغم أن بعض المحتالين حاول بث الذّعر في نفسه بعد أن حصل "**اشتباك قرب النهر بين مجموعة فدائية وبين دورية إسرائيلية أثناء الاجتياح الإسرائيلي لمدينة بيروت، حيث أخبروه بوجود قرارات حكومية وشيكة لإجلاء المزارع القريبة من النهر، حفاظا على أمن الحدود مع الإسرائيليين، ثم أرسلوا له من أبدى استعداده لشراء البيارة وتجنيبه مخاطر القرارات الحكومية**" [2].

---

[1] ناجي، جمال، 59.

[2] نفسه، 40.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم يكفِ الصّهاينة ما حصل إثر النكسة، بل قاموا باجتياح بيروت عام 82 وكان لقتل الفلسطينيين النّصيب الأكبر، ومع ذلك لم تتوقف المجموعات الفدائية عن المقاومة ولم تكلّ من المواجهة مع الاحتلال بل أخذت تقارعه حتى على الحدود وفي الثغور، واستغلّ بعض المنتفعين هذه الأحداث وبدؤوا ينكؤون جراح المنفيّ الذي حاول استعادة الحياة واستبدالها بأرضه في العباسية، حيث قاموا بنشر الإشاعات وإخبار اسمعين بضرورة بيع أراضيه قرب النهر، مستغلين زعما سياسيا مفاده أن الحكومة ستقوم بإخلاء تلك الأراضي حفاظا على أمن (إسرائيل) التي تخشى من محاولة التسلل إلى فلسطين، ولا عجب في قراراهم هذا؛ لأن سياسية الصهاينة تسعى إلى جعل البلاد والأنهار والمحيطات بل وحتى البشر هم ضمن ملكيتها!

ونرى صورةً سياسيةً أخرى في رواية (نهر يستحم في البحيرة) تزيد من أزمة العائد النفسية؛ إذ تطلّ علينا بالقرب من بحيرة طبرية العذبة، قرية عربية تسمى: "المشهد" [(1)]، وهي المكان الذي حقق المسلمون على أرضه منذ قديم الزمان الانتصارات مدافعين عن أرضهم، مانعين أيّ عدو من الاقتراب منها، يقول الكاتب واصفا تاريخ القرية المجيد:

"**انظر هناك فوق التلة قرية عربية، اسمها المشهد.. أتدري لماذا أطلقوا عليها هذا الاسم؟.. لأنّ صلاح الدين الأيوبي ألقى من ذلك المكان نظرة على ساحة المعركة.. معركة حطين.. لقد ألقى نظرةً على المشهد كله، ولذلك بنوا في ذلك المكان قرية وأطلقوا عليها اسم المشهد**" [(2)] .

[(1)] "الحضور وما يشاهد، ومعناها أيضا: المجتمع من الناس وهي هنا بهذه المعنى، والجمع مشاهد وهذه القرية تبتعد عن الناصرة ثلاثة أميال باتجاه الشمال الشرقي، مساحتها 54دونم، ويرجح أن خربة الزراع للجنوب الغربي من قرية المشهد تقوم على البقعة التي كانت تقوم عليها مدينة (جت حافر) بعنى معصرة البئر أو الحفرة الكنعانية، وذكر أن النبي يونس ولد في هذه القرية الكنعانية، وعرفت في العهد الروماني باسمGethofer، والمعروف في الزلزلة التي حدثت في عام1837م لم يبق في المشهد بيت قائم". الدباغ، مصطفى، **بلادنا فلسطين**، ج8، 99-100.

[(2)] يخلف، يحيى، 135.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد اجتمعت الأمكنة المقدسة بقراها العربية المناضلة الطّاهرة قرب بحيرة طبرية، وكأنّها جنة الأرض، أو كأنّها الحرم الآمن والحصن المنيع، الذي بورك حوله، فقرية سمخ- قرية السارد- الجمال والحضارة والأصالة وقرية (المشهد) البطولات والنصر الذي تم على يد صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين. واللافت أن أهلها هم الذين أطلقوا عليها اسم المشهد ابتهاجا ببشائر النصر.

والأرجح أن السارد ساق تلك الجمل الدلالية، نوعاً من التفريغ النفسي والرّجوع إلى الماضي المجيد؛ إذ يستحضر انتصارات العرب المسلمين على أعدائهم واستبسالهم في الدّفاع عنها، عاكسا مفارقات عديدة بين الماضي والحاضر وبين العزّ والذّلّ وبين الذّكريات والواقع وبين المكان واللامكان.

وبذلك تزدان قيمة نهر الأردن السّياسية والتّاريخيّة بما يحمله من دلالة التّحدي والأصالة والتاريخ المضيء.

وتظهر رؤية السارد تجاه اتفاقية أوسلو في رواية (غريب النهر) برؤى جديدة وذلك حين يعلن اسمعين عن غضبه من رفض الاحتلال دفن جثة أخيه في قريته العباسية، وفشل السلطة الفلسطينية والأردنية في تنفيذ طلبه، يقول السارد:

"واعتبر اتفاقية أوسلو مجرد حبر على ورق، وخدمة للإسرائيليين ما دامت السلطة لا تملك القدرة على السماح لمن تشاء بزيارة مناطقها. ولقد انتابته موجة من التبرم والندم على قبوله فكرة التصريح من أساسها، وتذكّر بفخر مشاركته في معركة الكرامة أيام صباه، وتمنى لو تسمح الظروف لتعود أيام الثورة والعمليات الفدائية عبر نهر الأردن" [1].

[1] ناجي، جمال، 181.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويعلن ألا حلّ إلا بالمقاومة والعودة إلى الكفاح المسلح والنّضال، وبدلا من أن يكون نهر الأردن نهر عبوره إلى الضفة الأخرى، تمنى أن يتحول نهر الأردن إلى ساحة حرب ضارية يشنها الفدائيون من خلال ضفافه على الكيان المحتلّ، وبذلك تتحول دلالة النهر في رؤى اسمعين من المكان الصامت الذليل إلى المكان المناضل المدافع، فيكسوه بذلك دلالة القوة والعزة عوضا عن دلالة العجز والذل. وذلك يظهر من خلال قول الكاتب على لسان اسمعين: "**أعلن عمي اسمعين بثقة حينما أعلنت اتفاقية أوسلو: إنهم يضيعون البلاد**"[1].

وهذا الإعلان ليس غريبا على رجل قاوم الاحتلال وشارك في معركة الكرامة، وفهم لغة الاحتلال التي لا تعرف معنى السلام، بل لغة الرصاص والقتل.

والجدير بالذكر؛ أن الأحداث الروائية في الرواية السابقة تذكر أنّ الأعداء سمحوا للفلسطينيين الأحياء بالمرور عبر التصاريح، بينما منعوا جثة مواطن فلسطيني يحمل الجنسية التركية من الدفن في قريته العباسية، وقد غيّب الموت عن عين مصطفى هول ما رآه أهله الأحياء من تغيّر جذريّ في قرية العباسية، بينما مات وعيونه تحلم بالعودة لقريته، وكأنه يراها ويحسّ بها!

وبذلك تجتمع مفارقات عجيبة في المتن الحكائي، صنعتها الأيدلوجية الصّهيونية، ونبيّن ذلك من خلال الرّسم الآتي:

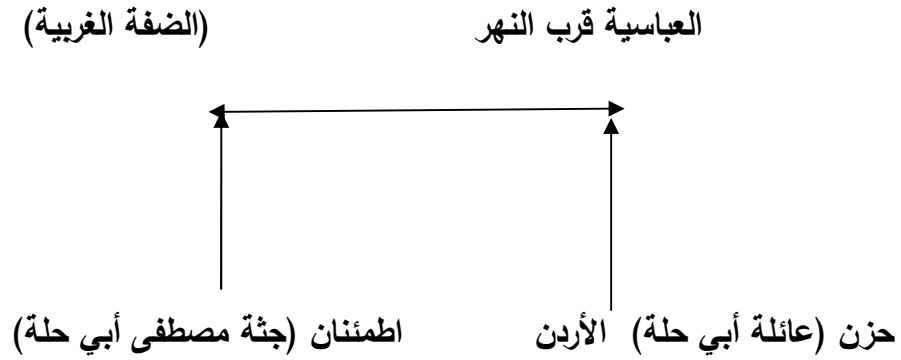

[1] ناجي، جمال، 181.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هكذا يموت الإنسان مع حلمه باطمئنان بينما يشقى الأحياء من واقع مظلم لا يطاق!

والجدير بالذكر؛ أن الاحتلال قد تذرع بهذا المنع، يقول السارد على لسانهم:

"إنّ ما توقفت عنده الخارجية الإسرائيلية التي بيّنت في رفضها كل الوساطات، أنّ الأمر ليس مجرد دفن ميت تركيّ أو غير تركيّ، بل هو موضوع يتعلّق بدولة إسرائيل وسيادتها على ما فوق الأرض وما تحتها". ولقد فسّر مستشار الوزارة القانوني قبول الخارجية الإسرائيلية بدفن مصطفى حلة أوغلو في أراضي قرية العباسية التي دمرت بمثابة تجديد للمطالب الفلسطينية بحق العودة وأن ذلك سيعني اعترافا بوجود حقّ للميّت ولورثته وكل أهالي قريته في تلك الأراضي، كما أن قبول دفنه في أي بقعة من الأراضي التي أعيدت للسلطة الفلسطينية يعني اعترافا إسرائيليا بحقّ مواطن (سواء اعتبرناه تركيا أو فلسطينيا في البقاء داخل أراضي السلطة من دون أن تنطبق عليه شروط المواطنة في مناطقها، وفي مثل هذه الحالة لا فرق بين الأحياء والأموات، لأنّ الحياة والموت ليسا هما الموضوع، إنّما ارتباط الفلسطيني بتلك الحقوق في إسرائيل أو في المناطق التي تسلّمتها السّلطة بموجب اتفاقية أوسلو... "ماذا لو أوصى كل الفلسطينيين في العالم أن يدفنوا في إسرائيل أو في أراضي السّلطة الفلسطينيّة..."[1].

يبرزُ النّصّ السّابق مدى تمسّك الصّهاينة بالأراضي المغتصبة، وكأن ما على ظهر الأرض وما في بطنها ملك لهم ولسيادتهم، وهم يسعون إلى استبعاد حقّ العودة للاجئين الفلسطينيين، ويبدو ذعرهم الشديد من مطالبة الفلسطينيين بحقّ الدفن في أراضيهم، أو للأراضي التي سلمّتها للسلطة بموجب أوسلو؛ لأن ذلك يزعزع أمنهم! وهذا يعكس بند عار آخر من بنود هذه الاتفاقية التي ضيعت حق اللاجئين الفلسطينيين، والذي وقعت عليه السلطة الفلسطينية وأقرّته.

---

[1] ناجي، جمال، **غريب النهر**، 189-199.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهنا تبرز جدلية الموت والحياة في مفارقة واضحة، فيتحوّل الوطن إلى حياة، والغربة إلى موت، وترفض إسرائيل دفن الفلسطيني في فلسطين وكأنّها صاحبة الحقّ في القبول والرّفض.

ثانيا: المنظور النفسي للنهر:

إنّ ما يميّز العلاقة بين الشّخوص والأمكنة والأزمنة، أنّهم جميعا يتحركون داخل الذات، فالشخوص يقدمون أنفسهم من خلال هذه الحركة، ويتعاملون مع الأشياء والأحداث والمكان بمقاييس انفعالاتهم النفسية كما تتوارد إلى الذهن في اللحظات ذاتها، والتي يعبّرون عنها باللغة[1].

ولقد مثّل نهر الأردن في الذاكرة الجمعية الفلسطينية المكان الحميميّ الدافئ الذي يلجأ إليه أهل الضفتين، يجود عليهم بالخير والبركة والعطاء، حتى جاء المحتلّ الصّهيونيّ وسيطر على المياه وسرقها، وباعد بينه وبين أهلها، وبعد أن كان نهراً عذباً، صار نهر العذاب والخوف والقلق، وبات عبوره ممزوجا بقصص المعاناة، التي تستوطن حكايتها ضلوع الفلسطيني المنكسرة، وإذا ما أنعمنا النظر عند عبورنا جسر اللنبي، فإننا لا نرى سوى سيل ماء فقير، لا يحسبه الظمآن ماء، أو بالأصح نرى نهرا بلا ماء! فيكتسب نهر الأردن بعدا نفسيا سلبيا لدى الفلسطيني، إذ "إنّ المكان النفسي مكان يأخذ اكتماله من مشاعر الشخصية وحالتها النفسية ليتحول إلى مكان جديد، إنه المكان المصور من خلجات النفس وتجلياتها وما يحيط بها من أحداث ووقائع"[2]. وقد عاصر الفلسطينيّ أحداثا صعبة في حياته ربطته ربطا وثيقا بالنهر، فبات الشاهد الأكبر على عصره وقصته.

---

[1] ينظر، عاصي، جاسم، **أنساق المعنى، قراءات في سرديات عزت الغزاوي**، 14.

[2] يحيى، سعدية، **دلالة المكان في رواية عابر سرير لأحلام مستغانمي**، 14، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008 م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقسم المنظور النفسي إلى قسمين:

1- فجيعة الفلسطيني بين النكبة والنكسة والتشريد:

إن الفجيعة الفعلية التي تعرض لها الشعب الفلسطيني هي النكبة عام 1948م، التي هجرت الأهالي من بلادهم وألحقت بهم الذل والمعاناة، ثم تبعتها النكسة عام 1967م، التي قضت على بقية المدن الفلسطينية فتغلغل الاحتلال في بلادنا وتمركز وعاث فيها فسادا ودمارا، وقد برزت تلك الأحداث في الأدب الفلسطيني بشكل كبير، وبرزت أيضا في الأعمال السردية التي طالتها دراستنا، فقد برزت العاطفة الحزينة الباكية في رواية (النهر بقمصان الشتاء) بعد خروج الفلسطينيين من قرية الشماصنة واحتلالها من قبل الاحتلال الإسرائيليّ عام 48، ورؤيتهم لبلادهم من خلف الحدود وراء النهر، يقول السارد واصفا تهجيرهم:

"**في الليل... لم يكن من رفيق لهم في رحلتهم المعتمة سوى حفيف القصب، الذي أحاط بالنّهر.. حفيف راح يتعالى ويشتدّ كلما اقتربوا من جسر بنات يعقوب.. وحين تخطّوا الجسر، وأصبحوا في الطّرف الشّرقيّ.. صار الحفيف أنينا لقصب يبكي، في ليل طويل حزين، بشرا أحبّهم وأحبّوه!**" [(1)].

تتجاوز عاطفة الفلسطيني الأليمة عند الرحيل إلى مشاركة القصب أنينهم، ذلك القصب الذي أحاط بالنهر، كان هو الشّاهد على عبورهم ودموعهم، وكأنّ الطّبيعة بأشجارها وحفيفها استهجنت خروجهم وبكت معهم. وتستوقفنا جملة (حفيفٌ راح يتعالى ويشتدّ كلما اقتربوا من جسر بنات يعقوب) فيبدو أنّ القصب أدرك حقيقة تهجيرهم وبعدهم عن ديارهم، وأدرك أنّه خروج بلا عودة، وأنّ ذلك الخروج هو العذاب الأبديّ للعيش في بلاد الغربة، وأصبح حفيف القصب أنينا في ليل لا

[(1)] حميد، حسن، 253 -254.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يظهر نهاره، حتّى ألفوه وصار جزءا منهم، فصار بشرا يحسّ ويتوجع لأوجاعهم. ويسترسل الكاتب في وصف حالهم بكلمات شجية، يقول:

"**أرواحٌ حائرة تائهة تحطّ في محيط البلاد، لا شيء يصدر عنها سوى البكاء والتأسّي.. ولا شيء يفصل بين المكان الذي نحن فيه الآن وأرضنا سوى النهر....**

تبدو الشماصنة بيوتها واضحة، والطّريق إليها واضحة، لعلها تنتظر إيابنا الذي طال ! هدّني الحزن وأنا أرى الأرض" [1].

وتعلو أصوات النّحيب والعويل بعد الخروج من الوطن في مشهد مؤثّر، كأنّه خروج الرّوح من الجسد، فلا شيء يفصلهم عن العودة إلى الدّيار سوى النّهر، الذي وقف رائيا على ظلم الاحتلال وجوره، عاصر خروجهم وشتاتهم، لكن هناك أمل في العودة إلى البلاد، نستشفها من قول السّارد: "إنّ الطّريق إلى الشماصنة واضحة"، يرونها بأعينهم، تنتظر عودتهم، ومازالت تلك الديار تناديهم، لكنها لا ترجع إلا بالصدى.

ومما ضاعف مأساة السارد/ الفلسطيني رؤيته لأرضه المغتصبة من بعيد، وقد هدّه الحزن والقهر، بينما يظهر نهر الأردن بصورة المكبّل الذي لا يستطيع فعل شيء لهم سوى أنه مكان مفصلي بين الوطن والمنفى.

ونمثّل على صورة الألم النفسي الذي حل بأهل الشماصنة عند خروجهم بالرسم الآتي:

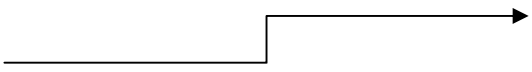

الشتات نهر الأردن مشاعر الحزن عند الخروج

[1] حميد، حسن، 255.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعند حديثنا عن النّكسة وتشريد الشّعب، نرى أصداء تلك الغربة النفسية في قصة (عراة على ضفة النهر)، التي كُتبت في عام النكسة، إذ يصف فيها السارد/ الفلسطيني المهجّر حكايته بعد اجتيازه النهر، بقوله:

"**سرتْ في جسدي قشعريرة، نسيت أنني عار على ضفة النهر..**

-من أنا..؟ كان شعري مختلطا بالتّراب، ثم وضعت كفي على وجهي، وأخذت أتحسس الوجه، الجبين الحاجبين، العينين، الشفتين.

-من أنا؟ أنا ثلاثة. ثلاثة؟ لا! بل اثنان. اثنان؟ بل واحد.. لا بل صفر

صفر؟؟ نعم صفر؟ أنا لا أريدكم أن تعرفوا الحقيقة، اضربوا رؤوسكم بالقنابل إذا لم يعجبكم؟عمري ثلاثون، عشتها على آمال.. وجسدي ممزوج بعصير البرتقال والليمون وزيت الزيتون ثم امتزج بزيت الكازوز"[1].

تظهر الصّدمة والفاجعة المأساويّة من خلال النّسق السّابق بعد قذف السّارد/الفلسطينيّ إلى الضّفة الأخرى والخروج من الدّيار، وتعلو خيبات الأمل حتى تتغلغل لتصل إلى العقل، فتذهب المصيبة بالإدراك العقلي، لتعكس أثر التهميش الذي طبع على جبينه، ويظهر السارد/المغترب مشتتا بعد أن صار عارياً (دلالة على الذلّ والانكسار) على ضفة النهر الشرقية، وليس عريه لأجل السباحة في مياه النهر العذبة، لا بل لأنه عارٍ من كل شيء، من وطن ومن حلم وبيت وعائلة، من خيرات العودة!

ويرتفع صوت التّوتر النّفسي في صدى السّارد، ويزداد حيرةً وتساؤلا عن واقع أليم لا يعرف مداه، ثمّ يتحدّث عن (العري) مواسيا نفسه، فيقول:

---

[1] أبو أصبع، صالح، 67.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-"ماذا تشاهدون

منظرك شائه

-بالطبع العري شيء قبيح

-لكن آدم خُلق عريانا؟

لم يكن مفردا... أتمتمُ.... الإفراد كالسجن والعري؟ وأتساءل....

كالموت أجيب: لم يقتلوني... لم يفعلوا شيئا سوى أن ضربوني ثم عرّوني.... وهم يراقبونني.. مات!!"[1].

وتظهر السّخرية السّوداء في النّصّ السّابق، إذ يحاول السارد/الفلسطيني المهجّر تقبّل واقعه العاري من الكرامة والتأقلم معه مواساةً لنفسه، وهذا يظهر من خلال قوله عن آدم الذي خُلق عريانا، لكنه رغم عريه وخروجه من الجنة لم يكن (مفردا)، بل كان معه زوجه، أما هو فقد خرج من جنته (فلسطين) بلا أهل، ولا أمل! ولقد لعب نهر الأردن دورا مهما، وذلك بإظهاره عري المطرودين من بلادهم، وحمل دلالة واقع جديد مأساوي على ضفة النهر الشرقية التي فصلته عن بلاده! ويمكننا تمثيل ذلك من خلال الرسم الآتي:

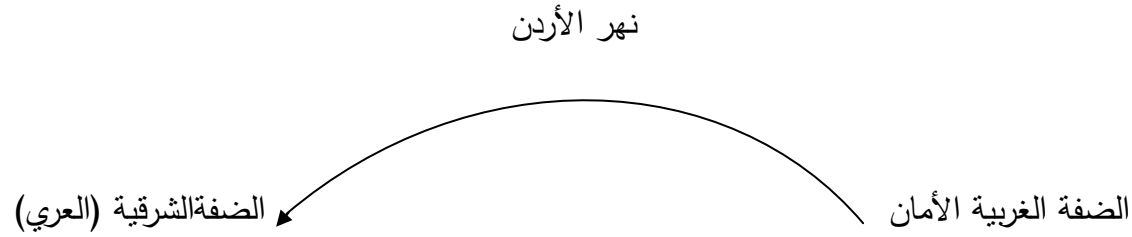

ويواصل السّارد استنزاف مشاعر الغربة بكلمات مليئة بالأنين: "**غربتنا لا شيء، هكذا تعلمنا... أتشعرون بالغربة؟ كل البلاد بلادكم.. نحن أخوة.. لا.. أنتم كاذبون...**

---

[1] أبو أصبع، صالح، **عراة على ضفة النهر من المجموعة القصصية قصص بلون الحب**، 67- 68.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البصاق في وجوهنا، يقول: نحن بعنا أرضنا.. بعنا أرضنا؟ من قال؟؟ يقولون هذا عنكم.. إذن خذوا ذهبكم.... نحن أجانب شكرا لكم... نحن أجانب، بعنا أرضنا.. شكرا لكم" [1].

انعكست آثار القضية الفلسطينية في المجتمع الأردني وفي أدبه، وظهرت تلك المأساة في القصص الذي رأى في النكبة والنكسة حدثا يخصّه ويؤلمه سواءً بسواء[2]، إلا أنّ الفلسطينيّ ظلّ يعاني قسوة التّهجير الّتي سرت في عظامه، بالإضافة إلى اتهامه ببيع وطنه، ولقد عكس السّارد بشفافية واقع الفلسطينيّ في البلاد العربيّة المجاورة وعدم تقبّل الآخر له، وإن أبدى التّعاطف معه حينا، فهو لا يلبث إلا أن يشهر سلاح الاتهام والذّلّ في وجهه.

ويعود بصيص من الأمل في نفس الصّديقين (السّارد، وشوقي) عند عبور النّهر نحو الضّفة الغربيّة، ويرجعان لرؤية الأهل والبلاد بعد أن أصبح للنهر معنى آخر وطعم آخر، يقول: "**تخطّينا حدود النهر.. كانت عيوننا إصرارا، وظلّ صديقي يتمتم: سأرى أمي... يا لها من لحظات سعيدة، لكنّ الموت هنا سهل. ألم تسمعوا عن الصيف؟ هنا البطيخ ينضج، بطيخ جنين أحمر مثل الجمرة.... اكسروا البطيخ... كلوه.. كسروه، فما ذاقوا حلاوته، وجدوه أكثر حمرة من أي بطيخ، ولكنّ طعمه علقم، بطيخ جنين غريب في صيف غريب، حتى الموت صار هنا موتا صيفيا.. أقولها بسهولة، إنّه مات!** [3].

تظهر دلالة السّعادة والتّفاؤل عند الاقتراب من حدود الوطن وبعد تخطّي حدود النّهر إلى الضّفة الغربيّة، يبين ذلك من خلال قوله: (تخطينا خدود النهر كانت عيوننا إصرارا... يا لها من لحظات سعيدة) لكنّ السعادة لم تطل، فقد قتل شوقي أمام عينه بعد عبورهما النهر ووصولهما إلى

---

[1] أبو أصبع، صالح، **عراة على ضفة النهر من المجوعة القصصية قصص بلون الحب**، 68.

[2] ينظر، عبيد الله، محمد، **فلسطين في القصة القصيرة الأردنية من النكبة إلى الانتفاضة**، 13.

[3] أبو أصبع، صالح، **عراة على ضفة النهرمن المجموعة القصصية قصص بلون الحب**، 69.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الضفة الغربية، ويموت معه حلمه البسيط، ألا وهو شوقه لأكل بطيخ جنين مع أسرته... ! أيّ حلم بات أبسط من هذا الحلم الذي تمناه الفلسطيني الغريب؟!

لقد نحر الاحتلالُ آمال الفلسطيني فور دخوله الوطن، وارتبطت النكسة الحزيرانية المشئومة بأطلال أمل، ظلّت تراود خيال الفلسطيني وتغريه بالعودة الصيفية لبلاده ولرؤية الأهل، والتلذذ بخيراته الصّيفية الناضجة، وهذا يعكس مدى ارتباط الفلسطينيّ بالمكان وبخيراته، لكن (الأرض المتمثلة في البطيخ) اتخذت طابعا آخر في هذا الصيف، فهي تعطي بطيخا لا حلاوة فيه. إنّه شديد الحمرة كالجمر، لكنّ طعمه مرّ كالعلقم، ولهذه الجملة دلالتها السّيميائيّة الّتي ترمز إلى الدّمّ والموت؛ لأنّ صديقه عاد ليُقتل –مرة أخرى– لكن هذه المرة على أعتاب وطنه بعد أن قتلته الغربة، فأيّ وطن يحمل على أرضه كل هذه الغربة، وأي غربة تتحمل شوق الوطن وحبه؟!

هكذا ربط الكاتب بين موت شوقي و حزن الأرض على أحد أبنائها المشتاقين لها، والمقتولين على أرضها بدم بارد، وعزّز ذلك بمدلولات الغضب والاحتراق ولون الدم والعلقم والموت. ليضاعف مأساة شعب لم تنته معاناته حتى اليوم.

لقد كان النهر هو الفاصل الوحيد الذي فصلهما عن الضفة الغربية، وهو رمز الأمل والسعادة، وكان مباركا لعودتهما وإن شاهدا بعد تخطيه العذاب على أيدي الصهاينة. إلّا أنه طريق العودة والقدر المختار للموت في الأرض المباركة، فتكسوه حنانا أبديّا بعد عريه في الشّتات. ويمكننا توضيح ذلك من خلال الرّسم الآتي:

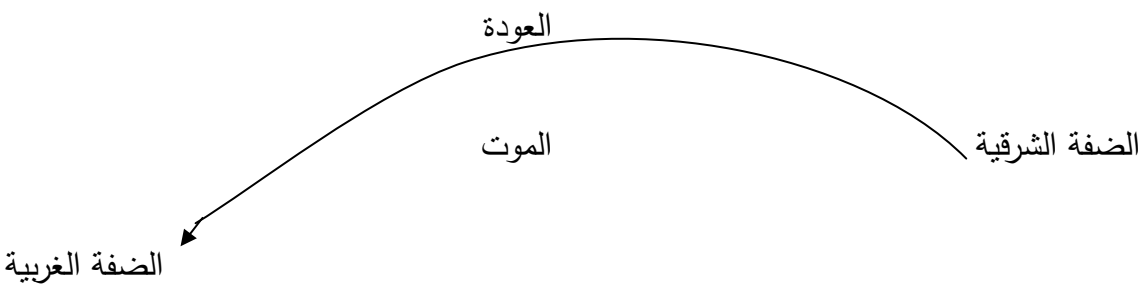

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد تحوّل الموت في الوطن إلى حياة، فكانت حرية الفلسطيني هي نهاية مصيره، إذ قرر اتّباع الحريّة مهما كان طريقها، لأنّ "الإنسان يستطيع أن يعيش من دون حرية في الحركة، لكنّه لا يعيش دون حريّة عقليّة وفكريّة، والمعرفة حرية، وبها يجد الإنسان مصدر أمله في هذا المكان البائس وأكثر المكان بؤسا" [1]. وهذه الرّسالة التي أدركها الفلسطينيّ، وكان نتاجها خيار العودة حتّى لو كلفه ذلك حياته.

ويسيطر الاغتراب النفسي على رواية (الضفة الثالثة لنهر الأردن)، ضفة الفردوس المفقود وذلك عبر تفعيل تقنية الخيال "الذي لا بد منه للإبداع الفني، والذي لا يمكن أن يتغذى إلا من الحرمان من الحياة والواقع"[2]. هذا الواقع المرير الذي حرم الفلسطيني من وطنه ومن أرضه بل وحرمه من حقه في حرية التعبير عن رأيه.

فقد عاش السارد في المنفى الاختياري مع العرب الذين التحقوا بصفوف الثورة (المضيعة أو المزيفة) على حد وصفه لها، وعاد إلى الوطن ورفاقه في الدول العربية لم يعودوا، وذلك يكشف عن أن الواقع العربي المعبأ والمثقل بكل أشكال القهر والظلم والاستبداد، أشد قسوة من ذل النفي، وإرهاب الاحتلال. بل هي تعبير آخر عن الهزيمة في كل شيء، هزيمة في النفس وفي المكان، وفي الزمان لرواية تخطت زمنكانها بعبقرية فذة، وبصيرة رائية نافذة [3] .

2-الخوف من عبور النهر:

على الرغم من أن النهر كان بؤرة خير وعطاء للفلسطيني، حاميا له وهو بين دفقاته، إلا أنه تمثل بالصّورة المخيفة والهاجس المفزع في نفسيّة بعض الشّخصيات الفلسطينيّة الروائيّة، ففي رواية

---

[1] إبراهيم، عبد الستار، **الإنسان وعلم النفس**، 192.

[2] الدروبي، سامي، **علم النفس والأدب**، 231.

[3] ينظر، الخليلي، علي، "**الضفة الثالثة لنهر الأرض** " **لحسين البرغوثي البحث عن الحرية**، جريدة الأيام، الخميس /4/ أيار/ 2006م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(النهر الغريق) تتشكّل عقدة (مصلح) الفدائيّ في الخوف الذي يتملكه عند عبور نهر الأردن، ويتخذ قلقه من العبور علامة فارقة في الرواية، ويرجع خوف مصلح – رغم شجاعته– من عبور النهر إلى قصة حصلت معه عندما كان في أوّل دوريّة له لعبور النهر مع مجموعته الفدائية، يقول السارد: "**يومها استشهد مصلح، حقيقة مات.. غرق وجرفه التيار أكثر من خمسين مترا. لقد بكيت وأنا على الضفة الأخرى، ولو لم يكن عيسى العوام معنا. لو تأخرت عملية إنقاذه لمات حتما، من يومها تكونت لديه عقدة من النهر.... وفي كل مرة كان يعبر النّهر بعد عرس طويل من الصّراخات والاستغاثات، إنه من أشجع المقاتلين، ولكنه يفقد السّيطرة على أعصابه أمام النّهر**"[1].

ولعلنا نتساءل: ما الذي يجعل رجلا تشكلت لديه عقدة الخوف من عبور النهر ومع ذلك يصرّ على عبور النهر مرات ومرات، وبعد الحادثة النفسية الأليمة التي زرعت في نفسه كل هذا الخوف من النهر؟

إنها إرادة الفلسطيني المقاوم، ومشاعر التحدي التي تسيطر عليه فقد كان يتغلّب على نقطة ضعفه ويوهنها؛ لأنّ وراءه هدف أسمى، ألا وهو مقارعة الاحتلال.

وتظهر روحه البطولية الشجاعة عندما يحاول (مصلح) تجاوز عقدته والتّغلب عليها بقوله: "**سأل نفسه مرة، أيها أقسى الموت بالرّصاص أم الموت بالماء؟ كان الموت بعبعا رهيبا يستعدّ مصلح أن يصارعَه الدهر كي يصل إلى لحظة الموت بالرصاص، هكذا تحصّن مصلح، وأصبح بعبر النهر مرة تلو الأخرى، وأنامله تمتد لتكتب سطور التاريخ على صفحات فلسطين**" [2].

---

[1] أبو صخر، نزار، 63.

[2] **نفسه**، 12.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويظل يواسي نفسه ويبعث في نفسه الأمل، إذ يقول: "**إنك ستعبر نهر الأردن الشريعة، نفس النهر الذي عبرته عشرات المرات، إنه نهر الأردن وليس نهر الأمازون**"[1]. لقد قاوم عقدته وخوفه بالمواجهة والتحدي، يقول السارد واصفا تصرفه:

"**كان يعرف أنه في كل مرة سيصرخ، وفي كل مرة سيطلب النجدة، وفي كل مرة سيفرغ وفي كل مرة سيصل إلى الضفة الأخرى، ما كان وحيدا حتى يستسلم للماء وللتيار أو للخوف والتراجع**"[2]، لكنّه اختار طريق الشّجاعة والعبور وكان معه أصدقاؤه الأوفياء الذين يحملون أرواحهم على راحاتهم، لتنفيذ غاياتهم البطوليّة، ويستمر في إحياء الأمل في نفسه، فيقول السارد عنه:

"**النهر يغطي أوسع المساحات في خياله، النّهر الحد الفاصل بين الحلم وبين الحقيقة... يقتحم جدار الأمل الذي يتحصّن به مصلح**" [3].

إنّ عداوة مصلح للمكان النّهريّ تغلغلت في نفسه، لتنتقل به من عالم الحقيقة إلى عالم الخيال في تفكيره، بل اتسعت دلالته لتشكّل نقطة تقاطع بين محوريّ الحقيقة والحلم و الأمل واليأس، لقد كان مصلح يحاول جاهدا التسلّح بالإصرار، وأن ينزع الخوف من قلبه أثناء عبوره النّهر، وكان يأمل أن يعينه النّهر على أداء مهمته تجاه المحتلّ لكنّه– في نظره– كان أول عقبة مركزيّة تسبّب له الخوف والقلق.

ورغم كل هذا التوجّس من النّهر، إلا أنّ ذلك لم يقعد الفدائيين عن مقاومة الاحتلال، وهذا يعكس نفسية الإباء والبسالة التي يتمتع بها المقاوم الفدائي، الذي يذلل الصّعاب لأجل الدّفاع عن

---

[1] أبو صخر، نزار، **النهر الغريق**، 13.

[2] نفسه، الصفحة نفسها.

[3] **نفسه**، 11.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أرضه، ويتحدّى الخوف من عدوه، يقول السّارد على لسان مصلح: "**إن العدوّ الصّهيونيّ لا يخشى إلا الفدائيين، ونحن شياطين، لا تقف على الحواجز الطّبيعيّة ولا الصّناعيّة حائلا دون أهدافنا، حتى النّهر رغم سفالته، أنا قطعته وسبحته أحسن منك يا....** " [1] .

إنّ المقاومَ يدرك أهمية الأعمال النّضاليّة الّتي تزرع الخوف في نفوس الأعداء، وإن كان عبوره صعبا وقاسيا، إلا أنّه لا يقف حائلا دون إرادتهم، حتى الحواجز الصّناعيّة الّتي صنعها المحتلّ لن تحيدهم عن أهدافهم البطوليّة.

وتظهر صورةٌ أخرى مشابهة في رواية (على ضفاف النهر) حيث يتجلّى النّهر بصورة العملاق الغامض والخصم العنيد، مجهول الهوية، يتحدّى الآخر ويلاحقه لينال منه، وذلك يظهر من وصف (السّارد – البطل) عبوره نهر الأردن، يقول: "**كان النّهر في ذهني صورةً مختلفةً.. تخيّلته كالوادي يمكن التناور معه: التقدّم! التراجع!..... سلّم نفسك للعدوّ على أن تغامر بعبور النهر** " [2].

تشكّل المكان النّهريّ لدى السّارد بصورة المكان المعادي، فالفدائيّ بين صراعين: اجتياز النهر وملاقاة العدوّ، وبذلك يتحول النّهر إلى بؤرة صراع جدليّ بينه وبين الإنسان، وبالتّالي مع الكون، فيستحضر الإنسان مفاهيم متوارثة في المنظور الشّعبيّ، الّتي علقت بالذّاكرة الجمعيّة [3]، عن إيقاع النّهر بأمهر السّباحين، وهذا ما أراب البطل وأقلقه، إذ نصحه الكثيرون بعدم عبوره لصعوبة اجتيازه، لكن روح التّحدي والمقاومة تأبى إلا أن تتغلب على الخوف وتعبر النهر، حتى لا يظفر به

---

[1] أبو صخر، نزار، **النهر الغريق**، 35.

[2] منصور، أبو علاء، 248– 249.

[3] ينظر، عاصي، جاسم، **دلالة النهر في النص**، 89.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأعداء بحكم السجن المؤبد، يقول السارد "**أضحى عبوره خياري للنجاة من حكم المؤبّد الذي ينتظرني، لا مفرّ من المجابهة**"[1].

وبرزت صورة النّهر عنده بثنائية ضديّة: الإنقاذ والقتل وهو بين أمرين أحلاهما مرٌّ، وإن كان يرى النّهر بصورة سلبيّة تعاديه وتنتظر الانتقام منه، فهو أشد عداءً من المحتلّ؛ لأنّه قد يغرقه من دون الوصول إلى ما يريد، يقول:

"**أضحى عبوره منقذي وقاتلي، ورغم أنّه بدا أكثر عداءً من الاحتلال، فإنّ عزمي لم يتزعزع على خوض المعركة معه**"[2].

ويسترجع ما قاله الغوارني عن نهر الأردن وعن سرعة جريانه التي أطاحت بسباحين مهرة، وأنه اختار توقيتا خاطئا لعبوره، لكنّ التّحدي أنساه تلك الأفكار السّلبيّة، فيقول:

"**لتحديه في عنفوان هيجانه في الربيع! حيث يذوب الثلج في أعالي القمم وينحدر شلالات مجنونة في مجراه، فيتحوّل إلى نهر آخر.... تذكّرت كلّ ذلك ورحت أخوض النّهر، دون أن أفكّر بالموت الكامن في مياهه العكرة!**" [3].

مما سبق، يظهر أنّ للمكان المائيّ النّهريّ فلسفة كاملة، بدأت بالخوف، ثمّ التّأمّل، وأخيرا التّحدي والعبور، إنّ تجربة الإنسان القاسية جعلته يكسر القيود وينطلق نحو الأماكن الخطرة البعيدة ليكتسب بذلك مفاهيم جديدة تخلق منه إنسانا آخر قويا [4].

---

[1] منصور، أبو علاء، **على ضفاف النهر**، 250.

[2] نفسه، 251.

[3] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[4] ينظر، القاسم، نبيه، **الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف، المكان- الزمان- الشخصية**، 91.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويسرد السارد قصة عبوره للنّهر من الأراضي الفلسطينية إلى الأردنية، ويصف تسلل الخوف إلى نفسه جراء اجتيازه، وهو يرى أنّ الغرق مصيره والموت رفيقه، وأدرك (الفدائيّ/ السّارد) أنّ النّهر ينتظر ملاقاته وكأنه عدوّ لدود، يقول بعد أن سقط فجأة في النّهر:

"**فأنا لا أتقن السّباحة، لقد غامرت لأنجو، لا لأنتحر.... وأدركت وأنا أنفض جسمي وسط الماء أنني أشتبك مع النهر، ذاك الذي وإن خشيته فقد استعجلت ملاقاته.... كنت أعلم أني ملاق النّهر لا محالة، أنّ الوقت لن يطول حتى تقع المواجهة**"[1].

إنّ الفدائي الذي اضطر إلى عبور النهر بعد أحداث ال67 "يعقد من خلال النص الروائي حوارا بين أزمنة مختلفة ويكون ذلك شكلا من كتابة التاريخ، إذ إنّ الأدب والتّاريخ يتبادلان المواقع في مرايا متساوية، ورغم هذه المرايا المتساوية التي لا تفصل بين الأدب والتاريخ إلا لتوحدها"[2] وتعيد بناء تجربتها في قالب فني جديد.

ويُلاحظ أنّ الخاصيّة الاسترجاعية للسّرد تكشف لنا عن عدم إمكانية فصل النّفس عن قصتها في السّرد السّيريّ وكاتب السيرة؛ إذ إنّ إعادة صياغة التّجربة في الحاضر تختلف عن تجلياتها السّابقة في الماضي، فالتّجارب السّابقة ذات معنى مختلف، وهذا يدلّ ضمنيّا على انقسام في أنفسنا إلى نفس تفعل وأخرى تتأمل وتصدر الأحكام وتركب[3].

---

[1] منصور، أبو علاء، **على ضفاف النهر**، 250.

[2] كتاني، ياسين، **شعرية الحداثة في الرواية العربية**، 95.

[3] ينظر، مارتن، والاس، **نظريات السرد الحديثة**، 98 –100.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بل قد تكون عديمة المعنى وغير مهمة في الماضي، ولكن إعادة صياغتها في الزمن الحاضر وتأمّلها تجعل الحقائق معتمدة على الزّمان، ويأتي هنا الإبداع المسرود في تغير قيمة الأحداث حين ينظر إليها استرجاعيا[1].

ونكشف عن حالته النفسية المضطربة التي تعكس توجسه من النهر وانتظار غدره، بقوله: "**أما أن أسقط في النهر رغما عني! هذا ما لم أتوقعه. هل استدرجني النهر أم أخذني على غرة؟ أم أنه قدري؟ انزلقت قدماي رغم إرادتي. كثيرا ما تقرر الأقدار مصائرنا لكن لا تلغي أدوارنا**"[2].

ويرى أنه لا بدّ من مجاوزة الخوف، ومن تخطي هذا العبور، حيث إنّ العابرَ للنهر قد أسهم في تطوير الشخصية الإنسانية، وتفرّدها بالبطولة والمغامرة والحرية وعدم التبعية، لأنّ الحياة الخطرة فوق بحر شاسع مضطرب الأمواج والعواصف، جعلت السابح سيّد مصيره، فهو مغامر اعتاد تعريض حياته للخطر، وليس في نفسه ولاء للأرض والمحافظة على نظمها التي تتغير في البذر والحصاد، وإنما ولاؤه للبحر المتغير المتقلب الذي لا يكفّ عن الحركة والذي يستطيع أن يهبط ويعلو، وكل شيء متوقف على البراعة الفردية وعلى العزيمة والقدرة على الحركة والذكاء والحظ [3]، يقول بعد انتصاره عليه:

"**بدأ ينحسر... أخذت تتحول مأساة موت محقّقة إلى قدر أنقذ حياتي ! أنا أتقدّم والماء يتراجع! يااااااااه انتصرت على النهر**"[4].

لقد تبدلت رؤى العابر فبعد أن كان النهر مصدر خوف وقلق، صار مصدر أمان وبعد أن كان منبع الموت، فإذا به الحياة، وهنا تخلق الشجاعة والبطولة، ذلك "إن الناجين من الماء

---

[1] ينظر، مارتن، والاس، **نظريات السرد الحديثة** ، 98 –100.

[2] منصور، أبو علاء، **على ضفاف النهر**، 250.

[3] ينظر، عطية، أحمد محمد، **أدب البحر**، 7.

[4] منصور، أبو علاء، **على ضفاف النهر**، 252.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يصيرون بسهولة كائنات خارقة، فعندما يجتازون المياه يجتازون الموت، وآنئذٍ يستطيعون أن يخلقوا مدنا، وينقذوا شعوبا، ويعيدوا صنع العالم" [1]، وهذا ما صنعه العابر الفدائي.

ونمثّل على حالة التبدل في نفسية السّارد ورؤيته للنهر قبل العبور وبعده من خلال الرّسم الآتي:

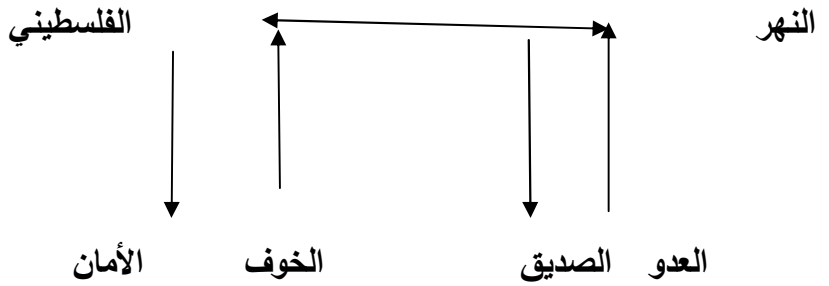

تبرز الثنائية الضّدية في التّمثيل السّابق والتّحوّل العكسيّ للرؤى، فقد تحوّلت صورة النّهر من دلالة الخوف إلى دلالة الأمن، وبعد أن كان عدوا فإذا به يصير صديقا، إذ انحسر النّهر وتلاشى هذا المارد المخيف أمام إرادة الفلسطيني المقاتل، يقول:

"**ببلوغي حافة النهر حطّمت معادلة المنطق النظري، فما يحصل الآن كان وهما قبل لحظات، لا أدري كم استغرقتُ من الوقت في العبور**"[2]، وهذا يدل على قوة إرادته وسهولة العبور، ويستأنف وصفه بقوله:

"**ها أنا أجلس على الحافة الشرقية للنهر مستريحا في علياء روحي، بتوفيق من الله جلت قدرته. هل أنا في حلم؟ أبدا ! إنها الحقيقة الرائعة**" [3].

بات عبور الفدائي النهر أسطورةً وتطهيرا، به ينتقل إلى عالم الفضلاء ويحمل على إثرها وسام البطولة بعد اجتياز الامتحان الصعب؛ إذ "إننا لا نغدو فضلاء، إلا إذا أتيحت لنا فرصة مقاومة

---

[1] باشلار، غاستون، **الماء والأحلام دراسة عن الخيال والمادة**، 114.

[2] منصور، أبو علاء، **على ضفاف النهر**، 253.

[3] **نفسه**، الصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشر؛ لأنّ ما يطهّرنا هو الابتلاء، والابتلاء يكون بما هو مضاد، ومعنى هذا أن الخير يأتي بعد الشر"[1]؛ ولأنّ الإنسان حريص على ضرورة معرفة المبدأ والمنتهى في حياته، فإن ذلك الشعور يؤرّق النفس كل حين، وسواء ركنت النفس إلى القالب الأسطوري تفسر بها حيرتها ومبتغاها أو سارعت إلى إنشاء الاعتقاد الوضعي الخاص استنادا إلى فهم خاص للحياة، فإنّ الاعتقاد واحد بين الطرفين يسلك سبلا مختلفة لغاية واحدة"[2].

ولعلنا هنا نستحضر القصة القرآنية عندما أمر الله تعالى أم موسى أن تلقيه في اليم، حمايةً له من فرعون، "**فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي**"[3]. وصار اليم طريق النجاة والخير والمكان الآمن بعد أن كان طريق الخوف، وكذلك الأمر بالنّسبة لنهر الأردن، فقد صار المكان الآمن بعد أن حمل دلالات المكان المعادي السّلبيّ.

ثالثا: المنظور الاجتماعي:

إنّ أعظم الحضارات في العالم قامت حول المياه، إذ تمركز السكان حولها وأقاموا فيها وأنشأوا حضاراتهم، ولا غرو أن الماء هو عماد الحياة ونبضها، لذا يفضّل الناس أن يتمركزوا حول الأنهار، وذلك لتسهيل أمور حياتهم المعيشية ولراحتهم عند رؤية المياه، وسنعرض صورا اجتماعية تمثلت عند نهر الأردن وحول ضفافه.

- صور من الواقع الحياتي الفلسطيني:

---

[1] سلدن، رمان، **النظرية الأدبية المعاصرة**، 138.

[2] مونسي، حبيب، **فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية**، 110.

[3] **القصص**، 7.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان نهر الأردن نهر النعيم للأهالي، نهر العطاء والخير والخصب يلتفّ حوله النّاس، ويقبلون عليه بالبشر والسعادة، وحول النهر توجد حياة أخرى يتكئ عليها الناس وتساعدهم في شؤون معاشهم، فهو المكان المركزي لهم به يستمدون استمرارهم المعيشيّ.

وللنهر الأردن دلالة أنس في الذاكرة الفلسطينية الجمعية، وقد كان نهرا حانيا رائقا لأهله، يسهّل لهم العبور تارة وأحيانا يكون سبيلا للاستمتاع، نستشفّ ذلك من رواية (عبور النهر)، إذ يقول السارد على لسان أبي عويس:

"**لو كنت شابا... لعبرت النهر، أتذكّر عندما كنا نذهب إلى عرس، أو لمشاهدة فيلم في عمان، ونعود تحت ستر الليل... ذهبت تلك الأيام. ألا ليت الشباب يعود يوما...** "[1].

يتحدث أبو عويس عن عبور النهر تحت ستر الليل بصورة تبدو متجانسة ومتناغمة مع الفلسطينيين العابرين، ونحن نعرف أن خطورة نهر الأردن تكمن في سرعة جريانه ومنحدراته، فكيف إذا كان عبور نهر الأردن ليلا؟ لكنه –رغم ذلك– كان الساتر الحامي الحاني الذي يعينهم على قضاء حوائجهم حبا وإنعاما. ويمكننا إيضاح ذلك عبر رسمنا لحال الفلسطيني الآمن –سابقا– عند عبوره النهر ليلا:

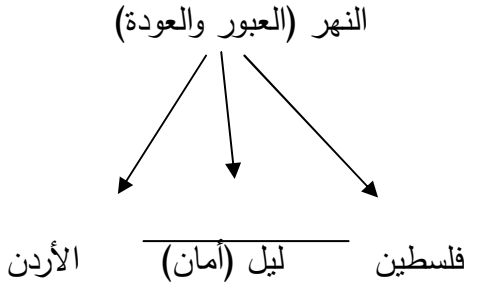

ويكشف العبور الليلي في ظلمة الماء، على انسجام الماء الفلسطيني مع الطين الفلسطيني، فيتحدان معا ويتآلفا كأنهما شخص واحد.

[1] قطامش، أحمد، 22.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويصف السارد في رواية (جسر بنات يعقوب) النهر من الجانب الغربي له بالصورة المشرقة الايجابية، فكان أهل قرية (الشماصنة) يعيشون غرب النهر في قرية وادعة هانئة وقد رحل عنها يعقوب وبناته إلى الضفة الأخرى، ويذكر السارد مشهدا لبنات يعقوب وهن ينظرن إلى بنات تلك القرية اللواتي ينعمن بنعيمها وبجمالها، يقول:

"**وشاهدتا معا الانتشار الكثيف لبنات قرية الشماصنة ونسائها على طول ضفة النهر، وهنّ يقمن بأعمال الغسيل للأواني والثياب والصوف وبسط الخرق الملونة**"[1].

وهذا يكشف عن أهمية الماء لدى الإنسان، فيأتي النهر: "بمثابة حاضن لصراع للإنسان مع الطبيعة كما يبدو ظاهرا، لكنه ما يلبث أن يحقق معبرا للمفاهيم العامة والعلاقة بالكون، فيميل إلى استخدام الموروث الشعبي والمفاهيم الشعبية المتوارثة، وهي مجموعة علائق في الذاكرة الجمعية"[2] فيظهر النهر حانيا منسابا لخدمة الإنسان، ملبيا لاحتياجاته في أعماله.

ويظهر الجسر حدا فاصلا في البنية المكانية بين داخل الشماصنة وخارجها، بين ضفة الطيبين وضفة الطامعين، لكن السارد يأمل في نهاية الرواية بغلبة ضفة الطيبين، وذلك عندما يسرد حكاية إقامة الأهالي للجسر وعودة أهل الشماصنة إلى طبيعتهم، كأن شيئا لم يكن!

ويرسم لنا الكاتب في روايته (النهر بقمصان الشتاء)، صورة اجتماعية جمعية لطيفة تكشف عن عادات الناس في فلسطين وطقوسهم في بعض المواسم، يظهر ذلك عند حديث السّارد عن الطاحونة التي تقع قرب النهر في قرية الشماصنة؛ إذ يصف مجيء الناس إليها بقوله: "**تقع الطاحونة في أخفض منطقة من محيط النهر... وتبدأ عملية الطحن.. تأتي النساء بالحمير**

---

[1] حميد، حسن، 120.

[2] عاصي، جاسم، **دلالة النهر في النص**، 89.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والبغال والكدش، وقد علت ظهورها أكياس البرغل والقمح... ويطحن القمح والبرغل.. كما توجد ثلاث معاصر للزيتون"[1].

يعيش الفلسطينيون قرب النهر حياةً طبيعية هادئة، يذهبون إلى الطاحونة التي كانت مكانا لتجمعهم، التي تقع في أخفض منطقة من النهر، ونرى أن المكان المنخفض يدل على الهدوء والأمان المتمركز قرب الطاحونة، فالنهر حافل بالخيرات والبركات من أوله إلى آخره وهو مسخّر لخدمة الناس حيث يأتون إليها حاملين أكياس القمح والبرغل لطحنها، بالإضافة إلى وجود ثلاث معاصر زيتون قربه، فيحمل الناس أكياس الزيتون الكثيرة لعصره واستخراج الزيت المبارك منه، وبهذا يكتسب نهر الأردن قيمة اقتصادية اجتماعية مهمة لدى الناس آنذاك، وهي صورة آمنة ملونة بالخير والنعمة التي كان يحظى بها الأهالي في ذلك الوقت، حيث يتوافر الطعام من خير بلادهم، ومن فيض أراضيهم، من بركة ما يزرعون.

ويلجأ أهالي قرية (الشماصنة) إلى النهر، للاستمتاع بمياهه الدافئة، ويجلسون على العشب الأخضر، يتسامرون ويغنون، فهو بالنسبة لهم مكان متعة واستجمام وراحة وترفيه، يصف السارد صورة ذلك بقوله: "**وإلى الجوار من مزار الولي الصالح أبو الريش، يوجد منفسح طويل عريض من العشب، منفسح أشبه بحقل واسع يجاور النهر تماما... حيث يستطيع الناس أن يعبروا النهر على أقدامهم، فمياه المخاضة قليلة وأرضها صخرية عالية. كثيرا ما تكون زلقة وخطرة، وعادة لا تغمر المياه المرء إلا إلى منتصفه تقريبا.. مهما اشتدت حدة النهر أو عنفت اندفاعاته المتتالية.... وفي أوقات الصيف وحين يكون القمر بدرا يمتلئ بالنساء، نساء يأتين إليه من القرى. وبين كل واحدة منهن صرة فيها ثوب أبيض، ومشط وملح ونعناع بري وطعام ورمل، وما إن يصلن إلى المنفسح العشبي الذي لا يدخله الأطفال والذكور بتاتا.... حتى تحلّ النساء**

---

[1] حميد، حسن، 159- 160.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جدائلهن، فتراهن جميعا يتعاون على تمشيط رؤوس بعضهن بعضا.. وسط غناء متواصل يدور حول الأولاد، والخصب، والسعادة، والربيع والماشية والحروب والبيوت والبحور والطيور ومواسم الغلال. ثم ينزلن إلى الماء واحدة واحدة متشابكات الأيدي... وهن في غناء منتظم... عندئذ تشرع النساء بغسل صدورهن بالماء والملح... "[1].

ويرسم السارد صورة حركية بصرية جمعية لنساء تلك القرية عند لجوئهنّ إلى النهر الذي بدا كالبيت الآمن يجمعهن ويحضنهن ويؤويهن، صورة تشي بسعادة غامرة تملأ نفوسهن وكأنهنّ في نزهة مائية يمارسن ما يشأن فيها من طقوسهن الشعبية، إنه المكان الأليف الرحيم الذي لجأت إليه النساء للتحرر من ضغط الحياة. والماء مكان تفريغ وراحة وغسل للهموم، وهو حديث الأسرار الذي تبثه النساء هواجسهن وأحلامهن فيسمعهن ويحويهن.

وتظهر هذه المساحة المكانية عند النهر وكأنها دوائر مركزية يمارس فيها الفرد حياته اليومية، لتصبح حيزا جماعيا تنظمه الجماعة يعكس صورة لتناغمها وتماسكها، ثم يأخذ دلالة الحيّز القومي الذي تحارب الدول لحمايته، وتصبح الصفة المشتركة بين البشر جميعا هي دفاع الفرد عن حيزه، وكثيرا ما يمنع الآخرين من الولوج إليه أو التدخّل فيه، فالحيّز أشبه بالفقاعة التي يعيش الفرد بداخلها ويحملها معه أينما ذهب[2]. وهذا يبين من خلال المتن الحكائي في الرواية نفسها إذ تختار النساء الليالي القمرية الصيفية لنزول النهر وتمنع الأطفال والذكور من الدخول إلى حيّزهنّ الخاصّ!

ويُظهر السارد نهر الأردن بمشهد اجتماعي آخر، فقد اعتادت نساء قرية (الشماصنة) اللجوء إليه وإلقاء أسرارهن فيه وهمومهن عليه ورفع الدعاء إلى الله مجتمعات وهنّ بين مياهه النقية، فلكل

---

[1] حميد، حسن، **النهر بقمصان الشتاء**، 99- 100.

[2] ينظر، قاسم، سيزا، **جماليات المكان**، 60.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واحدة منهن قصة تبثها للنهر، فتسيل دموعها وتعلو نداءاتها وبذلك يصبح النهر خزينة أسرار لكل امراة لاذت به، وبعد التفريغ الفعلي والنفسي بين أحضانه تذوب قصتها وهمومها ودموعها مع مياهه، بينما يكتفي النهر بالصّمت وعدم البوح بما سمع أو رأى!

ويروي السارد في الرواية نفسها متابعة (شتيوي) العاشق حبيبته (دندي) مع النساء في ممارسة طقوسهن عند النهر، فيحاول اختلاس النظرات واللقاءات خلف أشجار النهر؛ لينعم بنظرة أو لقاء عابر مع حبيبته (دندي) التي فشلت في إقناع أهلها بفكرة القبول به زوجا بينما لا يكلّ (شتيوي) ولا يملّ من تتبع خطاها وملاحقتها، ويصف السارد ذلك بقوله:

"**شتوي كان يعرف جيدا أنه بحضوره قرب النهر يفسد خلوة النساء، ومع ذلك كان يحضر لعله يحظى برؤية دندي الغارقة في الدعاء إلى الله أن يجمعها به، وأن يجعل له حظوة في عين والدها. يتوارى شتيوي بين أجمات القصب ونباتات الحلفا الطويلة.... يراقب النساء وهن يدخلن إلى النهر بلباسهن الأبيض، ويسمع الأدعية، ويبكي معهن حين يتعالى نحيبهنّ، يبكي وهو يرى دندي تبكي... يراها تدخل إلى النهر، فتصير جزءا منه يسمع بحّة صوتها الذي يناجي الله، فيرنّ اسمه في أذنيه.. فيعي أن دندي تجيء إلى النهر في الليلة المقمرة من أجله هو، لا من أجلها، يسمعها تدعو، فيفتح يديه في مخبئه ويهمهم (يا رب)**"[1].

ويعكس السارد طهرية مطالب النساء وعفافهن حين وصفهن بارتدائهن اللباس الأبيض وهن يدخلن إلى النهر، وكأنهنّ في رحلة حج وقضاء حاجة، ويصف صورة (دندي) ومشاركة النهر لها في قصة حبها العفيف، وكأنه يلتحم مع عذابها وشكواها من خلال قوله (يراها تدخل النهر فتصير جزءا منه) ولم تجد وسيلةً لإقناع أبيها إلا بالدعاء والبكاء والتوسّل إلى الله بأن يجمعها به.

---

[1] حميد، حسن، **النهر بقمصان الشتاء**، 103- 104.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونلمح قدسية النّهر ومكانته الاجتماعية وتفريغ الناس عنده لرغائبهم، ومباركته لهذا الحب العفيف؛ إذ يستمر النهر في الاستماع لآمال الأهالي وآلامهم وما يدور في خبايا نفوسهم، وكأنه المحراب أو المكان المقدس الذي يستجاب فيه الدعاء، وعنده تُظهر النساء مالا يستطعن قوله أو الإفصاح عنه لأسباب غير مقبولة اجتماعيا، أو لأنّ الأعراف الشّعبية وضعتهن تحت المجهر والمراقبة، فمنعتهن من البوح والإفصاح. وقد تصالح النّهر مع هذا الحبّ الّذي سمح لهما ضمنا بالمشاهدة البعيدة والاطمئنان على بعضهما، وكأنّه سمع الدّعاء ورفعه إلى السّماء ليجمعهما بالزّواج.

ويطلعنا السّارد على صورة أخرى من صور الحياة الاجتماعيّة التي كان يحياها الشّعب الفلسطينيّ في الرّواية السّابقة نفسها، ألا وهي الحمام التركي الذي كان بجوار النّهر، ذلك الحمّام الذي كان يأتيه الناس من قرية (الشماصنة) ومن القرى المجاورة، يصفه الكاتب بدّقة، يقول: "**وكان في القرية حمام عتيق، أشبه بالبرلمان فيه تدور الأخبار فتحوم مثل الفراش أو الطيور وفيه تجمّر الأحلام وتنمو الرغائب وتقص الحكايات والتواريخ وتستعاد الذكريات.. هنا في الحمام لا تدور الحكايات والأخبار والقصص فقط، وإنما تدور كاسات الشاي وماء الزهر والزعتر والميرمية.... وفي يوم الاثنين المخصص للنساء، يرى المرء حشود النساء الوافدات كأنهن غابات يتقدمن نحو قلعة الحمام العالية، نساء لهن أشكال وألوان وأحجام وقامات...، وهنا في الحمام تدلّل النساء على بضاعتهنّ، فتقدّم النساء المراهم... والأصباغ.. والكحل.... هنا في الحمام، تنكشف النّساء على النساء.. يبدين جمال الأجساد، لكي يذاع صيتهن في القرى والأمكنة، يجالسن العجائز.. هؤلاء هن شواعر المكان هن من سيحكي عنهن**"[1].

[1] حميد، حسن، **النهر بقمصان الشتاء**، 160 – 161.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نلمح من خلال الوصف السابق نوعا من التفريغ العاطفي والنفسي للنساء، ومحاولة إظهار ما لديهن من جمال أو بضائع، فقد كان الحمام ملتقى لهنّ للتّرويح عن النّفس والتّرفيه والالتقاء والتّعرف على بعضهنّ بهدف الخطبة وغير ذلك، كان مكانا أشبه بمركز تجمّع نسائيّ لكي تقدّم كلّ واحدة منهنّ ما عندها من التباهي والتفاخر.

لكن هذا المكان الدافئ لم يعد ينعم بهذا الدفء، فقد أقدم الاحتلال على حرقه والنساء بداخله، عبر تخطيط فئرانيّ صهيونيّ مدروس للتنغيص على أهل القرية حياتهم وسعادتهم. يصف الكاتب ما حصل في الحمّام:

"**في يوم الاثنين، وعند الضّحى تماما... طار الحمام ! تخلّعت أبوابه، وتحطّمت جدرانه وساحت مياهه، وشبت النيران فيه فاحترقت النساء والأغطية والمناشف والثياب وخلطات الأعشاب... وعلا البكاء والصياح.... الانكليز الذين جاؤوا إلى المكان ليحققوا بما حدث، قالوا: إن العبوات والألغام التي دمرت الحمام هي من النوع ذاته التي دمرت به بيوت قرية العباسية..... حين عرف (الحديدي) هذا جلس على حجر قبالة الحمّام وراح ينظر إلى كبينه اليهود ويهز رأسه ويتمتم: ما الذي فعلته لهم ليؤذوني؟! وما الذي فعلته النساء لكي يجعلوا أولادهنّ أيتاما؟!**

وقال لمن حوله: لو جاءت اليهوديات إلى الحمام، لما منع واحدة منهنّ من الدّخول، لكن الآن وقد دمر اليهود الحمام وقتلوا النّساء وحرقوهنّ، فهو لن يسمح لليهوديات بدخول الحمام ما دام حيا..... كان يردد: سأبنيه ولو ألف مرة ولن أسمح لهم بالدخول إليه" [1] .

لقد تغيرت حياة الآمنين الفلسطينيين في لحظات، وتحوّلت المياه الحارّة إلى حميم وعذاب وحرق، إذ قدّمت الهمجية اليهودية بالتعاون مع الإنجليز لهم نارا وحرقا في يوم لم يكن في الحمّام إلا النساء اللواتي يحملن معهن قصصهن وهمومهن، فلم يكن معهنّ رشاشا أو قنبلةً، ولعلنا

[1] حميد، حسن، **النهر بقمصان الشتاء**، 163- 164.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نتساءل: لمَ أقدموا على تفجيره في هذا اليوم بالذات اليوم المخصص للنساء، لقد كان هدفهم موت النساء واجتثاث الإنجاب بقتلهنّ، وإبقاء أطفالهنّ يتامى، مما يضاعف العذاب والويلات على الأهالي، ولم يعبأ الرّجل المسنّ (الحديديّ) صاحب الحمّام بحرق حمامه، بينما بكى لموت النّساء ويتم الأطفال.

ويطلق كلماتٍ على لسانه تنمّ عن مدى إنسانية شعبنا الفلسطيني الذي يحترم المرأة ويخاف عليها، هذا المواطن البسيط الذي فُرض عليه الاحتلال وأراد العيش بسلام، ولم يكن يمانع من دخول اليهوديات إلى الحمّام بل أبدى تعايشه مع الآخر، لكنّ الآخر المحتل هو من رفض العيش بسلام، ويقرر (الحديديّ) أنّه بعد هذه الجريمة الوحشية، لن يُدخلَ أيّة يهوديّة الحمّام حتّى لو أعاد إصلاحه[1] .

بهذه الكلمات الغاضبة فرّغ (الحديديّ) قهره، وهذا أضعف الإيمان، جاءت كلماته كأبسط نوع من أنواع المقاومة يطلقه رجل كهل مثله، يحاول دحض الاحتلال بطريقته التي لم يملك غيرها كوسيلة للدفاع عن أرضه وأهله.

رابعا: المنظور الديني للنهر بين الرؤية اليهودية والفلسطينية:

لا تخلو الأعمال السردية السابقة من أبعاد دينية تشكلّت أحداثها حول نهر الأردن، التي ظهرت بشكل أو بآخر في المتن السردي، ولا غرو في ذلك، إذ إنّ نهر الأردن –كما ذكرنا سابقا– هو نهر الشريعة، وهو نهر غسيل الذنوب وهو النهر الذي عُمّد فيه سيدنا المسيح عليه السّلام.

ويبرز المنظور الدينيّ في روايتي (جسر بنات يعقوب) و(النهر بقمصان الشتاء)، إذ يرسم السارد صورتين دينيتين متقابلتين: الأولى: صورة اليهودي في الرواية الأولى، وصورة الفلسطيني

[1] ينظر، حميد، حسن، **النهر بقمصان الشتاء**، 164.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في الرواية الثانية، فقد عمد السارد في (جسر بنات يعقوب) منذ البداية الحديث عن الدير والراهبات، وأوهم القارئ " بأنه ينشر أخبار يعقوب التي وجدها في مخطوطات أجدادهن، لكنه لم يوغل مباشرة نحو تاريخ يعقوب وبناته، وإنّما طرح مجموعة مقدمات تتصل بحياته الدينية، وحياة المنطقة الدينية من خلال بيان بعض حياة المسيحيين وانتشار الأديرة والرهبان قرب النهر، ولكي يتمكن من توسيع دائرة انتشاره في فضاءات المكان، إذ إن اختيار الأديرة والرهبان جاء لغرض التعبير عن انعزالية الإنسان واغترابه مكانيا وداخليا، أي طرح صورة الإنسان الذي يعتزل الدنيا ويتمسك بالآخرة بعد أيام من الخطايا والآثام وارتكاب المعاصي. وقد بدت فكرة الصراع بين المدنس والمقدس واضحة، ولكن شابها بعض التداخل، إذ لم نجد ما هو مقدّس يبقى مقدسا على الدوام، لأنّ نزعة الاتصال بين الأجساد ظلت قويّة ومؤثرة، وإن تعذّر الاتصال كفعل عملي، فهو كامن في الأعماق، وإن قدرة الإنسان على كسر حاجز الاتصال قائمة في النوايا. من هنا أصبح الدير كمكان له ملامحه الخاصة مجرّد لعبة لولوج المراحل التالية في الرواية"[1] .

ويظهر المنظور الديني – التوراتي في رواية (جسر بنات يعقوب) بشكل لافت، عاكسا مدى تمسّك الشّخصيّة اليهوديّة بالمكان وزعمها أنه ملك لها، ولها الحقّ في السيادة والسيطرة عليه، ونلحظ هذا من عنوان الرواية، فقد عنون الكاتب روايته بهذا الاسم لما للاسم من دلالة دينية "إذ إنّ يعقوب من أكثر الأنبياء الذين تناولهم كتاب العهد القديم بالإحاطة والشمول، وقد انعكس الاهتمام به باعتباره الأب المباشر لأبناء إسرائيل جميعا الاثني عشر"[2]. ولم يختر السارد عنوانه اعتباطا، بل ليعكس سلوك بعض الشخوص اليهودية وعقليتها وأيدلوجيتها.

---

[1] الجنابي، قيس، **البناء الروائي والنزوع التوراتي في رواية جسر بنات يعقوب**، جريدة الاتحاد، 005، http://www. alitthad. com/paper. php?name=News&file=article&sid=71890

[2] **التراث الإسرائيلي**، 421.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويذكر السارد في بداية الرواية عن تمركز يعقوب حول النهر ورحيله عن قرية (الشماصنة)، حيث يخرج ورقات صفراء من صدره تنبئه عن مساره في الحياة مكتوب فيها: "**يصادفك في حياتك صخور وأشواك ودروب ملتوية، وتمضي بلا أخ أو أب لكنّ الرّبّ سيساعدك..... وحين تضيق بك الجهات، هُزّ الحبل الذي يربطك بالرّبّ، يستجيب لك، فيمسح دمعك وجرحك...** "[1].

يكشف لنا النّصّ السّابق مدى تأثّر يعقوب /اليهوديّ بالعقيدة التّوراتية، حيث إن تكوينة اليهود الفطريّة ترى نفسها مظلومة ومضطهدة من قبل الناس الذين تراهم يحقدون عليهم أو يحاربونهم؛ بل يعتقدون أن الله سيكون معهم بعد كل ما وجدوه من عذاب على يد البشر، وسيستجيب لهم دعاءهم ويضمّد جراحهم، وكأنّ (يعقوب /اليهودي) يبرر كل أعمالهم، بل حتى مسكنه قرب النهر وبنائه للجسر هي فكرة طيبة مباركة من عند الله.

ويرى يعقوب بضرورة تطهير المكان الذي حلّ به بالدّمّ الطّاهر حتّى يبارك الله لهم حلولهم ومقامهم، فيقول: "**لا مناص لي من تقديم دم طاهر لمباركة مكاننا الجديد هذا، وبغير الدم لن يبارك الرب مقامنا**" [2].

يلحظ من خلال الكلمات السابقة أن يعقوب يريد تقديم (دم طاهر) لمباركة (مكاننا الجديد هذا) إذ عدّ يعقوب هذا المكان مدنسا بقوله: (مكاننا) ونسبه إليهم من خلال استخدام ضمير (النا) الدالة على الفاعلين، وهذا يكشف عن شهوة التملك التي تسيطر على نفسية اليهودي وعقليته، ويذكر أنه بغير (الدم) وتقديم الأضحية، فلن يكون المكان طاهرا مقدسا.

وتظهر دناءة نفس يعقوب وحقارة طباعه، عندما يقترح أن يقدّم إحدى بناته أضحية للمكان! يقول السارد:

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 86-87.

[2] نفسه، 92.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

–سيضّحي: "بواحدة منكن" [1] **"وأنه سيقدم للجسر وللنهر معا أطيب ما لديه من دم، وذلك قبل أن تشرق شمس الغد لكي يبارك الربّ قدومه ومقامه"** [2].

ويبدو التبرير ساذجا بإيهامه الآخرين ببركة قدومه وبقربه من الله، وأنه الرجل المبارك الذي يستعدّ لفعل أي شيء مقابل مباركة الله مقامه.

لكن هذه الخديعة ما تلبث إلا أن تكشف زيفها وذلك بعد إعلانه عن تقديمه حماره أضحيةً للمكان، يقول السارد:

"سيذبح الحمار، ويقدمه أضحية للرب، ليبارك المكان قبل شروق الشمس..... رجونه ألا يذبح الحمار الذي ساعدهم كثيرا على قضاء شؤونهم وحاجاتهم.. ما ذنب الحمار ليذبحه..؟ وهل دم الحمار طاهر ومبارك؟" [3].

وتستنكر البنات فعلته المشينة من تقديم الحمار أضحيةً للرب، ويتساءلن: إذا كان دم الحمار طاهرا ومباركا؟ وهذا يكشف عن غرور واضح في اعتقاده أن أفعاله صحيحة وطيّبة، حتى لو قدّم حمارا أضحيةً للمكان! ونتساءل: لماذا لم يقدّم شاةً أو خروفا أو غير ذلك أضحية للمكان؟ ونرى في ذلك التصرف حماقة واستهتارا بمن حوله واستخفافا بعقول الناس.

وتستغرب البنات فعلته بعد أن قام بتقطيع جسد الحمار ونشره حول الجسر، لمباركة المكان، فيصف الكاتب فعلته على لسان بناته، إذ يقول السارد:

"لماذا ينشط في توزيع جسد الحمار قطعة قطعة على حدود البيت، وحول الجسر، وكأنه يصنع بها سياجا؟"[1].

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 93.

[2] **نفسه**، 95.

[3] نفسه، 111.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذا يدل على قناعته بأهميّة تطهير المكان، وما حوله تثبيتاً لدعائم وجوده. ونتساءل: ما الذي يخشاه يعقوب ليجعل لحم الحمار الميّت مقطّعا كأنه سياج حول البيت والنهر؟ أوليس هذا يكشف عن خوفه، وشعوره أنه منبوذ في المكان، فهوه يعلم في قرارة نفسه أنه يحمل معه الدناءة أينما حلّ.

وتتآزر الشخصيات اليهودية في الرواية في إعانة بعضها بعضا على الباطل، وإن أظهرت بعض الحق، وذلك يبين من خلال تردد امرأة عجوز على يعقوب، تلومه على فعلته وتستنكر تضحيته بحمار، فتقول له:

" **أتجعل من الحمار أضحية يا يعقوب.....؟**

- **لقد قبل أضحيتي الرب يا سيدتي**
- **فتقول له:**

"**الأضحية هي الأضحية يا يعقوب، والرب يمهلك أياما أخرى، وعليك الآن أن تغمر دم الحمار بالزيت المبارك لا بالتراب**"[2] .

ويستجيب يعقوب لكلامها، فيصف الكاتب فعلته بقوله: "**وقرب بقعة الدم، خلع نعليه، ودار حول المكان دورات عدة، وهو يتمتم ساهما مغمض العينين، ثم دلق الزيت فوق الدم.... وهو يرجو ويتوسل: باركني يا رب، باركني**" [3].

وهذا يكشف عن معتقدات اليهود التي ترى بضرورة تطهير المكان، وإقامة المذبح حتى يرضى عنهم الرب، فمن عقيدتهم أنهم "يقيمون المذبح في مكانه؛ لأنه عليه رعب من شعوب الأرض،

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 113.

[2] **نفسه**، 142- 143.

[3] **نفسه**، 149- 150.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأصعدوا عليه محرقات للرب، محرقات الصباح والمساء"[1]، وهذا شكّل لديهم اعتقادا بأنهم لهم الحقّ في السّيطرة على المكان / الأرض، ماداموا يقدمون الأضحيات والرب يبارك حلولهم المكان!

ثم يدّعي يعقوب أنّ الله قبل أضحيته ومقامه، ويظهر ذلك من خلال قوله: "**لقد قبل الرب أضحيتي وباركني وبارك مقامي**" [2].

كلمات تكشف عن غروره؛ إذ إن اليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار– كما تقول توراتهم– الذي لا يمكن أن يتساوى مع الأغيار، والفلسطينيون أغيار، لذلك يريد اليهود تأسيس دولة دينية يهودية خالصة[3].

وتبدو الشخصيات اليهودية في البناء الحكائي متآزرةً تشدّ بعضها بعضا، لأجل تحقيق مصالح مشتركة، معتقدةً أن عونهم يأتي من السماء، ففي الرواية نفسها تظهر من بين المشاهد في الخطاب السردي المرأة العجوز التي تحمل لهم رسائل ربانية توراتية من الله، لتصحح لهم مسارهم وترشدهم إلى ما لا يعلمون.

ويظهر ذلك من خلال إخبار سليمان ليعقوب أن المرأة العجوز جاءته في المنام وقالت له: "**ساعد يعقوب الذي سيأتي إليك بعد قليل، أعطه ما يريد من الحجارة، وإلا ذهبت عافيتك وانهدم المقلع على من فيه**"[4].

وفي الوقت الذي يدّعي فيه اليهود تمسكهم بدين الله، تبرز مفارقة تحمل خللا فكريا ونفسيا ودينيا، ويظهر ذلك من خلال الصورة الأخرى في الرواية نفسها، التي تُظهر المفارقة في إقامة

---

[1] **الكتاب المقدس أي كتب العهد القديم والجديد، الإصحاح الثالث –عزرا**، 262.

[2] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 114.

[3] أبراش، إبراهيم، **البعد الديني للقضية الفلسطينية، فلسطين أولا**، 7- 4- 2008 .www. palnation. ://org/vb/showthread. php?t=184

[4] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 284.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(رحمون) اليهودي صلوات طويلة قرب النهر، شاكراً ربه على ما وهبه من لقاء غراميّ مع الجميلات (بنات يعقوب)، يقول السارد واصفا (رحمون) الذي كان يصلي قرب النهر، بقوله:

" **وركع تحت شجرة التوت فوق مشرف العشب الطري، وصلى صلاة طويلة للرب الذي أعاد إليه غزالة.... فجأة وحين توارت الأختان عنه كان لا يزال ماضيا في صلاته الطويلة، ولم ينته من صلاته إلا عندما رأى المخلوق الأنثوي الجميل، عاد إليه بزيّ آخر، وجمال آخر، وبهيئة أخرى، فقام من صلاته وأخذ أنثاه بين ذراعيه وتقدم بها نحو النهر**"[1].

تتناوب بنات يعقوب اللقاء مع (رحمون) قرب النهر، ويصف السارد ذلك بصورة تجمع تناقضا، حيث إنه يلجأ إلى صلاته ويلتقي بإحداهن فتذهب، فيعود للصلاة ويلتقي بأخرى، ثمّ تأتيه الثالثة، فيترك صلاته ويكمل معها غوايته في المكان المقدس (النهر) ليدنسه بأفعاله. وبذلك يتحوّل المكان الطاهر (النهر) إلى مكان مدنّس وإلى ممارسة الخطيئة، وما كان النهر كذلك إلا بعد أن حطّ قرب وبناته رحالهم حول ضفافه.

ويمكننا إيضاح ذلك من خلال الشكل الآتي:

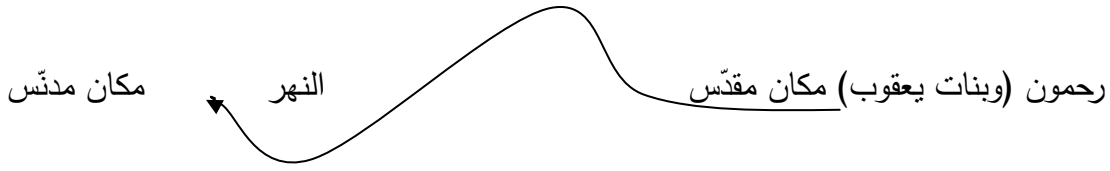

وإذا كنّا سلّمنا بزعمهم في مباركة المكان بقدومهم وأنه مطلب رباني، فكيف يمارس شخص مقدس مبارك الخطيئة قرب النهر الطاهر وبعد ذلك يصلي؟

هكذا بدت صورة اليهودي عند النهر في رواية (جسر بنات يعقوب) بقذارتها وسلبيتها، وتهكمها على المبادئ والشرائع الدينية.

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 132- 133.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في المقابل، اكتسب نهر الأردن دلالات دينية إسلامية عبر وجود قبور للصحابة ومقامات الأولياء والشخصيات الإسلامية المشهورة التي تناثرت حوله، فقد وقعت على الجانب الغربي منه معركة حطين عام 1187م، كما توجد مياه معدنية ساخنة وهي وقف إسلامي، وفوق الحمامات مقام السيدة سكينة بنت الحسين، وعلى ضفته الشرقية يربض مقام أبي عبيدة عامر بن الجراح، وعند ملتقى جبال إربد بوادي العرب، يرقد مقام الصحابي الجليل معاذ بن جبل، ومن ثم يخرج نهر الأردن من البحيرة فيلتقي بنهر اليرموك الذي وقعت عنده معركة خالدة هي معركة اليرموك عام 636 م[1].

يصف الكاتب في رواية (النهر بقمصان الشتاء) مشهدا دينيّا آخر يمارسه الفلسطيني عند نهر الأردن، حيث يتمثل النهر لدى الفلسطيني بالمكان الأليف والمريح له، وذلك عند احتشاد الناس عند مزار أبي الريش وهو أحد الصّالحين، ويقع هذا المزار قرب نهر الأردن، فيصف تجمّع الأهالي قربه وممارسة طقوسهم الخاصة، بقوله: "**في مزار (أبو الريش)، لا يسمع المرء سوى الأدعية والبكاء والأحاديث الحزينة وضجّة الناس... فالأهالي يأتون إلى المزار في يومي الجمعة والاثنين، يحتشد الناس أصحاب النذور والحاجات كما يحتشد المساكين والمجانين، والغرباء، ومعهم تأتي الكلاب والقطط، وهنا يأكل الجميع ويشربون ويأخذون جزءا من الهبات التي يوزعها الناس عليهم... يمرون بالقطعان قرب المزار طالبين من الولي الصالح (أبو الريش) أن يحميها من الوحوش والضياع والغرق والمرض الأصفر... تمر قطعان الماشية بالمزار يومي الاثنين والجمعة، طلبا لبركات أبو الريش وحين تموت دابة أو تغرق.. يتناسل أهالي القرية الأحاديث...**

[1] ينظر، سليمان، وليد، **نهر الأردن المقدس والخالد**، جريدة الرأي، الجمعة، 30-12-2012م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فيقولون إن الدابة لم تمر بالمزار، أو إنّ الرّاعي لم يدع أو إن الولي كان يقرأ بالقرآن الكريم منقطعا عن الدنيا وأشغالها" [1].

إن نهر الأردن كأيّ مكان عادي، اكتسب دلالةً دينيةً "بفعل تراكم الطقوس والأحداث التي تقوم بها الشخصية"[2]، واتخذت بعض الطقوس الدينية عند بعض الناس البسطاء طابعا خرافيّا كما ظهر في النّصّ السّابق في وصف فعل الأهالي قرب مزار أبي الريش، حيث أخذوا يدعون ويبكون يتوسّلون إلى الله بالأولياء الصالحين، يأتون إلى قبورهم طالبين أو راجين أو داعين، وتنسج الأساطير الغريبة حول ما يحصل للناس أو لدوابهم ويبدؤون بنسج القصص الخيالية إذا حصل لأي منهم مكروه أو سوء.

ورغم تلك القناعات والتصرفات اللاعقلانية، فإننا نلمح حياةً هادئةً آمنةً كانت تجمّع الناس آنذاك حول النهر، قبل دخول الاحتلال للبلاد، وقبل احتلال الهموم والأحزان لحياتهم الهانئة.

ويعرض الكاتب ملمحا آخر دينيا ممزوجا بصورة اجتماعية تعكس عادات النساء وطقوسهن آنذاك على ضفاف النهر، فيقول:

"وتجتمع النساء حول النهر، وكل واحدة منهن تمتم وتدعو الله أن يمنّ عليها بالولد السعد، وحين تستيقظ المواجع والهموم... يبكين تسمع النهنهات... فيخرجن واحدة واحدة، وينتشرن مترادفات وراء بعضهن بضعا على ضفة النهر.. فيصرن سياجا أبيض للنهر المندفع في العتمة

---

[1] حميد، حسن، 97- 98.

[2] يحيى، سعدية، **دلالة المكان في رواية عابر سرير لأحلام مستغانمي**، 23، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفضية، يمشين حافيات وشعرهن المبلول وأيديهن المرفوعة إلى السماء وشفاههن اللاهجة بالدعاء، فقد جئن إلى هنا طلبا للخصب. كي لا يكون شجرا بلا ثمر"[1].

اتخذ النهر طابع المكان المقدس بأفعال نسائية دينية كانت تفعلها على ضفافه، حيث يقمن بالدّعاء والقيام بأعمال معينة عنده من نزول إلى مياهه ثم انتشارهن على ضفافه يدعين ربهم بأن يرزقهنّ بالولد الصالح، وهذا يعكس منظومة اجتماعية متبلورة في حبّ النّساء للمولود الذّكر ودعاء الرب عند النهر، وكأنّ النّهر نهر التّطهير والتّقديس نهر الشّفاعة –إن جاز التعبير– وببركة مياه النّهر سيستجيب الله دعائهنّ!

ويلاحظ وصف تجمع النساء حول النهر بالسياج الذي يحمي النهر، وبالتالي يحميهنّ النهر ويحرس أحلامهنّ، وقد وصف السّياج بلون أبيض وهو لون الطّهارة والصفاء، في وسط عتمة فضيّة، تظهر النهر بصفائه الجميل عند حلول الليل الذي يبرز لمعانه النقي.

ويسترسل السارد في وصف طقوسهن الشعبية الدينية، فيقول:

"في ليالي الخريف... تخرج نساء القرية وصبایاها حالما ينام الصغار... وبين أيديهن أصابع الشمع وأعواد البخور... وقرب ضفة النهر يشعلن أعواد البخور فتتعالى الروائح الزكية.. بعد ذلك تشرع النسوة بإيقاد الشموع وتثبيتها فوق مربعات الخشب الرقيقة، ثم يدفعنها بهدوء نحو صفحة الماء الراكدة، فتمشي الشموع متجاورة مع ماء النهر، بعضها يسند بعضا..... وبينما الشموع تماشي النّهر وترافقه، تجثو النساء قبالة النهر تماما، ويشرعن بالدعاء الطويل وهن

[1] حميد، حسن، **النهر بقمصان الشتاء**، 99– 100.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على قناعة تامة أن الدعاء سيجاب ما دامت الشموع سائرة على صفحة الماء وموقدة لم تنطفئ بعد.."[1].

ويتخذ النّهر بعدا حانيا وآمنا للناس، فرغم ركود مياهه وسكونه، إلا أن الأهالي يحيونه ويضفون عليه بممارساتهم بعدا دينيا، وكأنه مكان العبادة الذي يجمع الناس ويقبلهم بديانتهم كافة، حيث تعلو على صفحته الشموع، ويتخلله الوقار والدعاء والصفاء، وإن كانت أفعالهن لا عقلانية تحمل معتقدات خاطئة، إذ يجعلن استمرار مرور الشّموع على صفحة النّهر وإيقادها، مرهونا باستجابة الدّعاء مادامت لم تنطفئ!

وهذا يعكس بعض المعتقدات الشعبية والأفكار الخرافية التي تدلّ على بساطة تفكير النّساء وسذاجة أفكارهن آنذاك، ولعل الكاتب أراد أن يمزج بين إيقاد الشّموع والدعاء ليجمع بذلك تلاحم الناس (المسلمين والمسيحيين) وأنهم يعيشون مع بعضهم بعضا متآخين متعاونين، قبل تعكير اليهود صفو أيامهم.

من خلال النصوص السّابقة، نرى صورتين مختلفتين اتخذت أبعادا دينية بنقيضيها المدنّس والمقدّس، وذلك يظهر من خلال الرؤية الدينية لليهودي والفلسطيني لنهر الأردن، حيث يمثل اليهودي دور الخائف المنبوذ الذي يحاول أن يقدم أضحية للنهر والجسر، في المقابل؛ تظهر صورة الفلسطيني اللائذ بالله عند النهر، حيث يدعوه ويتقرب إليه بفطرته معتقدا أن النهر مكان مقدّس يستجاب عنده الدعاء، وهذا يدل على ثبوتية المكان والشعور الآمن تجاه النهر المتلاحم نفسيا ودينيا مع الفلسطيني، بينما ينأى اليهودي عنه وينهى عنه!

---

[1] حميد، حسن، **النهر بقمصان الشتاء**، 102.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثالث: البناء السردي وتقنياته الفنية

- الشخصية والمكان
- الزمان والمكان
- **أنواع الأعمال السردية وبناؤها التقني**
- أولا: الاسترجاع
- ثانيا: المشهد
- ثالثا: الاستباق
- رابعا: تيار الوعي
- الحوار
- خامسا: الحوار الخارجي
- سادسا: الحوار الداخلي
- سابعا: الوصف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشخصية والمكان:

يعكس الأدب العربي القديم والحديث صورةً لمدى تعلّق الإنسان ببلده أو وطنه أو بيته أو مكان نشوئه، والشعر العربي زاخر بالبكاء على الأطلال والحنين إلى الديار.

والإنسان يعيش في جسده ويموت به، ونحن في النهاية ملتصقون بالمكان وهو ملتصق بنا، ومما يجدر الإشارة إليه؛ سرد قصة الأعرابي التي تصف ما ذكرناه؛ إذ "إن أعرابيا رأى ابنا له يختط منزلا بطرف عصاه، فدنا منه وقال: أي بني: إنه قميصك، فإن شئت وسعت، وإن شئت ضيّقت، وبهذا تستشف معنى فلسفة المكان بالنسبة للإنسان؛ إذ لا تقف حدوده عند أعضائه بل تتعداه لشمل المكان بأبعاده ومسمياته[1]، بل إنّه يُشبه هذا الحيّز المكانيّ بالفقاعة التي يعيش الفرد داخلها، ويحملها أينما ذهب.

من خلال ما سبق، نوجّه الضوء–في دراستنا– على الشخصية وعلاقتها بالمكان الروائي. وتُعرف الشخصية على أنها سلوك يقوم به الفرد في تكامل وظيفي ضمن منظومات اجتماعية مختلفة كالمدرسة والعائلة والمكان الذي يعمل فيه والذي يخلق منه شخصا مؤثرا ومميزا فتتشكل بذلك شخصية الفرد بخليط من التصرفات والعادات والأهداف تنم عن مدى فهم الإنسان لنفسه ولواقعه وتقييمه له[2].

والشخصية ركن أساسي من أركان الرواية، وهي التي تصنع الأحداث وتصعدها وتؤثر فيها، وبدونها يفقد الزمان والمكان دورهما وفاعليتهما، فلا دور لهما خارج وعي الإنسان، والكاتب

---

[1] ينظر، مونسي، حبيب، **فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية**، 17.

[2] ينظر، أبو الشباب، واصف، **صورة الفلسطيني في القصة الفلسطينية المعاصرة 1948–1973**، 23.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القصصيّ يستنبط شخصياته ويستنطقها مستعينا بتجارب عاشها أو لاحظها، تكشف للقارئ طبائعها وحالتها النفسية وسلوكها وواقعها[1].

وقد تدور أحداث الرواية في مكان ما مغلق كالبيت أو مفتوح كالبحر، فيصف الكاتب البيئة الطبيعة بتفصيلاتها وبتفاعلها مع الأشخاص. ويعكس أثر البيئة الطبيعية على البيئة المعنوية بتطور الأحداث عبر رسمه للحركة التفاعلية للأشخاص التي تضفي بسلوكها وتصوراتها النفسية ظلالا في الحدث السردي.

أضف إلى ذلك، تعدد فضاءات الرواية باختلاف أماكن الرواية، فإنّ الشّخصية تأخذ طابعا جديدا فعليا إذا لجأت إلى الحلم أو التذكر أو الاستشراف، وهذا يخلق فضاء عاما يدور في عجلة الشخصية المرتبطة بالأحداث والزمن[2].

يحصل هذا مع الشخصية الواقعية التي تحمل معها المكان وذكرياته في أحلامها وخيالها، بل تطاردنا الأماكن في أحلامنا، خاصة أماكن الطفولة، وقد نقف أمام بعض الأمكنة، مسترجعين ذكريات أحبابنا الذين عاشوا في هذا المكان، فينتابنا شعور شجيٌّ محزنٌ، يحمل فلسفة الحياة الغريبة بثنائيتها المؤلمة، فالإنسان يفنى والمكان يبقى. وقد يسرد القاص عددا كبيرا من أسماء الشخوص، بل إن الرواية كلها تقوم على شخوص عدة قد يستحضر القارئ بها المدلول الضمني والغائب لمنظور السارد، الذي لا يستدعي أسماء الشخصيات اعتباطا، بل قد يسهم الاسم في تحديد مدلولاتها وخاصية عملها الحكائي وربما تكون نقطة مرجعية للأحداث التاريخية[3]، بل ويستقي السارد من خلال البنية المعرفية والأسطورية والشعبية منظوماته الفكرية والوجدانية.

---

[1] ينظر، أيوب، محمد، **الرواية الفلسطينية في الضفة وقطاع غزة 1967 . 1993**، 25.

[2] ينظر، زيتوني، لطيف، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 129.

[3] ينظر، وردة، معلم، **الشخصية في السميائية السردية**، 52، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، الملتقى الوطني الرابع، السيمياء والنص الأدبي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والجدير بالذكر؛ أن الشخصية في الروايات التقليدية كان لها حضور مركزي، حتى إن بعض أسماء الروايات سميت بأسماء شخصيات أساسية فيها، مثل رواية سارة للعقاد، ورواية زينب لهيكل، وغير ذلك. وكان التساؤل هنا: هل يكتب الروائي أدبا أم تاريخا؟ وإذا كتب أدبا فكيف سيكون موقفه من التاريخ؟ ويُلاحظ سيطرة الشخصية المرتبطة بهيمنة النزعة التاريخية والاجتماعية من وجهة، وهيمنة الأيدلوجية السياسية من وجهة أخرى، فكان الروائيون يركزون على الشخصية ويهوّلون من شأنها حتى صارت هي المسيطرة على الزمان والمكان وصيرورة الأحداث [1].

وبدأت مركزية الشخصية في الرواية الحديثة تقلّ شيئا فشيئا حتى وجدنا (فرانز كافكا) (franz kafka) يجتزئ في روايته "المحاكمة" بإطلاق مجرد رقم على شخصيته، ويبدو أن السبب يعود إلى مسألة حضارية قبل أن تكون أدبية؛ لأن القارئ يبحث عن الكتابة الأدبية الراقية، فما الشخصية إلا عنصر خيالي، كحال الشخصيات في السينما، كما أنها لا تكون بمعزل عنا وكأنها تعيش في كوكب آخر، فقد عدّ النقاد الفرنسيون الحداثيون أن الشخصية الروائية منفصمة عن قيم المجتمع الذي تنتسب إليه، بل ويرونها كائنا ضائعا لا يمثل إلا نفس كاتبه المخادع لقرائه، لكنّ الأمر حديثا بات مختلفا وأصبحت الشخصية تمثل أحد العناصر السردية الأخرى في الرواية[2]. ونرى أن زمن تلميع الشخصيات وتسليط الضوء عليها أمر غير مرغوب فيه، فالشخصية في العمل الروائي تتحرك داخل مكان يلقي عليها بظلاله ويؤثر فيها نفسيا واجتماعيا تتعالق مع الأحداث والزمان والمكان فتختلط جميعا ضمن جمال فني روائي مكتمل.

إن الشخصيات الروائية تأخذ في الحدث الروائي دور الخواص التوليدية، فهي تنأى عن ذاتيتها السببية وتختلط بالحدث والشخصية المركزية وبالمكان باتجاه الدور العام في نضج الحكاية،

---

[1] ينظر، مرتاض، عبد الملك، **في نظرية الرواية**، 78- 80.

[2] ينظر، **نفسه**، الصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهي تتوالى وتتوالد حتى تصل إلى بؤرة الصراع الذي ساهمت فيه الشخصية بنموّها في تصاعد الصراع الذي حقق بدوره نموا في الشّخصية، وبهذا المعنى المتنامي، يكمل أحدهما الآخر بانسجام وتناغم بحيث لا نستطيع التخلي عن أحد منهما، كون الشخصية ملتحمة مع البنية الموضوعية لطبيعة الأحداث[1].

ويلاحظ أن الشخصيات الرئيسية في الأعمال الدراسية تأخذ الدور المحوري في الروايات السيرية والذاتية مثل قصة عراة على ضفة النهر ورواية الضفة الثالثة لنهر الأردن وعلى ضفاف النهر، وتكاد تلحق بهم رواية نهر يستحم في البحيرة، فعلى سبيل المثال تظهر شخصية السارد الغريب المقهور في قصة (عراة على ضفة النهر) بصورة مركزية وتتنامى بمساندة صديقه (شوقي)، وهما الفلسطينيان الغريبان اللذان قررا العودة بعد رحلة الشتات، وهنا يظهر مدى تأثر الشخصيتين بالمكان المحوري الذي دارت أحداثه حول نهر الأردن، وتشكّل أثره السّلبي والمعادي عليهما في جميع الأحوال، إذ كان له الدور الفاعل في توتر الحدث الحكائي، فعلاقة الشخصيتين بالمكان تشكلت في ثلاثة أقطاب مكانية هي: الغربة، والنهر، والوطن، وهالة المكان جميعه حملت دلالة العداوة والقهر حتى في ذاكرة المكان الحلم (فلسطين) والمكان الموصل للحلم (النهر / الحد الفاصل) لم يكونا بأحسن من المنفى الجبري، وبهذا تتعلق الشخصيتان بلا شيء أو بحد ناري يفصل بين النار والنار، ولعلنا نقرأ تلك التأويلات من خلال قول السارد على لسان (شوقي):

"**قال صديقي: آه لو أذوق بطيخ جنين، وحينما سرنا في حقول الغور كنا نشم على بعد رائحة البطيخ المكسور... وكان الغناء ينطلق عفويا من شفتي.... صوتك سماوي يا فيروز.... أيامنا تمرّ غاب نهار آخر، غربتنا زادت نهارا، واقتربت عودتنا نهارا.. متى أراك يا أبي**" [2] .

---

[1] ينظر، أيوب، محمد، **الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة 1967 . 1993**، 27.

[2] أبو أصبع، صالح، 69.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يكشف السّياق السّابق عن أمل محتضر تحاول الشّخصيتان بعثه من الرّماد، وتجيء كلمة (البطيخ المكسور) كمفتاح أوليّ تمهيديّ لما ينتظرهما بعد تخطّي حدود المكان النّهريّ، ولكن ثمة أملا يعلو في قوله (كان الغناء ينطلق عفويا من شفتي) ولكنه ما يلبث إلا أن تأتي زجرة أخرى يعلنها بقوله: (غاب نهار آخر، غربتنا زادت نهارا)، وما زال الأمل بالعودة ورؤية الأهل يقترب فيقول: (متى أراك يا أبي) ولكنه لم ير أباه، وحتى الغناء العفوي الفيروزيّ كان عزفا حزينا ولحنا شجيا من ألحان الغربة التي ألفها الفلسطيني تمرّ على جراحه بشكل اعتياديّ.

وتدور أحداث رواية (الضفة الثالثة لنهر الأردن) حول علاقة الشخصية/ السارد بالمكان المتعدد، إذ يظهر السارد بصورة الضائع الذي يتنقّل في بلاد العالم باحثا عن الضّفة الثالثة لنهر الأردن، يقول السّارد واصفا ترحاله:

"**بين هدير البحر وتحت نجوم الاغتراب وبين جبال الطّفولة المقمرة يستلقي على ظهره أوتوستراد حيفا – تل أبيب، تسللت إليه بين الشجر لعل شاحنة تهربني لرام الله. وقفت وحيدا تحت سرب مصابيح صفراء تبكي فيه بين يدي البحر... (دانا) وداعا هذا حبيبك فوق الرصيف غريبا ووحيدا**" [(1)].

يصف السارد حاله بالغربة والضياع والتشرد على الصعيد الخارجي (المنفى) والداخلي (الوطن) وكلما شعر بالاغتراب استدعى شخصية (دانا) الغائبة الحاضرة بقوة في الحكاية، وهي حبيبته الأجنبية التي أحبها بصدق، إذ كانت الأنيسة والرفيقة والأم التعويضية عن كل ما فقده، واللافت أن السارد في رحلته الدائمة وفي أزمته الواقعية والنفسية لم يستدعِ وطنا أو أما أو أبا أو

[(1)] البرغوثي، حسين، **114**.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أختا أو حتى بلدة بعينها؛ إذ كان يلجأ دوما إلى نداء (دانا) ومخاطبتها، وكأنه يعلن أن الوطن الحقيقي هو الإنسان وليس المكان.

وتظهر شخصية يعقوب بصورة مركزة في رواية جسر بنات يعقوب، وإن حملت الرواية عنوانا ارتبط بالمكان وببناته الثلاث إلا أن شخصيته كانت الأبرز في الرواية، إذ كان لها دور في دفع عجلة الأحداث وتصاعدها، وألقت بظلالها على الشخوص الأخرى والمكان، فداروا جميعا في فلكه وفي مدارات المكان.

وشخصية (يعقوب) في الرواية هي رمز للصهيونية في سيطرتها على الشعب، ولإسرائيل التي استوطنت بالقوة، وشرّدت شعباً أعزل من بلاده ومن مكانه[1]. إذ إنّ "الصّهيونيّ يدّعي أنّ فلسطين ملك له رغم أنّه لا يعرف عنها شيئا، ويعجز عن الإجابة عن سؤال الانتماء إلى الأرض وهو يجهل كل شيء عنها"[2]. وهذا يظهر من خلال سؤال ابنته جوديت: "**وكيف لا تعرف أسماء الأمكنة والنباتات والأشجار يا أبي وهي لنا.....**" **كيف تكون لنا ونحن لا نعرفها**"[3].

من خلال السياق السابق، يظهر الاغتراب المكاني والنفسي لدى الشخوص اليهودية وعدم ارتباطها به، بل عدم معرفتها بالمكان، وسطوتها على مساحة مكانية ليست سواءً مع الفلسطينيين في ملكيتها. "ويعترف يعقوب ضمنا بأن دروب فلسطين تمحو خطاه، وتلفظه بينما تنقش خطا الفلسطيني وآثار حيواناته في جسد الأرض المقدسة"[4]، يقول السارد على لسان (يعقوب):

"**أترى الدرب يا سليمان؟ إنه يمحو خطانا**

---

[1] ينظر: عبدو، باسم، **قراءات البناء الفني في لرواية جسر بنات يعقوب**، ستار تايمز، 23، 8، 2008.

[2] أبو نعسة، سعيد، **الشخصية الصهيونية في روايات حسن حميد –جسر بنات يعقوب–** ملتقى رابطة الواحة الثقافية، 22-5-2006م.

[3] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 138-139.

[4] عبدو، باسم، **قراءات البناء الفني في لرواية جسر بنات يعقوب**، ستار تايمز، 23، 8، 2008.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **هذا أحسن لنا يا يعقوب.**
- **أحسن لماذا؟ وهل نحن لصوص يا سليمان؟**
- **لأن الدرب ليس لنا** [1] ".

يعكس الحوار السابق، مدى رفض المكان للشخصيات اليهودية، وشعورها بالاغتراب والبعد المكاني رغم أنها قربه، وهي تدرك حقيقة أمرها واغتصابها لما ليس لها، وذلك يظهر من خلال قول يعقوب: (وهل نحن لصوص يا سليمان؟) ويظهر الرد من قبل سليمان أن الدرب ليس لهم وهذا يشير إلى أنها شخصيّات عابرة كالكلمات العابرة – على حد قول محمود درويش– وأنها ستخرج يوماً ما من بلادنا.

وظهرت ثلاث شخصيات رئيسية في رواية (نهر يستحم في البحيرة) هي أكرم ومجد والسارد، لكن شخصيتين برزتا على نحو كبير، وهما: شخصية (السّارد) الحقيقية أو الواقعية، ذلك الغريب المهاجم بالحنين لقريته (سمخ)، وشخصية ميتة أحياها أو استحضرها على مسرح الأحداث– إن جاز التعبير– ألا وهي شخصية الجندي الياباني المقاتل المخلص لوطنه،والتي تصاحبه طوال السرد الحكائي، مع ظهور شخصيات أخرة مهمة في تصاعد المتن الحكائي مثل جثة الضابط الإسرائيلي ووجثة (عبد الكريم الحمد) .

والجدير بالذكر أن الشخصية الروائية في النقد الحديث لم تعد هي شخصية البطل الأسطورية الخلاقة "إلا أن أرضية المنجز السّرديّ لا تنطلق إلا بتواجدها، فلا الزّمن زمن إلا بها ومعها ولا الحيز حيز إلا بها حيث هي التي تحويه وتقدره لغاياتها، في حين أن اللغة تكون خدما لها وطوع

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 206.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمرها[1] . "ولا يقتدر أحد من المكونات السردية الأخرى على ما تقتدر عليه الشخصية، فاللغة أو الحدث والحيز لا ينهض إلا بوجود هذه الكائنات الورقية العجيبة الشخصيات[2]. و تلتقي هذه الشّخصيات في تداعيات العودة وفي البحث عن هوية المكان الضائع، فالغريب قريب في مكان لا تربطه به هوية أو خلفية معرفية أو وجدانية، بينما يمكث ابن الوطن (عبد الكريم الحمد) في ثلاجة الغرباء الصّهاينة سنوات طوال، وتظهر القصة بمفارقات ثنائيّة ضديّة مجتمعة، في المقابل ينسج الرّاوي من خلال السّرد الفنيّ قصّة الجندي الياباني الّذي رفض أن يسلّم بهزيمة بلده في الحرب لسنوات حتى فقد عقله، وهي تعكس شخصية الفلسطينيّ الخائب المتمثلة بالسّارد، وهكذا تجتمع الشخصيات في غربة المكان واللامكان.

ويرجح أن شخصية مصطفى أبي حلة في (غريب النهر) هي الشخصية الحقيقية والفعلية، وإن دارت الأحداث في المتن الحكائي حول شخصية العم اسمعين وزوجته وأولاده ، لكن يبدو أن السارد يريد توجيه الأنظار نحو المكان الحالم ضفة النهر الأخرى ،وإحياء حلم المبعدين إليها سواء أكانو أحياءً أو أمواتا .

وهذا ما نلحظه من خلال عنوان الرواية التي تدور حول شخصية هذا الغريب محور الرواية الضمني، الذي يتحوّل إلى مفتاح اللغز الحكائي، ذلك الهرم الذي يبحث عن مكان آمن يحويه ميتا، فلم يجد مكانا دافئا مثل بطن أمه (الوطن) التي طالما تغرّب عنها حيّا، فأوصى أن يعود إليها جنينا كما بدأ.

---

[1] موساوي، أحمد، **المصطلح السردي عند عبد الملك مرتاض (كتاب: في نظرية الرواية أنموذجا)**، 44، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، 2012م.

[2] ينظر، **نفسه**، 44- 45.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونلحظ أن علاقة الشخوص الممثلة في عائلة أبي حلة تقوم على تناقضات عديدة: الداخل والخارج، والوطن والمنفى، والقريب والبعيد، والحلم والواقع، والماء والأرض. ورغم كل هذه المفارقات تبدو علاقتهم بالوطن علاقة انسجام وألفة ومحبة!

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الزمان والمكان:

يرتبط الزمان بالمكان على نحو كبير؛ إذ نتذكر المكان من خلال الزمان ونسترجع أحداث المكان وذكرياته في زمان ووقت معين، وإن كان المكان ثابتا والزمان متحرّكا ومتجددا، إلا أنهما يلتحمان في وجداننا وفي أحداثنا اليومية، ويسكنان ذاكرتنا.

وقد جاء تعريف الزمن في لسان العرب: من الزمن. والزمان: اسم لقليل الوقت وكثيره، وفي المحكم الزمن والزمان العصر، والجمع أزمن وأزمان وأزمنة، وزمن زامن: شديد. وأزمن الشيء: طال عليه الزمان والاسم من ذلك الزمن والزمنة عن ابن الأعرابي: وأزمن بالمكان: أقام به زمانا، وعامله مزامنة وزمانا من الزمن؛ الأخيرة عن اللحياني ؛ وقال شمر: الدهر والزمان واحد" [(1)].

والزمن يتسارع ويتباطأ كالزئبق؛ إذ يصعب الإمساك به، لكننا نشعر بوجوده ونحس بأثره علينا وفي حياتنا، ونحن لا نستطيع إدراكه بحواسنا ولكننا ندركه بعقولنا، ونرى آثاره بأعيننا ولا نلمسه بأيدنا فنلحظه في كل ما يحيط بنا، وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالمكان والحركة، ولولا الحركة لما استطعنا أن ندرك وجود الزمن؛ لأن الزمن تابع للحركة، وهي التي تؤثر في وعي الإنسان وبالتالي في سلوكه[(2)]؛ إذ إن الحركة والزمن يسيران في حياتنا ووعينا بشكل متوازٍ، فعند تعاقب الليل والنهار والفصول الأربعة، ندرك حقيقةً أن الزمن يمضي ويلقي بتغييراته على عمرنا ومعيشتنا.

والعلاقة بين الزمن والمكان علاقة تكاملية يكمل أحدهما الآخر، فقد يقف الإنسان على أطلال بعد سنوات، فيرى أنّ الزّمان قد غيّر ملامحه بفعل الهدم أو التغيير، فيسترجع صورته الماضية

[(1)] ابن منظور، مادة زمن.

[(2)] ينظر، أيوب، محمد، **الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة بين 1973 - 1994**، 75-76.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الماثلة في ذاكرته الّتي لا تصافح حيّزه الوجوديّ الحاليّ، بل وربّما يزول تماما هذا المكان في المستقبل.

والزمن يتأرجح نحو الماضي والمستقبل؛ فهو يلوذ بالماضي لاسترجاع الذاكرة التي تسعفه على تخييل المستقبل وإدراك حالته في الزمن الحالي. وحينما نكون في مكان ما نحبه، تبدأ الذاكرة باسترجاع الماضي وذكرياته، فالمكان ثابت أو ربما تغير قليلا. لكن الزمن يمضى ويتسارع، ونحن نلوذ به باسترجاعنا أحداثا وأشخاصا وذكريات حصلت في هذا المكان.

ويمثّل الزّمن عنصرا من العناصر الأساسية الّتي يقوم عليها البناء الرّوائيّ، "فعليه تترتب عناصر التّشويق والاستمرار وصيرورة الأحداث الرّوائية المتتابعة من منظومة لغوية معينة تعتمد على الترتيب والتتابع والتواتر، والدلالة الزمنية بغية التعبير عن الواقع المعيش وفق الزمن الواقعي أو السيكولوجي"[1]. ومعالجة هذا العنصر تتفاوت من كاتب إلى آخر، ويرجع ذلك إلى تبئير السارد واتجاهه نحو عنصر تقنيّ معين من عناصر الرواية يخدم فكرته وبناءه الحكائي.

"ويمثّل الزمان والمكان الإحداثيات الأساسية التي تحدد الأشياء الفيزيقية، فنستطيع من خلال المكان تأريخ وقوعها في الزمن؛ لذلك قيل متى وأين يستخدمان لتعريف الشيء أو الظاهر من البديهيات. كما أنه لا يمكن أن يشغل المكان والزمان ذاته وفي الوقت ذاته، ولا يمكن أن يحتل جسم واحد مكانين متغايرين في الوقت نفسه، ولكن يمكن القول إن المكان أكثر التصاقا بحياة البشر، حيث إن خبرة الإنسان وإدراكه له يختلفان عن خبرته وإدراكه للزمان، بينما يدرك الإنسان من خلال فعله في الأشياء، فإن المكان يدرك إدراكاً حسيا مباشرا يبدأ بخبرة الإنسان بجسده، وهذا الجسد مكان، أو لنقل بعبارة أخرى مكمن القوة النفسية والعقلية والعاطفية والحيوانية للكائن

---

[1] مبروك، مراد عبد الرحمن، **بناء الزمن في الرواية المعاصرة رواية تيار الوعي نموذجا (1967 –1994)**، 10.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحي"[1]. حيث إن الزمان ينحت في الوجدان والذاكرة، وبالتالي يعمل على التخييل عندما نستدعي صورة المكان أو نرى فيه تغييرا، فنشعر آنذاك كم مرّ من الزمان عليه دون وعي منّا بتسارعه!

والشخصية الروائية ذات بعدين: أحدهما زماني والآخر مكاني، وقد أطلق عليها باختين مصطلح الزمكانية، بمعنى حرفية الزمان والمكان الذي استقاه من العلوم الرياضية ومن نظرية آينشتاين للنسبية[2]. والزمكانية هي تداخل الزمان والمكان؛ إذ لا ندرك الزمان إلا بالمكان ولا ندرك المكان إلا بالزمان، وعلى الرغم من أن الزمان متحرك والمكان ثابت إلا أنهما ملتحمان في علاقة تكاملية "تنافسية مستمرة في الرواية، فهناك روايات يغلب المكان على عنصر الزمان، وهناك روايات يضعف بها عنصر المكان ليتغلب عليه الزمان، فالزمان والمكان في الرواية يتبادلان المنافع فالمكان يزمن بالزمان والزمان يمكن بالمكان. بمعنى أن الزمان فراغ دون مسكنه في المكان يظل تائها إلى أن يجد مكانا يسكن فيه، والمكان فراغ لا تحولات ولا تجليات له من دون أن يتجدل مع الزمان، وبالرغم من هذا التوحد الحميمي بينهما، إلا أنّ المكان بكل قواه الطبيعية والفنية لا يستطيع أن يوحد الأزمنة في زمن واحد" [3].

فمثلا ممكن أن يبقى الإنسان في مكان ما عدة أيام أو شهور بينما يلقي الزمان بظلاله المتسارعة والمتحولة على هذا المكان من عتمة وضوء وسكون سماء ومن برد وحر وغير ذلك.

والجدير بنا أن نطلع على أنواع الزمن:

- الزمن الطبيعي (الفيزيائي): وهو الزمن الذي يرتبط بعلاقاتنا وأيامنا وسنيننا ونضبطه على ساعاتنا ونحدد مواعيدنا واجتماعاتنا على إثره، وتتجلى في تعاقب الليل والنهار وبالفصول

---

[1] قاسم، سيزا، **جماليات المكان**، 59.

[2] ينظر القاسم، نبيه، **الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف**، 56.

[3] النابلسي، شاكر، **جماليات المكان في الرواية العربية**، 328.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأربعة التي تتعاقب وتتكرر في المكان ويظهر تأثرها على الإنسان من خلال تحديد زمن ولادته وتاريخه وموته[1].

- الزمن النفسي: وهو ذلك الزمن الذاتي الذي يسيطر على شعور الإنسان وتجربته الخاصة وذكرياته وتاريخه ويسكن في اللاشعور، فيستدعيه الإنسان للخروج إلى الوعي والزمن الحاضر عند حالته النفسية المعينة، إذ لا يخضع الزمن النفسي لقياس الساعة مثل الزمن الموضعي، فهناك أزمان في حياة الإنسان مليئة بالسعادة والهناء وهناك سنوات طويلة خاوية من الفرح تمر رتيبة كأنها عدم[2]. وهذا يختلف من شخص إلى شخص ومن كاتب إلى آخر، فقد يقف الحدث الروائي عند مشهد مؤثر يسترجع فيه السارد قصة ما أو حادثة أثرت في نفسيته" والزمن متغير ومتسارع وإحساسنا تجاهه يختلف من عصر إلى عصر، كما إن إحساس الإنسان بإيقاع الزمن واختلافه هذا، بناء على اختلاف إيقاع الحياة نفسها، وهو المسئول الأول عن اختلاف شكل الأعمال القصصية من عصر إلى آخر، وقد شكل الإيقاع السريع للزمن مشكلة نفسية خطيرة للإنسان، ولذلك فإن الرواية الحديثة لم تعد تركز على تصوير الشخوص والأحداث بقدر ما تركز على تصوير المتغيرات النفسية داخل الإنسان، ومن هنا برز الاهتمام بالزمن النفسي على حساب الاهتمام بالزمن الطبيعي" [3].

فحين يلقي السارد على الشخصية بظلال الألم والحزن، يبدأ السرد الزمني بالوصف المتباطئ، الذي يصوّر خلجات نفسه وشعوره وإحساسه المظلم، ويختلف الأمر عند وصف الأحداث المتسارعة الزمن عندما ينشط الإنسان ويفرح عند السعادة والاطمئنان.

---

[1] ينظر، القصراوي، مها، **الزمن النص**، 23.

[2] ينظر نفسه، الصفحة نفسها.

[3] أيوب، محمد، **الزمن والسرد القصصيفي الرواية الفلسطينية المعاصرة بين 1973 - 1994**، 81.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"ويتغلغل الماضي في الحاضر بفعل الذاكرة فتخرج الذكريات إلى حيزها الآني وتحت تأثير عوامل خارجية غالبا تكون غير مدركة أو مقصودة، فإذا بالذكريات المدفونة تظهر إلى السطح من أعماق العقل الباطن ويظل الحاضر هو لحظة الحياة والوجود التي تحفزه إلى العمل، بينما يظل الماضي بذكرياته يقبع في مناطق مظلمة في الذاكرة، تضاء بصورة متقطعة حين الحاجة إليها، لذلك لا توجد رؤية بصرية إلا وهي مثقلة بالذكريات فنحن نضيف إلى إحساسنا المباشر والحاضر آلاف التفاصيل من تجربتنا الماضية" [1].

أما الزمن الروائي: هو زمن القصّ، زمن الحاضر الروائي أو الزمن الذي ينهض فيه السرد وبه تبدأ الرواية، ومن زمن القص تطل الشخصية في لحظة الحضور على زمن الوقائع لإضاءة الماضي، ونسج عنصر الحركة والمكان والأحداث داخل نسيج محكم، فمثلا قد ينقطع الحاضر الروائي لينفتح على زمن ماض له يحقق التشويق والتماسك والإيهام بالحقيقة من خلال التّذكّر والتّوقّع[2]. "وقد ارتأى بعض أقطاب الرواية الجديدة عدم الالتزام بالتطور المتسلسل للأحداث وتواترها داخل النص الروائي الجديد وذلك يفسر بأن الكثيرين من الكتاب أصبحوا يكتبون قصصهم منفصلة متقابلة وغاياتهم من ذلك أن نشعر بتلك الانقطاعات" [3] .

وإذا ما عدنا إلى الزمن الروائي الفلسطيني بل وحتى الزمن الواقعي، نرى أن الماضي يسكن فينا وفي ذاكرتنا الجمعية خصوصا عند الفلسطيني الذي سيطرت الأحداث الزمنية والماضية على حياته وواقعه، فبات يحمل ماضيه من مكان لمكان. ويعكس الإنسان بسلوكه تراكمات الزمن الماضي الذي يبين من خلال تصرفاته في الزمن الحاضر.

---

[1] القصراوي، مها، **زمن النص**، 27.

[2] نفسه، 55.

[3] عبد العالي، قمرة، **البنية الزمكانية في رواية الرماد الذي غسل الماء لعز الدين جلاوجي دراسة تحليلية تأويلية**، 14-15، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، 2012م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنّ من يحاول دراسة الزمن في الرواية الفلسطينية؛ يجد "أن الزمن في هذه الرواية زمن متداخل إلى درجة يصعب معها تقسيمه إلى أزمنة مختلفة، فزمن الحرب يمتزج بالزمن التاريخي بالزمن العربي، بزمن الاحتلال، بالزمن النفسي بزمن المغامرة وزمن الكتابة"[1].

وعند العودة إلى الأعمال السردية في دراستنا؛ نجد أن الزمان قد التحم مع المكان بشكل كبير، ولا غرو أن الزمان في حكايتنا الفلسطينية ارتبط بالماضي بشكل بارز عبر المنعطف التاريخي منذ عام النكبة، وبالتالي سرد تداعياته في الزمن الحاضر واستدعى المستقبل، فالتقى الزمان الفلسطيني والمكان الفلسطيني بقراه المهجرة ومدنه المحروقة، وتسللت أحداثه الزمنية عبر النكسة واتفاقية أوسلو، بينما ظهر بعض الاستشراف الممزوج بالأمل في الزمن المستقبلي.

أنواع الأعمال السردية وبناؤها التقني:

تتنوع الروايات في مضمونها بين الرواية الواقعية والتوثيقية والرومانسية والخيالية والرمزية، وقد تكون رواية سيرية أو غيرية يسجلها السارد بغية إطلاعنا على الماضي وأحداثه أو لإعادة تجربته الماضية بعين الحاضر وتقييمها، أو قد يلجأ إلى تأريخ أحداث وطنية أو قومية حتى يتعرف إليها الجيل الناشئ.

والجدير بالذكر أن الأعمال السردية المتناولة في دراستنا قد تفاوتت في بنائها الحكائي والفني بين القوة والضّعف، إذ كان بعضها ناضجاً، بينما مال بعضها الآخر نحو التدني[2]. ونبدأ بتقنية الاسترجاع التي احتلت مساحة واسعة تفوقت بها عن بقية التقنيات الأخرى في الدراسة.

---

[1] أيوب، محمد، **الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة بين 1973 - 1994**، 85.

[2] مثل رواية ياقوت النهر، وهي لا ترقى بالمستوى الفني المنشود، وهي بسيطة في لغتها، يقحم السارد فيها صوته بين السرد الرتيب ووصف الأحداث والحوار بين الشخصيات بأسلوب بسيط وأحيانا ساذج، يقصّها بتقنية غير محبوكة، وبأسلوب غير مقنع أحيانا، مما تجعلنا نشعر كقرّاء أن واحدا من عامة الناس يرويها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولا: الاسترجاع:

هو "مخالفة السارد لزمن السرد وعودته إلى حدث حصل في السابق أو الماضي وهو عكس الاستباق، وقد تكون حكاية ثانوية داخل الحكاية الرئيسية" [1].

ويسترجع السارد أحداث الزمن الماضي في الرواية، ويعود لحدث سابق، لتسليط الضوء على وقع مهم، يخدم السرد الحكائي.

وقد تناول الكتّاب الفلسطينيّون في أعمالهم الأدبية تداعيات النكبة والنكسة بالإضافة إلى اتفاقية السلام أوسلو، وقد ظهر ذلك في دراستنا على نحو جليّ .

وقد برز الاسترجاع بشكل بارز في رواية (نهر يستحم في البحيرة) و(النهر بقمصان الشتاء) و(النهر الغريق) وفي الرواية الأولى يسترجع السارد تداعيات النكبة في حكايته، تلك النكبة التي شكّلت منعطفا مفصليا في قلب حياة الفلسطيني رأسا على عقب، حيث طمس الكيان الصهيوني المدن والقرى بعد أن هجّر أهلها، وما زال يقيم على أراضيها مستعمرات ومنشآت إسرائيلية، أخفت معالم القرى العربية ومحتها عن أرض الواقع، ولا سيما قريته فكلما توترت الأحداث وتسارعت استوقفنا السارد وتساءل في نفسه عن قريته ، ونقف على أعتاب نص حواري يجريه السارد مع نفسه بعد أن رأى قريته المدمرة، فيقول:"**هل حقا أنا في سمخ**[2]**؟ هل هذا ما كنت أنتظره، وما توقعت أن ألقاه، لم أكن أشعر بالألفة مع المكان، فقد تغيّر كل شيء. اقتلعوا البيوت بالجرافات،**

---

[1] زيتوني، لطيف، **معجم نقد الرواية**، 18.

[2] تقع على رقعة مستوية من غور الأردن عند أقصى الشاطئ الجنوبي لبحيرة طبرية، وتبعد مسافة يسيرة عن مخرج نهر الأردن من البحيرة، وهي كبرى القرى في قضاء طبرية من حيث المساحة وعدد السكان، كما كانت ملتقى مهما لطرق المواصلات تربط مناطق شرقي نهر الأردن بمناطق غربية كما تربط المناطق الواقعة حول البحيرة بغور الأردن جنوبا. ينظر، الخالدي، وليد، **كي لا ننسى**، 397.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبنوا مكانها عمارات لا علاقة لها بنسيج وطقس المكان، حاولت أن أعيد ترتيب الأماكن والأشياء في خيالي... عند هذا الشاطئ كانت تنمو حياة من نوع آخر" [1].

يُصاب الكاتب بالصّدمة من آثار التّغيير الجذري في قريته (سمخ)، إذ فقد المكان هويته وتاريخه وتبدلت صورة المكان في الذاكرة، وكثرت الغربات وتنوعت، غربة بحيرة طبرية التي وضعوا حولها سياجا ومنعوا الناس من دخولها بحجة البحث عن تمساح، إذ طوّقوها بالأسيجة، وطوّقوا معها أشواق العائدين وذكرياتهم بعد غياب طويل عنها، وكذلك غربة قريته المسلوبة (سمخ)، وغربة الروح، وغربة المشهد المكاني الجديد بمنشآته الإسرائيلية على أرضها.

لقد ذابت هوية المكان بجرافات الاحتلال، وعبثا حاولت ذاكرة الطفولة والشباب إعادة ترتيب الأشياء والأمكنة، فبدأت باسترجاع الذكريات الجميلة عند شاطئ البحيرة، في ذكريات المفتون العائد لأجلها، حيث كانت حياة هانئة وصفها بـ (نوع آخر)، وهنا يتراءى لنا الألم النفسي الذي فاجأ المغترب، المجتمع في صدمة المكان والذاكرة اللذين –غالبا– ما يتعالقان بعضهما ببعض، لكنهما أمام هذا المشهد ينفصلان.

كما يسترجع في ذاكرته السمعية المخزّنة بالذكريات كلام الآباء عن بحيرة طبريا وتنوّع أسماكها، فيجري حوار بينه وبين نادل صهيوني في مطعم قرب البحيرة، إذ يقول له:

"هنا في هذه البحيرة يوجد سمك المشط والعضاضي والبلبوط والمرمور والكرسين، قلت له من جديد: عندما غادر والدي الشيخ حسين هذه البلدة، كانت تعيش في البحيرة تلك الأنواع فهل بدلتموها؟ هل قمتم بتهجين أنواع جديدة؟ لم يفهم شيئا أيضا... وهنا تدخلت مجد،

---

[1] يخلف، يحيى، 99.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقالت مشيرة إلي:

-هذا الرجل يعود إلى المكان الذي ولد فيه بعد غياب ستة وأربعين عاما عندما غادر أهله كان طفلا رضيعا" [1] .

لم يمنع غياب الفلسطيني عن بلدته من محوها في ذاكرته، بل مازال يسأل عن تفاصيل المكان بما يحتويه من خيرات وميزات.،فالسارد هنا وبعد ستة وأربعين عاما، سرد بعض أسماء الأسماك التي كانت في البحيرة، التي لم يرها لكنه سمع عنها من أبيه، وهذا يدل على عمق التأثر والتجذر بالأرض مهما طال الغياب، بينما يقف الصهيوني الدخيل الذي يقدم الأسماك من البحيرة غافلا عن هذه المسميات التي لم يعرفها ولم يسمع بها، بل هذه البلاد لا تعني له شيئا، فهو لم يأتِ إلى هذي الأرض إلا للعمل والحصول على المال والمميزات، وهو غير مستعدّ لدفع ماله أو حياته مقابل المكوث فيها إن غابت مصلحته الشّخصيّة!

وتظهر تقنية الاسترجاع في رواية (النهر بقمصان الشتاء)، إذ استرجع السارد في حكايته قصة فلسطينيين هانئين يعيشون في بلادهم بسلام، حتى جاء الاحتلال الإنجليزي بالويلات والعذاب ثم تلاه الاحتلال الصهيوني بالاغتصاب والسلب، فذكر السارد أسماء أماكن عديدة وأحداث ماضية ،على سبيل المثال ذكر قرية العباسية وسوق الخالصة وذكر خروج الفلسطينيين من قريتهم (الشماصنة) وتهجيرهم في البلاد الأخرى وذكر أسماء قرى لبنانية وسورية لجأ إليها فلسطينيو الشتات ، واتخذ الاسترجاع طابعا حزينا ملونا بأحداث دامية ،شكلت علامة فارقة في المتن الحكائي، سردها بلغة شجية مؤثرة، حتى ينهي حكايته بدفن الزوجين: شتيوي ودندي في إحدى القرى السورية، وقد أوصى شتيوي ابنه كعدي بدفن عظامهما في قريته الشماصنة بعد

[1] يخلف، يحيى، 73.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العودة! فيختم السارد روايته بقوله: "**منذ ذلك الحين، وأولاد كعدي يحسون بأن أجراساً تطوق أعناقهم، تقرع في آذانهم دوماً، تقول لهم متى سيكسرون بلاطات القبر ليعودوا بالعظام إلى الشماصنة**"[1].

وبرزت أحداث النكسة الحزيرانية بصورة فاعلة في تاريخ القضية الفلسطينية أدبا وشعرا، بل وبرزت حتى في أحاديث من عاشوا تلك الأيام وذاقوا مرارتها، وظلّت تلك المأساة تحفر في ذاكرتهم الجمعية إلى يومنا هذا

فقامت رواية (النهر الغريق) على استرجاع زمن النكسة ،وأبانت عن الأعمال البطولية التي قام بها الفدائيون بعد عام 67 ،إذ إن أحداث الرواية جلّها تروي قصص تخطيطهم للعبور وزرع الكمائن للأعداء، وكأن الكاتب ترك الزمن الحاضر –زمن كتابة الرواية– واسترجع أمجادا يفتخر بها؛ لأنها تذكره بأيام العز والمقاومة، بينما اختلف الحال في الزمن الحاضر بعد اتفاقية السلام بين الطرفين، ويبدو أن السارد يسعى إلى إخبارنا بمقاومة الفلسطينيين في تلك الحقبة من الزّمن، وكيف أنّهم لم يصمتوا عن حقّهم المغتصب، وكيف أنّهم دافعوا عن بلادهم ولم يمنعهم أيّ شيء مقابل الكرامة، "ويلجأ السّارد إلى الماضي تعويضا عن القيم المفقودة في الواقع المعاصر أو قد تستبق الذّات المستقبل فتلجأ إلى استباق القيم الروحية التي لم تتشكل بعد لكنها قد تتكتل وتتوحد في الذات تعويضا عن الخواء الحياتي الذي تعيشه في واقعها الحاضر" [2]. حيث يأمل السارد برجوعها للعمل التنفيذي الجماعي.

([1]) حميد، حسن، 290.

[2] الديب، وئام، **تقانات السرد في الخطاب الروائي العربي في فلسطين من عام 1994–2006م**، 169، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة،، 2010م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولعلنا نتساءل لماذا جنح الساردون إلى استرجاع تلك الأحداث النضالية السابقة التي تعتبر علامة فارقة في حياة الفلسطيني الجمعية والفردية؟ ولماذا يلجأ السّارد إلى وضع نفسه في منطقة الوسط بين الماضي والحاضر وبين الدفاع والصمت؟

نميل إلى أن من لحق بصفوف المقاومة آنذاك، لن يستطع بسهولة التأقلم مع التنازلات المستمرة والقبول بواقع الانهزام واللا مقاومة، وكأنّها دعوة ضمنية لأبنائنا الذين لم يشهدوا تلك الأحداث، ولكنهم عاشوا تداعياتها أن يدركوا ألا حلّ مع الصهاينة إلا بالمقاومة!

ويتباعد المكان عن الزمان في الأعمال السردية المتناولة في دراستنا ويصبح أكثر انفصالا في ظل اتفاقية السلام، بينما وقف الفلسطيني منها حائرا ضائعا لا يدري هل يقبل بالاستسلام والسلام مع الأعداء ومع واقعه الجديد، أم يلوذ بالصمت الذي تعلوه الصدمة وخيبة الأمل أم يعود للماضي مسترجعا بطولات شعبه ونضالهم في الدفاع عن الوطن.

ورغم هذا الفارق الزّمنيّ الطويل بين الشّخصية (السّارد) والمكان إلا أن "المكان يكتسب ملامحه من خلال البشر الذين يعيشون فيه، وإن ابتعدوا عنه؛ لأنهم تلخيص الزمن الذي كان، وفي المكان المحدّد بالذات يشعرون بتلك الألفة الفطرية بينهم وبين المكان الأم[1].

يعكس هذا تأثير العامل الزمني على الحيز المكاني، وبالتالي على الشعور النفسي للفلسطينيين الذين مازالوا يعودون إلى الماضي في كل مرّة يقفون فيها أمام المكان الحالي.

ثانيا: المشهد

يحتل السرد المشهدي مكانة مهمة في البناء الروائي؛ لأنه من أكثر الوسائل استعدادا لتوجيه الاهتمام وإثارة التساؤلات،"ويقصد به المقطع الحواري الذي يأتي في كثير من الروايات في

[1] ينظر: الأحمر، فيصل، **معجم السيميائيات**، 125.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تضاعيف السرد" [1] "مما له أثره الفاعل في خلق الحركة الدرامية وتوسيع الحوار فضلا عن مزجه الوصف التقريري بالمسرحي وتوظيفه الحوار للوقوف بالعمل الروائي على مجسات المسرحية، بل المشهد هو العنصر الدرامي أو المسرحي في الرواية، لأنه يطمح إلى مسرحة كل شيء في الرواية من حوادث أو شخصيات أو حوار أو مكان أو ضمائر أو صور وصفية أو حكايات متوالية أو متصلة ويهيئ الأجواء للكاتب، لأنه يهتم بالتفاصيل الصغيرة مع التصرف بالأزمة ويمنح القصة حضورا ومباشرة، "و يأتي لغرض التأكيد أو الانفراج وهو عبارة عن لحظة معتقلة في مجرى الزمن، وهو لحظة مصورة، ومسجلة صوتيا ومسلطة على شاشة القارئ التخيلية، فهو نتاج تفاعل وانسجام بين الزمان والمكان، ونتاج تركيز وانسجام بين المسرح كفن مكاني والسرد كفن نثري، يحتل مساحة كبيرة على الورق تستوعب في حركتها صور الأشياء في ظل ظروف وأحداث خاضعة لحركة الزمن" [2].

"يخصص المشهد في الرواية للأحداث المركزة والمهمة، وتتناوب المشاهد الروائية الحاسمة في البناء السردي الروائي لخلق جو من الانتظار والتشويق. وفي المشهد يحتجب الراوي وتتكلم الشّخصيات بمنظورها ولسانها ويقل الوصف ويزاد الميل إلى التفاصيل، وإلى استخدام الفعل الماضي" [3].

ويظهر عنصر المشهد بشكل جليّ في قصة (جسر على النهر الحزين)، والتي وصفت أحداثا قاسية حصلت مع السارد كمغترب فلسطيني تعرّض للإهانة والذل، سردها بلغة وصفية واقعية، ظهرت على شكل مشاهد عدة متقطعة متوترة، وتسجيلات إخبارية وإذاعية مستخدما تيار الوعي والاسترجاع، صاغها بلغةً رمزيةً مكثفة، سهلة وعميقة في آن واحد.

---

[1] ينظر: الحميد، الحمداني، **بنية النص السردي**، 78.

[2] زيتوني، لطيف، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 154-155.

[3] **نفسه**، 155.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد لجأ السارد إلى المشهد لمضاعفة التأثير الانفعالي، ولتركيز بوصلة الحكاية نحو الآت، فيشعر القارئ أن الزمن قد توقف، وأن الضوء بات ساطعا على ذلك المشهد الذي غالبا ما يهزّ مشاعرنا ويلفت انتباهنا بمشاهده المتنوعة، فجاءت صوره على شكل رسائل إذاعية من فلسطينيّ الخارج (الكويت – دمشق) يرسلونها إلى ذويهم في الداخل يحدّثونهم عن أخبارهم، وهي رسائل من أفراد عائلة (أبو كبة) يختمها أحد الأخوة واسمه سعيد أبو كبة بقوله: عائدون.

وفي مشهد آخر إذاعي تُذاعُ فيه أخبار عالمية ينهي الرسائل الإخبارية بهذا الخبر:

"**طرد الجائعون الحفاة العراة آخر جنديّ متمدّن من بلادهم، وفي كتب التاريخ يبحثون عن قائد ضرب البحر بسوطه**" [1] .

وهنا، يتوقف المشهد ويتوقف السرد الإذاعي، ونرى أن الكاتب قد لجأ إلى التخييل، وكأنه بهذا الخبر الأخير يتمنى طرد الأعداء من فلسطين، مستدعيا التناص التاريخي بذكر قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل وفلقه للبحر، وكأنه يتمنى أن تزال الحدود المائية؛ ليعود إلى وطنه الذي منعه الصهاينة من دخوله.

ثم ينتقل إلى مشهد آخر سماعي ينقله على لسان المدرسين يستدعي فيه التناص الأدبي والتاريخي:

"**قال مدرس الطبيعة في [احد] الفصول: اسمعوا يا [اولاد] لكل فعل ردة فعل. قال مدرس الاجتماع في [احد] الفصول: [الانسان] يسحق.. ولكن لا يمكن [ان] يهزم!** [2]

قال مدرس التاريخ في أحد الفصول:

---

[1] طه، محمد، 66.

[2] ينظر، همنغواي، إرنست، **الشيخ والبحر**.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان الطقس خمسينيا.. وسيطر القائد وجنوده على نبع الماء.. و[امر] القائد جنوده [باحراق] العشب [1] **.. وجف اللعاب من [افواه] جنود العدو**"[2].

هكذا يرسم السارد شخصياته المؤثرة في المجتمع، فهو يعطيها "حرية الحركة في الزمان والمكان، فلا يلجأ للحظة المكثفة التي تحفر رأسه في ميدان التحليل النفسي، بل يتيح لقلمه أن يغوص في النواحي الأفقية للشخصية، وأن يجعل اللحظة القصصية مفتاحا لعالم واسع" [3] والسارد بهذا الخطاب التذكيري؛ يدعو إلى التمرد وتغيير الواقع وعدم رفض الذل عبر لسان المدرسين والمثقفين الذين يدعون الشعب إلى عدم القبول بالخنوع والانكسار، وعلينا ألا نغفل استدعاءه للتناص التاريخي عبر ذكره شخصيات تاريخية كتيمورلنك وصلاح الدين الأيوبي وتزييف المؤرخين للتاريخ، بالإضافة إلى التناص الديني في قصة موسى مع بني إسرائيل، وكأنه بهذه الدلالات السيميائية يدعونا للعودة إلى تاريخنا المجيد رمز العزة والفخار عبر مفارقة ضدية بين الماضي والحاضر، ثم ينتقل إلى مشهد ختامي ذي رؤية سردية يحمل طابع رسالة أو نداء، يدعو فيها أحبابه وإخوانه بعدم القبول بالعار بعد اليوم ويأتي هذا النداء استجابة لنداء المثقفين والوطنيين الذين يدعون للعودة إلى الوطن.

ويظهر المشهد المسرحي والخبر الإذاعي والمقابلة التلفزيونية في رواية (نهر يستحم في البحيرة)، يتخللها مجموعة قصص أخرى مرتبطة بالخيط الأساسي، ألا وهو قصة السارد الذاتية الجمعية الفلسطينية بعد العودة إلى الوطن إثر اتفاقية السلام.

---

[1] إشارة إلى موقعة حطين، ينظر، الدباغ، مصطفى، **بلادنا فلسطين، ج 7**، 399.

[2] طه، محمد، **جسر على النهر الحزين**، 66.

[3] خليل، إبراهيم، **في القصة والرواية الفلسطينية**، 30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والرواية تقوم على ثلاثة أقطاب: الإنسان والفكرة والمكان بأنواعه: المكان الأليف والمعادي، المكان الحلم والمكان الواقع، الوطن والمنفى، والبحث عن الذات في متاهات المكان. وهذه الرواية؛ إنما هي "إضاءة للواقع وإطلالة مباشرة على الحقيقة المجسدة بعيدا عن المتخيل السياسي أو الفكري المسبق وهي مشروع اكتشاف الذات، وللوطن المحتل وللقوة الغاصبة وللمستقبل"[1].

ويسيطر المشهد المسرحي بشكل كبير في الرواية ؛ إذ يطل علينا بين الفينة والأخرى قصّة الجندي الياباني (أونودو) الذي واكب رحلة الروائي النفسية والسردية.

والجدير بالذكر؛ أن السارد يلتحم مع أونودو، فيصبح المعادل النفسي له يُظهره على خشبة المسرح كلما توالت الأحداث وشرع بالسرد. وهو بذلك يوازي بين قصة الفلسطيني الخائب /السارد نفسه مع خيبة الجندي الياباني، صاغها بأسلوب رمزي بارع ومشوق.

تبدأ الرواية بقصة دخول الراوي بلاده عبر جسر اللنبي ذاهبا إلى (غزة) وقد بدت عليه علامات الحيرة والاستغراب من التنسيق الأمني بين الفلسطينيين والصهاينة، إذ يدقق الجندي الصهيوني بالأوراق ويقوم بالتفتيش، ثم يقوم الجندي الفلسطيني بالعملية نفسها، وإزاء تلك التناقضات يستدعي السارد شخصية الياباني أونودو لتكون موضوعا لنصّ مسرحيّ وُلد في مخيلته أثر اتفاق أوسلو على حد قول السارد.

و(أونودو) هو جندي مخلص عمل مع القوات اليابانية في عام 1945 ضد القوات الأمريكية، وظل يقاوم ويحارب رغم ملامح الهزيمة، بينما يواصل السارد رحلته وغربته داخل أرجاء الوطن، ثم يطل علينا (أونودو) بمشهد يذكر فيه شجاعته وبسالته رافضاً القبول بالهزيمة متذكراً قول الملازم، أن الأمريكان سيرمون قصاصات ورق من أجل ضرب المعنويات وقصف عقول المحاربين، فيقول

[1] عبد القادر، محمد، **الرمز والتخييل أوراق نقدية في نصوص إبداعية**، 81.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أونودو: "**كنت أراقب الشواطئ بهذا المنظار واستعد لصدهم برشاشي وبقنابلي وأصرخ بصوت عال: لن يمروا لن يمروا**" [1].

وهنا نلاحظ التناص الأدبي مع الكلمات الدرويشية: أيها العابرون بين الكلمات العابرة لن تمروا لن تمروا... إذ نلمح صوت الفلسطيني الغريب الملتحم مع صوت الشاعر والجندي المخلص في رفض الظلم واغتصاب الأرض.

وتتوالى الأحداث بشكل تصاعدي، يظهر فيها السارد بصورة السارد الشاهد للأحداث عبر استنطاق شخوصه، ثم يعود إلى الجندي الياباني في مشهد آخر يخبرنا فيه، أنه أمضى سنوات طويلة من العزلة وحيدا بين الأشجار والطيور وحيوانات الغابة لأكثر من ثلاثين عاما، إذ تعلم لغة الطبيعة ولغة الطيور وكان يشمّ رائحة الأعاصير قبل وصولها ثم "**اكتشف أن سلاحه قد أصابه الصدأ وأن أمشاط الرصاص قد تسللت إليها الرطوبة وأن الشروخ قد أصابت عدسات منظاره العسكري، فتمنى لو أنهم هناك في القيادة قد أرسلوا له خبرا عن مجريات سير المعركة لكنهم في القيادة لا يفعلون شيئا.. لا يفعلون شيئا....**" [2].

وتتوالى الأحداث ويسافر السارد من غزة إلى رام الله ومنها إلى طبريا، في المقابل يذكر السارد أن الجندي الياباني قد أصيب بانفصام في شخصيته أو لوثة في عقله، إذ لم يصدق أمر الهزيمة ورفض تسليم سلاحه وقد صار عمره اثنين وخمسين عاما.

لكن الراوي يفاجئنا بقوله: "**لاتصدقوا هذه الرواية أيها السادة، فعندي أنا رواية أخرى مختلفة.... لاتصدقوا**" [3].

---

[1] يخلف، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة**، 15.

[2] **نفسه**، 20.

[3] **نفسه**، 25.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم يطل السارد بمشهد "**الراوي: إذا انتهت الحرب توقف إطلاق المدافع هناك.. ظل أونودو وحيدا.. عرضوا عليه العودة بالطائرة العمودية التي أقلت القائد العجوز لكنه رفض،**

فضل البقاء في هذه الجزيرة النائية غير المأهولة.... ظل وحيدا... لكن الحزن الذي كابده كان فوق طاقة احتمال البشر فقد وجد نفسه فجأة رجلا بلا قضية.... خارت قواه... ها هو أخيرا ويصبح رجلا بلا قضية"[1].

ثم يذكر السارد في مشهد تلفزيوني في بث حي ومباشر عن "**ندوة يشارك فيها متخصصون في معهد للدراسات الاجتماعية في طوكيو محاولين دمج أونودو في المجتمع والتكيف مع الواقع الجديد بعد أن أصابه الاكتئاب، وضرورة البحث في تجارب الشعوب التي خاضت الحرب ثم جنحت إلى السلم، ثم يعلن تقرير إذاعي أن الخبراء يعكفون على دراسة ملفه لإلحاقه ببرنامج تدريب الأسرى المحررين والمعاقين الذي تقوم به دول الشرق الأوسط بعد عملية السلام**" [2].

وبعد سلسلة حكايات طويلة ذكرناها باقتضاب، يختم السارد روايته تحت عنوان مشهد وفيه يخبرنا أن (أونودو) تمرّد على السارد وخرج من الدفتر صارخا: "**لقد نسيتني تركتني هنا في هذا الدفتر، أحضرتني من الشرق الأقصى إلى الشرق الأوسط حاولت ترويضي ودمجي في برامج التكيف والانصهار.. حاولت أن تدخلني في معادلتكم وأن تلوي ذراعي... دعني أتحرر وأخرج من سطورك الباهتة... أريد أن أراقب الشاطئ بمنظاري وأن أحرس الفكرة التي نذرت حياتي من أجلها... يقفز أونودو من الدفتر يركض نحو دغل من الأشجار وهو يحمل بارودته العتيقة أركض وراءه وأنادي: انتظرني.. انتظرني، يواصل الجري وأنا أركض خلفه يصعد وأصعد وراءه ثم**

---

[1] يخلف، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة**، 30.

[2] **نفسه**، 36-37.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يجد أمامه مغارة يدخل المغارة أدخل خلفه وأحاول أن أدخل خلفه، لكن رأسه يصطدم بباب المغارة فأسقط على الأرض" [1] .

ويبلغ الجندي الياباني/الفلسطيني قمة أزمته وخيبة أمله وضياع حلمه في نهاية الرواية، وكأنه يثبت أن الأرض هي الأرض وأن الشعب مازال متمسكا بها مهما قست الظروف وكثرت اغتيالات الحلم، خاصة أن الجندي الياباني بعد أن توحد مع السارد العائد، تمرد عليه وصرخ في وجهه ممتنعا عن قبول ما رأى، رافضا فكرة السلام مع الاحتلال، منكرا مبدأ إلقاء السلاح.

لقد ختم السارد ذلك ببراعة، وكأنه يعاتب نفسه إذا قبل بفكرة التسليم والتعايش، فعلا صراخه بعد كل هذه المفاجآت، ليوقظ نفسه وليحدثها بأن دولة إسرائيل لا سلام فيها ولا تعايش معها. وتظهر غربتان في الرواية، غربة الروح وغربة المكان، برزت عبر سلسلة من الانكسارات المتكررة التي أصابتهم جميعا.

ويلاحظ أن المشاهد التي ذكرت سابقا، كانت مؤثرة ومركزة وحزينة وهي تعكس لحظة صمت مليئة بالقهر والألم، جراء ما أصاب الفلسطيني من غربة وتشريد.

ثالثا: الاستباق

يلجأ السارد إلى الاستباق مخالفا زمن السرد في مجاوزته زمن الحاضر، ليمهد لقصة سيحين وقتها لاحقا، مضيفا إلى حكايته عنصر التشويق. "وقد يتخذ الاستباق أحيانا شكل حلم كاشف للغيب أو شكل تنبؤ أو افتراضات صحيحة نوعا ما بشأن المستقبل" [2] .

---

[1] يخلف، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة**، 141-142. ويلاحظ تشابه هذه النهاية بنهاية رواية (المتشائل) لإميل حبيبي عندما يعتصم الابن بسلاحه في المغارة ويحضر والداه للحديث معه وإقناعه، ثم تدخل أمه وتعتصم معه، دلالةً على الانحياز لفكرة الكفاح.

[2] زيتوني، لطيف، **معجم نقد الرواية، 15- 16**.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والاستباق أنواع: استباق تام وداخلي وخارجي ومختلط، لكن يبرز الاستباق التام في الجانب التطبيقي المتناول في دراستنا، والاستباق التام هو "الذي يمتد داخل زمن السرد إلى الخاتمة ومن نهاية زمن السرد إلى زمن الكتابة" [1] .

ويظهر الاستباق فقط في رواية (جسر بنات يعقوب)، وهو استباق تام ،إذ يظهر صوت السارد العليم عند تمهيده بمعرفة الراهبات من أهل الشماصنة بقدوم يعقوب وبناته إلى القرية قبل الدخول إلى المتن الحكائي، فيقول على لسانهن: "**وقالوا جملة واحدة ظلت في نفوس الآخرين ترن مثل الجرس: الرجل تاجر!... وأضافوا أن رأس مال يعقوب وكرامته هما بناته، ورأس مال البنات جمالهن وحين يذهب يعقوب ستحرر بناته وسيصير لهن حماة وأعداء وأن كل شيء سيزول مع زوال الأسباب**" [2]، وفعلا هذا ما كشف عنه السياق في الأحداث الآتية.

ويذكر الراوي في استباق دلالي، أن الراهبات الثلاث حذّرن النساء من دجل يعقوب وكذبه وخداعه باستعمال النباتات للشفاء، وقرأن لهنّ الكلام المكتوب في الأوراق وما يحويه من سحر وشعوذة. ويختم السّارد هذا الملحق بجملة سيميائية، ألا وهي: "**إن الواجب يقتضي طرد الرجل؛ لأنه خطير وعدو ومسيء... لكن تعاليم الدين!!**" [3] .

وهذا ما حدث في نهاية الرواية عندما قتل الزوج يعقوب حينما وجده عاريا مع زوجته كما ذكرنا سابقا!

---

[1] زيتوني، لطيف، **معجم نقد الرواية**، 16.

[2] حميد، حسن، 75-76.

[3] **نفسه**، 77.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونلمح أن الكاتب يريد أن يوصل لنا أن اليهود هم من لوثوا ذلك المكان، فقد عاش فيه المسلمون والمسيحيون بأمان وسلام وطهارة، بينما كان اليهود دخلاء عليه، إذ عاثوا فسادا في البلاد، ويؤكّد السارد هذه الفكرة في روايته (النهر بقمصان الشتاء).

ويظل يعقوب يلحّ على سليمان بضرورة الانتهاء من بناء الجسر والخان، وتظهر المرأة العجوز وتدعو سليمان إلى مساعدة يعقوب وإعطائه المال، وتُجري حوارا معه عبر تقنية الاستباق الزمني، مخبرة إياه أن الجسر سيكون تحت سيطرة يعقوب وبناته في الأيام القادمة؛ إذ تقول:

"**الجسر سيصبح البقرة الحلوب التي لن يستغني عنها يعقوب أبدا**" [1] .

وينهي السارد الرواية باستمرار بنات يعقوب بممارسة الزنا مع الرجال القادمين من أماكن بعيدة، إذ كُنّ يحملن ثم يجهضن الأجنّة بمساعدة بعضهن بعضا حتى ذاع صيتهن بين الناس "**وما يزال عنوان إقامتهن** "**قرب الجسر، الجسر الذي صار اسمه جسر بنات يعقوب**" [2]. وبذلك نعود إلى عنوان الرواية وإلى الأحداث الأولية التي روت قصة بنات يعقوب، وبتلك الإشارات الاستباقية يخلق السارد جوا من التشويق والانتظار، رابطا بين البداية والنهاية، ونرى أن السارد لجأ إلى هذا الاستباق الزمني مؤكدا أهميته ومركزيته في المتن الحكائي.

رابعا: تيار الوعي

يعرض تيار الوعي الجوانب النفسية للتصورات الإنسانية، ويظهر ما هو خفي في باطنها الشعوري ويكشف الجوانب المعتمة في النفس. ومصطلح تيار الوعي أو الشعور" استعمله لأول مرة

---

[1] حميد، حسن، **جسر بنات يعقوب**، 274.

[2] **نفسه**، 330.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وليام جيمس كمصطلح في علم النفس وعرفه، بأنه جريان الذهن الذي يفترض عدم الانتهاء والاستواء"[1] .

ويعد تيار الوعي من أبرز التقنيات السردية، وهو يعبر عن الانسياب المتواصل للأفكار والمشاعر داخل الذهن، وهذا يبرز بشكل أكبر في الرواية الذاتية التي صورت الأحاسيس والانفعالات والذكريات، والذي يدور في فلك الأنا الفردية [2] .

ويبدع السارد حين يشرك القرّاء معه في تجربته الذاتية، ويطلق العنان (للأنا) الذاتية في التعبير عن تصوراتها، التي قد تلتقي مع الأنا الغيرية أو تشاركها التجربة.

ويظهر تيار الوعي بشكل بارز في قصة (عراة على ضفة النهر)، فالقصة من بدايتها إلى نهايتها قامت على تيار الوعي بانفعالاته الحزينة الشجية،يكثر فيها من وصف مشاعره المنسابة،بكلمات مليئة بالحزن والأسى، إلى أن يخاطب صديقه الذي استشهد أمام عينه على يد المحتل، فيقول له:

"**قلت يا شوقي إنهم لن يقتولك.. قلت وإن؟ قلت الحياة عندهم كالموت. قلت وإن؟.. لتذق يا شوقي ذق ذق**"[3].

يمثل الخطاب السابق صورة من صور الألم النفسي الساخر، المختلط بصورة تبدو هذيانية تكشف عن واقعه الأليم وأزمته النفسية، إذ إن رواية أو قصة تيار الوعي تعبر عن أزمة الإنسان

---

[1] لونيسي، الصالح، **تيار الوعي في رواية التفكك لرشيد بوجدرة**، 12، رسالة ماجستير، جامعة الحاج خضر– باتنة، الجزائر، 2012م.

[2] ينظر، زيتوني، لطيف، **معجم مصطلحات نقد الرواية، 66**.

[3] أبو أصبع، صالح، 71.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المعاصر في خضم التحولات والتطورات التي شهدها عصره ساخرة منه ومن حياة الإنسان الحديث[1].

ويلجأ القاصّ إلى السرد بصورة هذيانية – وهو أحد أساليب تيار الوعي– "من خلال جعل الشخصية الرئيسية أو سواها تفصح بتلك الصورة، لأن تلك الطريقة تتيح لمن يهذي، أن يتحدث كما يشاء حيث تصل الشخصية إلى ذروة التجربة الإنسانية مما يدفعها إلى القول بشكل شبه جنوني" [2].

وهذا ما يجعلها تسير في تقطعات ذهنية لا يغلفها منطق، فنلحظ تلك التقطعات التي تصوره قصة تيار الوعي المتسم بالاستمرارية والانقطاع، وهذا ضد عنصر الحبكة التي تعتبر التسلسل المنطقي للأحداث هو ركيزتها، والذي شملت عليه الرواية الكلاسيكية وبذلك تخلو من المفهوم التقليدي للحبكة القائم على ترتيب الأفكار" [3].

ونمثّل على نص آخر من القصة نفسها، فيقول السارد:

"**ورموني على الضّفة الأخرى.. مازلت أسمع قهقاتهم وصوت أخي يقول :أين الدّبابة؟ فابتسمت بألم، وأبي عاد يسألني عن المصلى، تذكّرت صاحبي الّذي مات، وارتميت أتنفس بعمق تحسّست جسدي فوجدت نفسي عاريا على ضفة النهر**" [4].

يصف السارد معاناته من قبل العدو الصهيوني وإهانته وطرده إلى الضفة الأخرى عاريا ذليلا، وهنا يبدأ السارد بالاسترجاع التكراري المختلط بتيار الوعي المنبعث بالحنين إلى ضفة

---

[1] ينظر، **خليل، سليمة، تيار الوعي، الإرهاصات الأولى لرواية الجديدة**، مجلة المخبر، جامعة محمد خضير– بسكرة، عدد 7، 2011م، 190.

[2] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[3] **نفسه**، الصفحة نفسها.

[4] أبو أصبع، صالح، 73.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوطن، ضفة الأهل حيث مازال يسمع صدى سؤال أخيه المتكرر عن هديته (الدبابة)، وسؤال أبيه عن المصلى، وتذكر صاحبه شوقي المقتول.

ونرجّح أنّ السّارد قد عمد إلى تكرار هذه الصورة في القصّة كنوع من "التذكيرات لتعديل دلالة الأحداث الماضية، وذلك إما بأن تعمد إلى ما لم يكن دالا فتجعله دالا، وإما بأن تدحض تأويلا أوّليا، وتعوّضه بتأويل جديد" [1]. ونرى أنه لجأ إلى ما ذكرناه بجعله دالا، إذ إنّ سؤال أخيه عن الدبابة يأتي نوعا من التأمل والانتظار لعودة المشردين إلى بلادهم منتصرين على متن دبابة تجتاز تلك الحدود بجيوشها العربية القوية، وسؤال أبيه عن المصلى استنكارا لصمت العرب والمسلمين عن ضياع المقدسات الإسلامية، فالمسألة لم تعد مسألة السارد الذيُ طرد إلى الضفة الأخرى (ضفة الشتات)، إنها مسألة شعب برمته يعيش في المنفى وينتظر يوم التحرير والعودة.

ويبرز تيار الوعي أيضا في رواية (الضفة الثالثة لنهر الأردن)،بل إن الرواية برمتها لا يظهر فيها إلا صوت السارد نفسه ، واصفا مشاعره وغربته وآلامه، لقد أبدع السارد في هذه التقنية والتي سيطرت على أجواء الرواية، "ذلك لأن الوصول إلى كتابة تيار وعي فنيّ تحتاج إلى صدق معرفي وصدق فني معاً، وإلى إتقان لكتابة (المونولوج) الداخلي أولاً، وليس إلى تحرير اللغة والتعبيرات الذاتية لدى الكاتب؛ لأن النص القصصي يظلّ نصّاً ينظر إلى الخارج دائما"[2].

روت هذه الرواية أحداثا واقعية بلغة رومانسية خيالية، سجلها السارد بضمير المتكلم، حيث نقلنا معه كقرّاء في رحلته وأسفاره وغربته ورجوعه وحبه، بأسلوب شيّق منذ البداية، تتخللها اللغة الشعرية المبدعة والتكثيف الصوري والرمزي، وهي ذات خطاب جديد في شكله، إذ تبتعد عن

---

[1] المحمود، صفاء، **البنية السردية في روايات خيري الذهبي (الزمان والمكان)**، 120، رسالة ماجستير، جامعة البعث، العراق، 2010م.

[2] الأنصاري، عبد الواحد، **تيار الوعي حكاية مدرسية**، نوافذ، 3، مايو، 2008م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوصف المباشر في سرد الحكاية الفلسطينية القائمة على النحيب والتفجع، ويعرض صورةً إنسانية لإنسان فلسطيني تعرض لقسوة النظام السياسي سواء في البلاد العربية أم الأجنبية.

وهي تبدأ برسالة من السارد/ الروائي لحبيبته دانا البولندية، استخدم لغة الزمن المستقبلي للتعبير عما حصل معه في الماضي، وقد احتل هذا الأسلوب حيّزا كبيرا في الحكاية، مما يشعرنا كقرّاء أنّ الزّمن يتيه ويختلط علينا، وقد استطاع ببراعة أن يشركنا معه في تنقله عبر البلاد وفي وصفه الدّقيق للمشاعر الإنسانية عبر بناء هرميّ متطوّر، مخبراً حبيبته منذ البداية أنّه سيخرج من هذه المدينة –دون أن يحدد عن أيّة مدينة يقصد– لاجئا إلى تقنية تيار الوعي، واصفا ذكرياته القاسية، من خلال تصوير زمني متسارع، مستخدما لغة شعرية ورمزية مع تكرار مكثّف للألوان خصوصا اللون الأصفر وغيره من الألوان مثل: الأزرق والرمادي والبرتقالي والأخضر والأبيض.

يقول واصفا معاناته وآلامه:

"**وأندفع كالمجنون نحو الجبال المجاورة أعوي أعوي على الناس والطرقات والقمر وعلى الينابيع البرية والعصافير والشجر.. أعوي على كل شيء**"[1] .

ونلمح انسياب شعوري يائس من خلال تلك الكلمات التي تصف حاله، وهنا يظهر المونولوج الداخلي المباشر، أحد فروع تيار الوعي "إذ تقوم الشخصية بتقديم ما يصطرع بداخلها وإفراغ ما يحتويه وعيها وبذلك تلغي كل الحواجز بين القارئ والشخصية؛ لأنها تقف على مكنونات وخلجات نفسها" [2].

---

[1] البرغوثي، حسين، **الضفة الثالثة لنهر الأردن**، 16.

[2] خليل، سليمة، **تيار الوعي، الإرهاصات الأولى لرواية الجديدة**، مجلة المخبر، جامعة محمد خضير– بسكرة، عدد 7، 2011م، 186.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويظهر تيار الوعي في رواية (نهر يستحم في البحيرة)، بشكل بارع مبطن حين عكس السارد انفعالاته وخيبة أمله على الجندي الياباني ،لكنه في هذا النص يأخذ دور الإنسان الصارخ الذي يعلن فيه انفجاره من هول ماحدث ،فيقول:

"يا عبد الكريم الحمد، كيف تحملت هذا الصقيع طوال هذي المدة، كيف قضيت عمرا آخر في الثلاجة، ألم يقشعرّ بدنك؟ أنت الذي عشت عمرك كله في الأغوار الحارة... أنت الذي هرب من البرد والصقيع من أجل نهاية أكثر دفئا. جئت متسللا لتموت فوق تراب وطنك.. عندما شعرت باقتراب دنو الأجل، جئت لتموت هناك فوق أنقاض دار الأمان مثلما تموت الغزلان.. آه أيها الخال يتسلل وجعك على بدني... ولقد آن لك أن تنعم بدفء الأرض وحنو الأرض"[1].

ويمكننا تمثيل خطابه بالرسم الآتي:

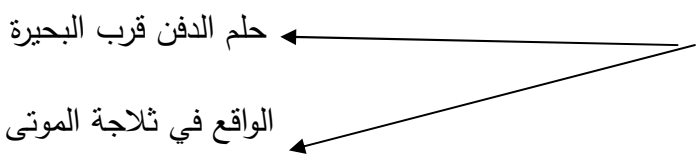

يطلق السارد كلمات دامية مخاطبا خاله بعد أن مكث سنوات في ثلاجة الموتى لدى إسرائيل، فقد كان أدنى حلمه هو العودة إلى بلاده، إلى مكان الطفولة والذكريات، والموت قرب بحيرة طبريا التي تسكن ضلوعه، كان يأمل أن يعود إلى المكان الأم الذي شوّه الصهاينة ملامحه وحاولوا العبث بجغرافيته، فكانت الرواية تقوم على تيار وعي مشحون بالألم والقهر والألم والخيبة.

[1] يخلف، يحيى، 120- 121.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **الحوار**

هو العنصر الأكثر جلاء في العناصر السردية، إذ لا تكاد رواية أو قصة تخلو من عنصر الحوار، وبه يكشف عن طبائع الشخوص ومكنوناتها التي تساهم في تطوير الأحداث ووتجعلنا نكشف جماليات المكان والزمان.

والحوار قريب الصلة بالشخصيات التي يقدمها السارد، والذي يحدد علاقته بالشخصية ليتعاطف معها القارئ؛ فيزدريها أو يحقر من شانها أو يعجب بها. إذ به يستطيع السارد بعبقريته وصياغته اللغوية والفنية أن يقنع القارئ بحكايته من خلال الصدق والمنطق، فيستطيع القارئ الولوج إلى البواعث النفسية والعقلية والانفعالية، وبذلك يتضح دور الشخصية بشكل أشمل[1] .

"فترتفع بذلك الحجب عن عواطف الشخصية وأحاسيسها المختلفة وشعورها الباطن تجاه الحوادث والشخصيات الأخرى، وهو ما يسمى عادة بالبوح أو الاعتراف، على أن يكون بطريقة تلقائية"[2].

ويقسم الحوار إلى حوار داخلي وحوار خارجي:

خامسا: الحوار الخارجي

"هو الحوار الذي تتناوب فيه شخصيتان أو أكثر في إطار المشهد داخل العمل القصصي بطريقة مباشرة، أو المشاركة مع الآخرين في الحوار، إذ ينطلق الكلام موجها من شخصية لأخرى في سياق حدث القصة وحبكتها، وهو أكثر أنواع الحوار تداولاً وانتشاراً في الأدب القصصي، إذ لا تطرأ على كلام الشخصيات أية تعديلات أو تغييرات، وإنما ينقل الكلام نقلاً مباشراً وحرفياً، ويتبادل

---

[1] ينظر، الواحاتي، محمد رمضان، **توظيف لغة الحوار في بنية الخطاب السردي**، المؤتمر الثاني للقصة خصوصية الخطاب للسرد عند كتاب الصعيد، 21-11-2013م.

[2] نجم، محمد يوسف، **فن القصة**، 118.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأشخاص على الإرسال والتلقي، بحيث يترك السارد الشخصيات داخل النص تظهر وتتحرك بنفسها دون تدخل" [1] .

ويكشف الحوار في رواية (جسر بنات يعقوب) عن نفسية يعقوب الدنيئة، وغالبا ما يكون يعقوب أحد طرفي الحوار سواء أكان بينه وبين بناته أم غيرهم من شخوص الرواية، مما جعلنا نكتشف شخصية يعقوب الاستغلالية عبر المتن الحكائي ومن خلال حواره مع إحدى بناته عندما طلبت منه الاهتمام بمنظره الرديء وضرورة التزين أمام أهل القرية، فيقول:

"**لا أريدهم أن يطمعوا بي يا بنتي**

وتسأله: كيف؟ فيقول: إنني بمنظري هذا أكسبهم للأبد

وتكرر ابنته سؤالها: كيف؟ فيقول يعقوب: هم أهل عاطفة يشاهدون فينفعلون" [2] .

إن النص السابق يفضح مكنون يعقوب ورؤيته اليهودية، وإيمانه بالفكرة التي يحملها، ألا وهي السيطرة على المكان والإنسان وتسخيرهما طوعا له-كما ذكرنا سابقا- عبر استعطافه الناس والتّظاهر بالذّلّ والمسكنة واللعب على وتر العاطفة لإثارة مشاعر الآخرين.

ويُؤتى بالحوار كنوع من إيصال مشاعر الشخصية ومنظورها ورؤيتها، كما ظهر في نهاية رواية (نهر يستحم في البحيرة)، إذ عبّر الكاتب عن غضبه في حوار أجراه بين السيد أكرم وبين الجندي الصهيوني بعد تلك الأحداث المتوترة والمتصاعدة في الرواية، وبعد أن رأى من ظلم الواقع ما رأى، يقول:

"**معكم جريح؟**

---

[1] نجم، محمد يوسف، **فن القصة**، 118.

[2] حميد، حسن، 139-140.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تساءل الجندي بتحفز، فأجابه السيد أكرم:

-لا شأن لك بذلك، أوراقنا صحيحة.

-تساءل الجندي مرة أخرى، وقد ابتعد خطوة:

-هل تحملون سلاحا..

-ارتسم القلق على وجه مجد، أما السيد أكرم فقد صاح بغيظ:

-أجل.... معنا قنبلة.

رفع الجندي سلاحه: أين هي...

صرخ السيد أكرم في وجهه قائلا:

القنبلة موجودة داخل صدري، في أعماقي....

حذار من الاقتراب، فقد تنفجر بين لحظة وأخرى"[1].

وبهذه الكلمات يختم السارد روايته، إذ يجعل خاتمة الحوار مفتوحة ملغومة بالنبض الغاضب الذي عبر عنه من خلال حوار السيد أكرم/الفلسطيني مع الجندي الصهيوني، إذ نلمح بكلمة (قنبلة) دعوة إلى المقاومة وعدم تصديق اتفاقية السلام وهذا ما تؤكده كلمة (حذار)، إذ توضح عدم توفر الأمان أو السلام بين الجانبين: الفلسطيني والكيان الصهيوني.

وقد يكون الحوار الخارجي في الرواية حوارا عاديا، يؤتى به لاستكمال أحداث الرواية وتطويرها وكشف أيديولوجية السارد التي يعبر عنها من خلال حوار شخوصه، وهذا يظهر في رواية (عبور

---

[1] يخلف، يحيى، 143-144.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النهر)، تلك الرواية السياسية ذات النبض الواقعي، صيغت بلغة وصفية تشبه أحداثها وصورها المتتابعة فيلما سينمائيا يدور حول موضوع واحد، ألا وهو عرض بطولات الفدائيين الفلسطينيين ومقارعتهم المستمرة للاحتلال. رسمها المفكر السياسي (السارد) أحمد قطامش بلغة مجازية فيها الكثير من التشبيه والاستعارات، والتي تحمل في طياتها معاني الحكمة والرؤى الفلسفية والثقافات المتعددة استنطقها على لسان شخوصه.

ونرى أنها تحوي على فقر فني روائي، إذ إنّ هذه الرّواية هي التجربة الأولى للسارد، بدا فيها منظوره السياسي الذي عبر عنه بحوار تلقائي دفع عجلة الأحداث التي دارت بين أبطال الحكاية، وهو حوار غالبا ما يجري على ألسنة المقاومين لأجل الاتفاق على عملية القتال أو العبور أو زرع التفجيرات وما شاكل ذلك، يقول السارد على لسان أحدهم:

-لا نستطيع عبور النهر الليلة، أين تقترح أن ننسحب؟

- توغلوا جهة المدينة.. تختفي آثاركم في سلسلة الجبال

-اعرف قصاصي الأثر، فهؤلاء أشد ذكاء من كلاب الصيد.

-استفيدوا من الشوارع المعبدة فهي لا تترك أثرا..." [1] .

ونلمح من خلال السابق، الخطاب النضالي لدى السارد الذي يستدعيه بين الوصف أو الحوار وتوالي الأحداث، وغالبا ما يطلّ علينا السارد الروائي بدور الروائي المشارك، وأحيانا السارد العليم من خلال وصفه للأماكن وللشخصيات والحديث عن مكنونها ورؤيتها وطبائعها وصفاتها، فتارة يعقد حوارا وتارة يوقفه ويكمل الحكاية من خلال حوار مستمر بين الشخوص الفدائية، مثل: أبي

[1] قطامش، أحمد، 42.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عويس صديق الجد (عماد) نقلها السارد بأسلوب تقليدي قديم استخدمه الروائيون الفلسطينيون الأوائل قبله.

سادسا: الحوار الداخلي

يؤتى به عندما تلوذ الشخصية إلى الإفصاح أو البوح عما يجول في خاطرها من عذاب ولوعة وشعور بالقهر والمأساة، مما يتيح معرفة خبايا الشخصيات في لحظة اعتراف تتم بشكل انسياب لغوي نفسي.

وهي أفكار لم تخضع للتنظيم المنطقي" مثل التكنيك الذي يستخدم في القصص بغية تقديم المحتوى النفسي للشخصية والعملية النفسية لديها دون التكلم على نحو كلي أو جزئي في اللحظة التي توجد فيها هذه العمليات في المستويات المختلفة للانضباط الواعي، وقبل أن تتشكل للتعبير عنها بالكلام على نحو مقصود[1].

وللحوار الداخلي (المونولوج) أسماء عدة، فقد سمي الحوار غير المباشر: الحوار الفردي أو الصامت، ويُسمّى أيضاً " الحوار مع الذات أو مع النفس، أي أن الكلام ليس موجهاً لأشخاص آخرين، وإنما حديث الشخص مع نفسهِ أو تقديم المحتوى النفسي للشخصية واعتراف الذات للذات، وهذا النوع يُمثل الصدق والاعتراف والبوح، ويكون هذا النوع من الحوار دائرياً ترجيعياً ينطلق من الذات ويعود إليها مباشرةً، فهو من هذه الناحية متكامل، مكتفٍ بذاته، والشخصية فيه تتساءل ولا تحتاج إلى جواب، إلاَّ أن يأتي ذلك من تلقاء نفسهِا أو من داخلها" [2] .

---

[1] سليمان، بسام خلف، **الحوار في رواية الإعصار والمئذنة لعماد الدين خليل –دراسة تحليلية**، مجلة كلية العلوم الإسلامية، عدد 13، مجلد 7، 2013م.

[2] الواحاتي، محمد رمضان، **توظيف لغة الحوار في بنية الخطاب السردي**، المؤتمر الثاني للقصة خصوصية الخطاب للسرد عند كتاب الصعيد، 21-11-2013م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويقسم المونولوج إلى ثلاثة أقسام: أولا: المونولوج الواعي أو الذاكرة الإرادية الذي يشكل تداعيات تظل مشدودة إلى الشعور ومحكومة بالوعي. ويتخذ ثلاثة مظاهر: هي التذكّر والنجوى والتخيل.

ثانيا: المونولوج اللاوعي أو الذاكرة اللاإرادية: يشكل الدفق التلقائي للسيولة النفسية من غير ضوابط أو روابط ومن مظاهره الحلم الصريح وهذيان الذاكرة وتداعيها الحر.

ثالثا: المونولوج الإنشائي أو فقدان الذاكرة، وهو الصراع المتجدد مع الهو الحاضر والمخزون النفسي الملغوم بالعقد والمكبوتات والتطلع نحو التحرر والخلاص من المستقبل [1] .

ويظهر الحوار الداخلي على نحو واضح في قصة (عراة على ضفة النهر)، حتى ليكاد يمتزج الحوار الداخلي مع الخارجي، فيحاور السارد نفسه، ثم يُدخل صوتا آخر، ألا وهو صوت شوقي صديقه، ويبدو أن السارد يلتحم مع شخصية شوقي، فيبدوان شخصا واحدا حينا، ويفترقان حينا آخر في أثناء السرد الحكائي، وكأن الكاتب يعدد وجوه مأساة الفلسطيني عبر الشخوص المروية، ويجري السارد حوارا خارجيا داخليا يناجي فيه ربه، مستخدما التناص الديني بعد أن وقع بين يديّ المحتلّ، يقول:

"**يالله يالله احمني احمني يارب... سأصلي لك في المسجد الأقصى الذي باركنا حوله.. بركاتك تندس يا رب احمني**"[2].

وفي أثناء تعذيب المحتلين له، يستذكر صورة أبيه وخوفه عليه، فيناجي نفسه ويحاورهم عن بعد، فيقول:

---

[1] سليمان، بسام خلف، **الحوار في رواية الإعصار والمئذنة لعماد الدين خليل –دراسة تحليلية**، مجلة كلية العلوم الإسلامية، عدد 13، مجلد 7، 2013م.

[2] أبو أصبع، صالح، 72.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"يا أبت إني أحبك، سرقوا نقودك كيف ستعيش؟ أين أخي يا أماه؟ أين الدبابة؟ سيحضر يا بني؟ أنا يا أبتي أموت هنا... آه لو يطلقون النار!!"[1].

ونرى أن القاص يستخدم تيار الوعي اللاإرادي ويأتي على شكل هذيان أو تلجلج في الحوار، ليشكّل صراعا داخليا بين أمنيته بالموت، للتخلص من هذا العذاب، وبين خوفه على أهله بعد وفاته.

ويأخذ الحوار الداخلي شكل مناجاة النفس، تقديما للمحتوى الذهني والعمليات الذهنية للشخصية، مباشرة من القارئ من دون حضور المؤلف، الذي افترض الجمهور افتراضا صامتا وذلك لزيادة الترابط، ولتوصيل المشاعر والأفكار المتصلة بالحبكة الفنية وبالفعل الفني. والفرق بين المونولوج والمناجاة أن الشخصية تفكر وحدها في المونولوج وتفكر بصوت عال في المناجاة [2].

ويظهر هذا الشكل في رواية (الضفة الثالثة لنهر الأردن)؛ إذ يقول السارد بعد طول غربة وعذاب: "**ورقة فقط، حتى لا أتشرد بين الدول يا بشر ورقة يلزم ورقة وليس زوجة !.... غفوت في القطار اليوغسلافي وحلمت أحلاما متشابكة وقلقة... غريق يا جماعة هيه! غريق**"[3].

يعكس الحوار الداخلي السابق، عمق المأساة والغربة التي ملكته، إذ تعبّر – ولو بشكل فردي– عن معاناة المغتربين الفلسطينين بين دول العالم، حتى إنه صار يناجي نفسه من شدة الألم والقهر.

ويؤتى بالحوار الداخلي للتنفيس عن حزن عميق وألم كبير يتغلغل في نفس الشخصية المحاورة، وهذا ما أظهره أبو علاء منصور في روايته السيرية حينما تحدّث عن أمه التي احتلت جانبا كبيرا في سيرته وقد بكاها بكلمات شجية عند موتها، فقال:

---

[1] أبو أصبع، صالح، 72.

[2] سليمان، بسام خلف، **الحوار في رواية الإعصار والمئذنة لعماد الدين خليل –دراسة تحليلية**، مجلة كلية العلوم الإسلامية، عدد 13، مجلد 7، 2013م.

[3] البرغوثي، حسين، 94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"يا لسخرية القدر يا أمي

يا لروعته.. قدّم لك خدمة جليلة... اختطفك الموت ولما تبلغين الخمسين، بحكمته جنّبك معاناة ما حلّ بأسرتك بعد رحيلك

يا لقسوته أيضا! فجعنا بفقدانك"[1].

تُظهر هذه النجوى، مدى قدر أمه عنده وحبه العظيم لها، إذ كانت الضلع الأقوى الذي يحمي العائلة، وهذا يعكس صورة المرأة الفلسطينية القوية التي لها دور كبير في لملمة شتات الأسرة، ويظهر المتن الحكائي مدى قسوة الدنيا عليه، وغربته العاطفية حين رحلت أمه عن الحياة، فعبّر عن أسفه بالجمل العاطفية السابقة.

سابعا: الوصف

يقوم الوصف في الرواية مكان الصورة البصرية في السينما، فيلجأ إليه السارد واصفا أحداثا أو أماكن أو أشياء أو أشخاصا، وعندها يوقف السارد سرده؛ لأن " الوصف يقتضي عادة انقطاع السيرورة الزمنية ويعطل حركتها" [2]، لتوجيه البوصلة حول حدث يريد السارد إبرازه أو كشف دلالاته في الحكاية، "فيكون الوصف خلاقا؛ لأنه يسير ضد المعنى أو يسبقه" [3].

ويعطي الوصف جمالا وتشويقا في الفضاء الروائي، بينما يتنحّى الحوار الداخلي والخارجي ويمسكان بزمام الأحداث، وعندها يبدأ المتلقي في إذكاء الخيال شارعا في التأويلات.

---

[1] **على ضفاف النهر**، 24.

[2] لحمداني، حميد، **بنية النص السردي**، 76.

[3] **نفسه**، 69.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"ولا رواية دون وصف، وإنه لأسهل علينا كما يقول جيرار أن نتصور وصفا خاليا من أي عنصر سردي من أن نتصور العكس، لأنّ كل إشارة إلى عناصر الحدث أو ظروفه يمكن أن تشكل بداية وصف له" [1].

"وتتحدد وظائف الوصف بشكل عام في وظيفتين أساسيتين: الأولى جمالية: وبذلك يكن الوصف تزييني، وهو يشكل استراحة في وسط الأحداث السردية ويكون وصفا خالصا لا ضرورة له بالنسبة للحكي، والوظيفة الثانية: توضيحية أو تفسيرية: أي أن تكون للوصف وظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكي" [2].

ويكثر الوصف في رواية (الضفة الثالثة لنهر الأردن)؛ خاصة وصف الطبيعة، وتأتي بشكل تزيني رمزي يأخذ طابعا شعريا جذابا، يقول السارد بعد عودته للوطن:

"**وأخيرا لاحت حدود الوطن الضائعة: غابات وجبال مقمرة وفوقي النجوم وخلفي البحر وتحتي الأرض وقدامي جبال الطفولة: كل شيء يقف الآن في كماله. لا ينقصني إلا عيناك يا دانا**" [3].

وهنا يبرز وصف التأثير النفسي، وتبين مشاعر الغربة الروحية في وطنه، فيستذكر حبيبته في آخر خطاب أو نداء لها في الرواية، إذ يقول: "**دانا، وداعا هذا حبيبك فوق الرصيف غريبا ووحيدا ويداه في جيبه**"[4]، فالوصف هنا وصف نفسي للمشاعر المتألمة. ويستأنف حكايته حتى يحاور نفسه، بقوله:

---

[1] زيتوني، لطيف، **معجم نقد الرواية**، 171.

[2] لحمداني، حميد، **بنية النص السردي**، 79.

[3] البرغوثي، حسين، 113.

[4] نفسه، 114.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"**أنت فارغٌ وجبان وبلا قيمة ولا شخصية، انتحر الآن دون خوف ولا تفكير، فالموت الفارغ نهاية لحياة فارغة**"[1].

ويتخذ الوصف شكلا آخر في رواية (النهر بقمصان الشتاء)، التي تروي سيرة جمعية تاريخية للشعب الفلسطيني قبل أن تدنّس أحلامه أقدام الاحتلال، يصفها بأماكنها وشخوصها التي سردت عشقهم ومقاومتهم ونضالهم وصبرهم وتفجعهم وغربتهم وموتهم عبر الزمن الماضي ويترك الزمن المستقبلي مفتوحا لتسطّره الأجيال القادمة.

والجدير بالذكر أن السارد يذكر ذلك في بداية الرواية موضحاً محتواها، فيقول:

"**كتب أشبه بالسير الذاتية لأناس عاشوا الأحداث وعاينوها ووقفوا على معانيها ومغازيها... كتب أشبه بالسير الذاتية لقرى ومدن وأزمان ورواة ورهبان....** "[2].

ويلتحم الوصف المكاني في هذه الرواية مع الوصف الزماني، "فإذا كان السرد يشكّل أداة الحركة الزمنية في الحكي، فإن الوصف هو أداة تشكل صورة المكان ولذلك يكون للرواية بعدان: أفقيٌّ يشير إلى سيرورة الزمنية، وعموديٌّ يشير إلى المجال المكاني الذي تجرى فيه الأحداث عن طريق التحام السرد والوصف في فضاء الرواية"[3].

يستأنف السارد في هذه الرواية حديثه عن قرية الشماصنة بعد الاحتلال الانجليزي والصهيوني، بنضج فني أكبر من روايته (جسر بنات يعقوب)، وبلغة عميقة ذات مغزى مؤثر، وهو بدوره يؤرخ للمكان والزمان الفلسطينيين بوعي المثقف الشاهد، بعينيّ الماضي والمستقبل بوصف دقيق، إذ يلجأ السارد منذ بداية الرواية إلى وصف متنوع؛ يشتمل على أحداث متلاحقة، واصفا

---

[1] البرغوثي، حسين، **الضفة الثالثة لنهر الأردن**، 131.

[2] حميد، حسن، 11.

[3] لحمداني، حميد، **بنية النص السردي**، 80.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمكنة والأزمنة والشخوص بحركاتها وسكناتها بدقة بالغة، إذ يؤرخ السارد لحياة شعب بأماكنه وناسه، وكأنّه ينقلنا إلى زمن بعيد كان يعيشه الفلسطيني بسعادة وهناء، فهو يوقفنا أمام سوق الخالصة واصفا السوق والدكاكين والبضائع والناس، راسما لنا صورا من صور الحياة الاجتماعية الفلسطينية آنذاك. ثم ينقلنا إلى مكان ديني تحدث عنه باستفاضة ألا وهو الدير بقصص راهباته وطقوسهن مستندا إلى عنوانات هامشية، مثل تذييل حاشية، ويذكر واصفا أسماء قرى فلسطينية: كالعباسية والشماصنة، وغير ذلك.

ويبدو أن الوصف المكاني عند السارد في تلك الرواية لم يكن اعتباطيا، بل إنه يجمع علاقة خضوع وتذلل من المكان للدلالة التي يبغي الكاتب إبرازها وتوضيحها، وهذا يوجهنا إلى دراسة المكان من ناحية سميولوجية فعلية تأخذ أبعادا رمزية لها علاقة بالمستوى الاجتماعي والنفسي"[1].

وقد يلجأ السارد إلى وصف دقيق رمزي، لإيهامنا بأن ما حصل كان حقيقياً، ولإيقاعنا في شراكه منظوره السلبي، وهذا يظهر في منتصف رواية (غريب النهر) ذلك الوصف القائم على التشويق والألغاز والمفاجآت؛ وقد نسج السارد الرواية عبر بناء هرميّ تصاعديّ يكشف لنا شيئا فشيئا عن رموز مختبئة شيّقة، صاغها بلغة بارع متمرس، لوّنها بالحلم الفلسطيني والهم الفلسطيني.

وقد وصف تلك الأماكن بدقة "وهذا شيء بارز في الروايات الجديدة، إذ يميل الوصف إلى الدقة المتناهية في قياس المسافات بحثا عن هندسة حقيقية للمكان؛ ليؤكد فكرته ويدمجنا في صلب الحكاية محاولة منه لإقناعنا بتصديقها"[2].

---

[1] لحمداني، حميد، **بنية النص السردي**، 70.

[2] نفسه، 81.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والجدير بالذكر، أن الرواية السابقة تقوم على لغزين بارزين: الأول: الموت الذي يصيب أبناء العائلة في الشهور الثلاثة: كانون الثاني وشباط وآذار، والثاني: خرائط الدفائن ودلالتها وعلاقتها المكانية بمحور القصة الأساسي.

يحيطها لغز أكبر، هو قصة ذلك الغريب شوكت مصطفى أبو حلة، الذي يكشف الأسرار حينما يعرض على عمه وأبنائه خارطة دفائن عتيقة مصفرة تحمل رسوما وخطوطا ورموزا بحبر أسود، رسم في الأولى خطان متوازنان لسكة حديد وصورة شمس وأذن ونهر! وشرعوا بالبحث عن هذه الدفائن في منطقة المفرق، وحاولوا فك بعض رموز الخريطة، إذ توقع وجود مياه جارية يمكن التصنت عليها بالأذن، وأحضروا الجهاز وحفروا حتى رأوا الصندوق وفتحوه، فرأوا فيه تمثالا برونزيا عتيقا، وآخرا من الحجر الجيري، وقطعا نقدية يحمل بعضها كتابات إغريقية ورومانية وبيزنطية، وورقة مطوية تحيل على دفينة ثانية في منطقة أريحا بالقرب من قصر هشام بن عبد الملك مكتوب عليها بالتركية (صحراء البحر الميت)، وبعد أخذ تصريح إلى فلسطين/ أريحا يشرع آل حلة بالحفر قرب قصر هشام، فوجدوا صندوقين فيه من القطع النحاسية والذهبية وقطع تراثية صغيرة وكبيرة تعود إلى عهود التعاقب التاريخي على بلاد الشام ومجسما فضيا للسيد المسيح مصلوبا وأشياء أخرى.

والجدير بالذكر، أنهم وجدوا في قعر الصندوقين خريطةً تحيلهم على دفينة ثالثة بالقرب من سكة حديد اللد التي تمر في أراضي العباسية، إذ ذهبوا إليها مكللين بالحزن لهول ما رأوا ولم يحفروا في أراضيها هناك، وبذلك تنحا الأحداث السردية نحو حدث محوري يقوده إلينا السارد بمنظوره، ألا وهو: حلم العودة إلى العباسية، فلم يأتِ هذا الوصف الدقيق لهذه الأماكن اعتباطا بل كان ذا مغزى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتتابع المفاجآت وتتوالى الأحداث المتوترة، فيكتشف اسمعين أن شوكت /أخاه لم يمت، وأن ابنه رزاق وابن أخيه مصطفى أخفيا عليه خبر حياته بعد أن بلغ من العمر مائة وأربع سنوات، بل إنه أوصى بدفنه في أراضي العباسية، وبعد دفنه على الضفة الغربية للنهر؛ تقوم خلود ابنة اسمعين بتجليد "**خارطة مكان دفن جثمان عمها مصطفى، وخارطة الدفينة الأخيرة في أراضي قرية العباسية**"[1].

وبهذه الكلمات الأخيرة، ينهي السارد حكايته التي وصفت الخرائط والأماكن بدقة حيث تأخذنا إلى عالم التأويلات لكشف دلالات تلك الرموز، فنرى أن الدفينة الأولى: تمثل شتات الفلسطيني وتهجيره في البلاد، والدفينة الثانية تعبّر عن تعزيز فكرة العودة للوطن والتاريخ الفلسطيني، والخريطة الثالثة تمثل ضرورة إحياء القرى المهجرة الفلسطينية (العباسية) والعودة إليها وعدم القبول ببديل آخر، أما خريطة دفن مصطفى الرابعة، فتمثل المكان البديل المؤقت الذي ينتظر الوعد الأكبر، ألا وهو العودة إلى الوطن والدفن فيه، وهكذا يبقي السارد باب الأمل مواربا للدخول إلى المكان الحلم والرجوع إلى القرى المهجرة يوما ما.

[1] ناجي، جمال، **غريب النهر**، 215.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخاتمة

- يظهر المكان في عنوانات الأعمال السردية بشكل واضح، وتبرز فيه ظاهر الحذف والتغليف الرمزي مما يفتح نافذة واسعة لتأويلات عديدة في الدلالات.
- سيطرت على الأعمال السردية عاطفة الغربة والحنين والشوق الكبير للعودة إلى الوطن، خاصة بعد أحداث بعد النكبة والنكسة.
- ارتباط نهر الأردن بدلالة العبور والعودة، واعتباره الخط الفاصل بين الداخل والخارج وبين الحنين والغربة.
- مقاومة الفلسطيني للاحتلال على ضفاف نهر الأردن، واتخاذه نقطة عبور ومقاومة لدى الفدائيين للقيام بعملياتهم البطولية.
- خيرات نهر الأردن واستفادة الأهالي من مياهه وأسماكه، وسيطرة الاحتلال عليه، وإحكام قبضتها عليه بعد اتفاقية أوسلو.
- اكتساب نهر الأردن دلالة الخصب والعطاء المتجدد.
- وصف جمال بحيرة طبريا وخيراتها، وارتباط ذلك بذاكرة الفلسطيني المسلوب من العودة إليها.
- اكتساب نهر الأردن دلالة التكفير وغسل الذنوب.
- بروز صور الجسر بدلالتها السلبية في حياة الفلسطيني قديما وحديثا.
- إبادة الصهاينة للقرى الفلسطينية – الواقعة بالقرب من نهر الأردن –وتغيير معالمها كسمخ والعباسية والشماصنة وغيرها وحلم الفلسطينيين بالعودة إليها.
- بدت الصورة الاجتماعية مشرقة سعيدة حيث قام الفلسطينيون بأعمالهم المعيشية حول ضفاف نهر الأردن آمنين قبل دخول الإنجليز والصهاينة للبلاد.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- اكتساب النهر دلالة دينية من خلال ذهاب الأهالي إليه والتوجه إلى الله عنده بالدعاء والبكاء وطلب الحاجات.
- يغلب الزمن الاسترجاعي في السرد الروائي، والذي تناول استرجاع النكبة والنكسة بشكل واضح، بينما ظلّ الزمن المستقبلي مفتوحا متأرجحا بين الأمل والألم.
- تعددت صور الشخصيات المرتبطة بالمكان، فظهرت الصور المرتبطة بالمكان بشكل أكبر كصورة المقاوم والغريب الفلسطيني، بينما بانت صورة الشخصية المظلمة كاليهودية والخائنة بشكل أقل.
- تنوعت الأعمال السردية بين السيرة الذاتية والغيرية والواقعية، لكنها جنحت نحو الواقعية بشكل أكبر، وتفاوتت في نضوجها الفني ومستواها التقني واللغوي.
- تفوق تقنية الاسترجاع الزمني في حضورها على بقية التقنيات الزمانية الأخرى، ويأخذ المشهد صورة الحزن والألم، ويأتي الاستباق مقتصرا على رواية واحدة فقط، هي (جسر بنات يعقوب) .
- حملت تقنيتا تيار الوعي والحوار الداخلي طابع الحزن والقهر والألم، بينما تعددت أشكال الحوار الخارجي، وتنوع الوصف بين وصف الأحداث والشخصيات والزمان، لكنه اتجه بشكل بارز نحو وصف المكان.

التوصيات:

- يُوصى بدراسة نهر الأردن في الشعر الفلسطيني.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم**

- **(التراث الإسرائيلي)**

1. **الكتاب المقدس، الإصحاح الثالث –عزرا**، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، د، ط، د، م، د، ت.
2. إبراهيم، عبد الستار، **الإنسان وعلم النفس**، دار المعرفة، (د، ط)، 1978م.
3. الأحمر، فيصل، **معجم السيميائيات**، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010 م.
4. إسماعيل، عز الدين، **التفسير النفسي للأدب**، دار العودة ودار الثقافة، (د، ط)، (د، ت) .
5. أبو أصبع، صالح خليل، **قصص بلون الحب أربع مجموعات قصصية**، (د، ن)، (د، ط)، 2000م.
6. أيوب، محمد:
   - **الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة بين 1973 – 1994**، دار السندباد للطباعة والنشر، ط1، 2001م.
   - **الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة الغربية وقطاع غزة1967 . 1993**، (د، ن)، (د، ط)، (د، ت) .
7. باختين ميخائيل، **الخطاب الروائي**، ترجمة، محمد برادة، دار الفكر للدراسات والتوزيع، ط1، 1987م.
8. البارودي، محمد، **الرواية والحداثة**، دار الحوار، ط1، اللاذقية، 1993م.
9. باشلار، غاستون:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسا، مؤسسة الجامعة للنشر والتوزيع، ط2، 1984م.
- **الماء والأحلام دراسة عن الخيال والمادة**، ترجمة علي نجيب إبراهيم، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، 2007م.

10. بحيري، صلاح الدين، **جغرافية الأردن**، مطبعة الشرق، ط1، عمان– الأردن، 1973م.
11. بدوي، عبد الرحمن:
- **مدخل جديد إلى الفلسفة**، وكالة المطبوعات، د، ط، الكويت 1979م.
- **موسوعة الفلسفة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د، ط، بيروت–لبنان، 1984م.

12. البرغوثي، حسين، **الضفة الثالثة لنهر الأردن**، بيت الشعر الفلسطيني، ط2، 2006م.
13. بركات، محمد، **مشكلات المياه العربية الأزمات والصراعات والحروب**، دار أطلس، (د، ط)، 2006م.
14. بلعابد، عبد الحق، **عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص**، تقديم سعيد يقطين، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2008م.
15. حميد، حسن:
- **جسر بنات يعقوب**، دار الماجد، ط4، 2004م.
- **النهر بقمصان الشتاء**، (د، ن)، ط1، 2005م.

16. الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **نظرية التصوّر الفني عند سيّد قطب**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (د، ط)، الجزائر، 1988م.
17. الخالدي، وليد، **كي لا ننسى (في قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة 1948 وأسماء شهدائها)**، ترجمة: حسني زينة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، 1997م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

18. الخضور، جمال الدّين، **زمن النص**، دار الحصاد للنشر والتوزيع، ط1، سوريا دمشق، 1995م.

19. خليل، إبراهيم، **في القصة والرواية الفلسطينية**، دار ابن رشد، ط1، عمان، 1984م.

20. خليل، موسى أحمد، **موسوعة المحيطات والبحار والأنهار والبحيرات**، دار أسامة، (د، ط)، (د، ت) .

21. الدباغ، مصطفى، **بلادنا فلسطين، (1-11)**، دار الهدى، كفر قرع، (د، ط)، 1991م.

22. الدروبي، سامي، **علم النفس والأدب معرفة الإنسان بين بحوث علم النفس وبصيرة الأديب والفنان**، دار المعارف، ط2، (د، ت) .

23. درويش، محمود، **الأعمال الشعرية الكاملة**، دار العودة، ط14، بيروت، 1994م.

24. أبو ربيع، محمد، **ياقوت النهر**، (د، ن)، (د، ط)، (د، ت) .

25. الربيعي، صاحب، **الأمن المائي ومفهوما السيادة والسلام في دول حوض نهر الأردن**، (د، د)، ط1، 2000م.

26. زيتوني، لطيف، **معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي- إنجليزي- فرنسي**، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2002م.

27. سعيد، ادوارد، **المثقف والسلطة**، ترجمة محمد عاني، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2006م.

28. سلدن، رمان، **النظرية الأدبية المعاصرة**، ترجمة جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر، (د، ط)، 1998م.

29. شاهين، أسماء، **جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2001م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

30. أبو الشباب، واصف، **صورة الفلسطيني في القصة الفلسطينية القصيرة 1948-1973**، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1977م.

31. الشحات، محمد، **سرديات المنفى الرواية العربية بعد عام1967**دار أزمنة، ط1، 2006م.

32. صليبا، جميل، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية** واللاتينية، (ج1-2)، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، (د، ط)، 1982م.

33. ضيف، شوقي، **في النقد الأدبي**، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1962م.

34. طعيمة، صابر، **التراث الإسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن منه**، دار الجيل، (د، ط)، 1979م.

35. طه، محمد علي، **جسر على النهر الحزين**، مديرية الثقافة العامة في وزارة الفنون، ط4، 1996م.

36. طوقان، فدوى، **الأعمال الشعرية الكاملة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1993م.

37. عائب، حبيب، **المياه في الشرق الأوسط الجغرافيا السياسية للموارد والنزاعات**، مكتبة الأسرة، (د، ط)، 2009م.

38. عاصي، جاسم:

- **دلالة النهر في النص، الموسوعة الثقافية**، بغداد، ط1، 2004م.
- **السرد والذاكرة، قراءة في الرواية العراقية**، دار الشؤون الثقافية العامّة، وزارة الثقافة العراقية، (د، ط)، 2013م.

39. **أنساق المعنى قراءات في سرديات عزت الغزاوي**، دار الكتب والوثائق، ط1، بغداد، 201-م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

40. عبد السلام، عادل، **الموسوعة الفلسطينية**، (1-6)، (د، ن)، ط1، 1990م.

41. عصفور، جابر، **الصورة الفنية في التراث النّقدي والبلاغي عند العرب**، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992م.

42. عبد القادر، محمد، **جماليات الرمز والتخييل أوراق نقدية في نصوص إبداعية**، دار الشروق، ط1، 2013م.

43. عبيد الله، محمد، **فلسطين في القصة القصيرة الأردنية من النكبة إلى الانتفاضة**، دار أزمنة للنشر والتوزيع، ط1، 2002م.

44. عطوان، حسين، **وصف البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني**، دار الجيل، ط2، بيروت، 1982م.

45. عطية، أحمد محمد:

- **أدب البحر**، دار المعارف، (د، ط)، (د، ت) .
- **الرواية السياسية دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية**، مكتبة مدبولي – القاهرة، (د، ط)، (د، ت) .

46. علي، فؤاد حسين، **الأدب اليهودي المعاصر**، معهد البحوث والدراسات العربية، (د، ط)، 1972م.

47. قاسم، سيزا، **جماليات المكان**، دار قرطبة، ط2، 1988م.

48. القاسم، نبيه:

- **الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف المكان- الزمان- الشخصية**، دار الهدى للطباعة والنشر، ط1، 2005م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **محمد علي طه مبدع راودته الكلمات وراودها دراسات في أدبه**، دار الهدى للطباعة والنشر، ط1، 2007م.

49. القصرواي، مها، **الزمن في الرواية العربية**، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط1، 2004.

50. قطامش، أحمد، **عبور النهر**، (د، ن)، (د، ط)، 2000م.

51. كتاني، ياسين، **شعرية الحداثة في الرواية العربية**، مكتبة الرائد العلمية للنشر (د، ط)، 2014م.

52. ابن كثير، إسماعيل القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، دار الغد العربي، ج4/1، (د، ط)، (د، ت) .

53. لحميداني حميد، **بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)**، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1991م.

54. مارتن، والاس، **النظريات السردية الحديثة**، ترجمة: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، (د، ط)، 1998م.

55. مبارك، إبراهيم، **سواحل البحر**، اتحاد وكتاب وأدباء الإمارات، ط1، 2002م.

56. مبروك، مراد عبد الرحمن، **بناء الزمن في الرواية المعاصرة رواية تيار الوعي نموذجا (1967 –1994)**، مكتبتنا العربية الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د، ط)، 1998.

57. مرتاض، عبد الملك، **في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد**، عالم المعرفة، (د، ط)، (د، ت) .

58. مفتاح، محمد، **تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص**، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992 م.

59. منصور، أبو علاء، **على ضفاف النهر**، دار الشروق، ط1، رام الله، 2014م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

60. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين، **لسان العرب**، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ.

61. مونسي، حبيب، **فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د، ط) 2001م.

62. النابلسي، شاكر، **جماليات المكان في الرواية العربية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1994م.

63. ناجي، جمال، **غريب النهر**، الدار العربية للعلوم ناشرون، (د، ط)، (د، ت) .

64. نجم، محمد يوسف، **فن القصة**، دار الثقافة، ط5، بيروت– لبنان، 1966م.

65. أبو نزار، صخر، **النهر الغريق**، مؤسسة العنقاء، ط1، 1999م.

66. النصير، ياسين، **الرواية والمكان**، دار الشؤون الثقافية العامة، (د، ط)، (د، ت).

67. همنغواي، إرنست، **الشيخ والبحر**، دار النسر للنشر والتوزيع، ط1، 2002م.

68. يخلف، يحيى، **نهر يستحم في البحيرة**، دار الشروق، ط1، 1997م.

– الرسائل الجامعية:

69. الخربوبي، غدير، **المكان في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، الأردن، 1993م.

70. خروفي، محمد الصالح، **جماليات المكان في الشعر العربي المعاصر**، رسالة دكتوراة، جامعة منتوري، قسطينة، 2006م.

71. دريدي، محمد رشدي، **النص الموازي في أعمال عبد الرحمن منيف الأدبية**، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2010م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

72. الديب، وئام، **تقانات السرد في الخطاب الروائي العربي في فلسطين من عام 1994-2006م**، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، 2010م.

73. عبد العالي، قمرة، **البنية الزمانكية في رواية الرماد الذي غسل الماء دراسة تحويلية تأويلية لعز الدين جلاوجي**، رسالة ماجستير، جامعة الحاج خضر باتنة، الجزائر، 2012م.

74. لونيسي، الصالح، **تيار الوعي في رواية التفكك لرشيد بوجدرة**، رسالة ماجستير، جامعة الحاج خضر- باتنة، الجزائر، 2012 م.

75. المحمود، صفاء، **البنية السردية في رواية خيري الذهبي، الزمان والمكان**، رسالة ماجستير، جامعة البعث، العراق، 2010م.

76. موساوي، أحمد، **المصطلح السردي عند عبد الملك مرتاض (كتاب: في نظرية الرواية أنموذجا)**، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، 2012م.

77. يحيى، سعدية، **دلالة المكان في رواية عابر سرير لأحلام مستغانمي**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008م.

-الدوريات والمقالات:

78. الأنصاري، عبد الواحد، **تيار الوعي حكاية مدرسية**، نوافذ، 3، مايو، 2008م.

79. البياتي، عادل جاسم، **الرافدان وأثرهما في أدب المياه وقصص الطوفان**، مجلة آداب المستنصرية، العدد الثامن، 1984م.

80. حمد، محمد، "**الهوية ومرايا السرد النرجسي" في قصص محمد علي طه**، موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني الحديث.

81. حمدي، محي الدين، **مدخل إلى "الصمت في النص السردي"**، جامعة صفاقس، مجلة كلية الآداب واللغة، العدد الثامن، 2011م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

82. خضر، خالدة حسن، **المكان في رواية الشماعية**، مجلة كلية الآداب، عدد 102.

83. خليل، سليمة، **تيار الوعي، الإرهاصات الأولى لرواية الجديدة**، مجلة المخبر، جامعة محمد خضير– بسكرة، عدد 7، 2011م.

84. الخليلي، علي، "**الضفة الثالثة لنهر الأرض** " **لحسين البرغوثي البحث عن الحرية**، الأيام، الخميس، 4، أيار، 2006م.

85. الديك، نادي، **قراءة في رواية النهر بقمصان الشتاء**، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، مجلد 4، العدد الأول، 2007م.

86. سليمان، بسام خلف، **الحوار في رواية الإعصار والمئذنة لعماد الدين خليل –دراسة تحليلية**، مجلة كلية العلوم الإسلامية، عدد 13، مجلد 7، 2013م.

87. سليمان، وليد، **نهر الأردن المقدس والخالد**، جريدة الرأي، الجمعة، 30–12–2012م.

88. شلاش، غيداء، **المكان والمصطلحات المقاربة له–دراسة مفوهوماتية**، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مجلد 11، عدد 2، 12–5–2011م.

89. ضمرة، نازك، **جسر بنات يعقوب لحسن حميد قراءة نقدية**، ديوان العرب، 12، شباط، 2008م.

90. الضمور، عماد، **وظائف العنوان في شعر نادر هدى**، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد 28، 5، 2014م.

91. عبدو، باسم، **قراءات البناء الفني في لرواية جسر بنات يعقوب**، ستار تايمز، 23، 8، 2008م.

92. معتصم، محمد، **رواية غريب النهر لجمال ناجي: تخييل القضية الفلسطينية**، صحيفة قاب قوسين، 1، 6، 2013م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

93. القصراوي، مها، **الخطاب الروائي في مواجهة الواقع في" روايتا نهر يستحم في البحيرة وماء السماء ليحي يخلف نموذجا**، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، العدد الثاني، المجلد الحادي والعشرون، يوليو، 2013م.

94. العميري، عبد الجليل، **شعرية المكان في رواية ثرثرة فوق النيل**، مجلة عود الند، عدد 7، 6 يناير، 2012م.

95. مشارقة، تيسير، **تجريب فلسطيني مبكر في رواية الضفة الثالثة لنهر الأردن**، دنيا الرأي، 3-5-2005م.

96. معلم، وردة، **الشخصية في السميائية السردية**، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، الملتقى الوطني الرابع، السيمياء والنص الأدبي.

97. المغربي، حافظ، **عتبات النص والمسكوت عنه في قراءة نص شعري**، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة.

98. نافع، جمال، **الوضع القانوني لنهر الأردن وحقوق الشعب الفلسطيني في مياهه**، مجلة صامد الاقتصادي، العدد 89، تموز، أب، أيلول، 1992م.

99. أبو نعسة، سعيد، **الشخصية الصهيونية في روايات حسن حميد –جسر بنات يعقوب–** ملتقى رابطة الواحة الثقافية، عدد22، 2006م.

–المواقع الإلكترونية:

100. أبراش، إبراهيم، **البعد الديني للقضية الفلسطينية، فلسطين أولا**، 7- 4- 2008: //www. palnation. org/vb/showthread. php?t=184

101. أحمد، دارين، **في النهر وتجلياته**، معابر، http: //www. maaber. org/ issue_march10/editorial. htm

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

102. بلاوي، رسول، **موتيف النهر والبحر في شعر يحيى السماوي**/ الناقد العراقي / 16-6-2013 http: //www. alnaked-aliraqi. net/article/16390. php

103. الجنابي، قيس، **البناء الروائي والنزوع التوراتي في رواية جسر بنات يعقوب**، جريدة الاتحاد http: //www. alitthad. com/paper. php?name=News&file=article&sid

104. الواحاتي، محمد رمضان، **توظيف لغة الحوار في بنية الخطاب السردي**، المؤتمر الثاني للقصة خصوصية الخطاب للسرد عند كتاب الصعيد، 21-11-2013م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الملخص باللغة الإنجليزية

Abstract

The Jordan River, is one of the places of interest in the life of the Palestinian people, because of the implications that it has, which penetrated in their various life forms. It has a strategic importance since it passes in some Arab countries, and it is considered as an important place for the Jordanian and Palestinian peoples, while its dominated by the Zionists, who have control economically and politically, which led to radical changes in Palestinian life.

The study covered narrative works that has mentioned the Jordan River in their titles, then, it has been observed that they just carry symbolic meaning, followed with a deletion and brevity, and topped with a grief.

The first chapter contains several implications, weird, nostalgia, agony, cross, return, conflict and fighting, it was like a door to get out and displacement, and at the same time, the key to the return, that return which carried with it the meanings of oppression and pain, and it was the defense point of the homeland, militants rounds has revolved around its banks, and it was a place to atone sins and guilt, and the source of the good things that the people overflowed with water, fish, happiness and contentment.

When the Jews start controlling The bridge (that connects rivers banks) since ancient times, it starts also to have a sign of the profane place, which appeared clearly in the novel "Jacob Girls bridge", after that it was a safe place for the people.

Jordan River indication is reflected on the political, psychological, social and religious perspectives, and it has an effects over Palestinians life in the continuous attempt to control the place by the occupation that makes the

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

river its title falsely. The implications of Nakba, Naksa, and Oslo agreement appeared and affected on the narrative works in this study, which have taken the character of the pain, making those tragic events a fertile ground for conflict, fighting, and resistance, river crossing with its concerns and difficulties became a title for the fighters, then, at the time of displacement; the Palestinian dream weaken slowly even became his dream of returning to it though dead, and to be buried in its soil after being denied alive; as appeared in the novels: "a river baths in the lake" and "the river's strange". This study invoked a number of destroyed villages: "Kasmkh" and "Abbasiya", and it talked about the displacement of "shammasneh" people, where the Palestinian lived happy and carefree life in their country and along river banks, as they were living doing their normal life works, such as washing clothes and dinnerware, women come to the river to make shower, and people ask God for their needs in its water, and visit righteous shrines such as "Abu Reesh shrine", while the Zionist seeks forcibly to prove its ownership of the place, practicing his irrational religious rituals; such as cleaning up the place by a blood of a donkey!

Novel figures appear in several figure types and colors; the homeless strange, resisting personal, and then, a Jewish personal in the novel (Jacob Girls bridge), and the Spy in the novel (Sapphire river), and all of them have affected the river place and the bridge.

Palestinian time makes a Cohesion with Palestinian place, so, the narrative work reflected the state of the country in general and the river especially, after the time of the Nakba, Naksa, and Oslo agreement in 1993, and we dealt with those partial cross-retrieval technique, which occupied a large share of the time elements, in addition to another time techniques such as the stream of consciousness, and it has wrapped the character with grief and sorrow.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

The internal dialogue in the novels appears in a sad color, reflecting the Palestinian pain story, personally and in general, while the external dialogue talks to deal with events, and to show persons internal characters.

Finally, The study ended with descriptive title; that focus mainly on location filming dramatically, in addition to a description of the pure, aching and expatriate human emotions.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com